علاء مشذوب

بائع السكاكر

رواية

دار التنوير
للدراسات والنشر والتوزيع

عنوان الكتـــاب: **بائع السكاكر**
اســـم المؤلـــف: **علاء مشذوب**
المـوضــــــــوع: **روايـــة**
عدد الصفحات: **190 ص**
القيــــــــــاس: **14.5 × 21.5 سم**
الطبعـة الأولى: **1000 / 2018 م - 1439 هـ**

ISBN: 978-9933-38-023-6

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى
Copyright ninawa

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب **4650**
تلفاكس: **+963 11 2314511**
هاتـــف: **+963 11 2326985**

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
Ayman ghazaly

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب،
بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

علاء مشذوب

بائع السكاكر

رواية

I

بداية النهاية ذكريات دامعة

في ذاكرتي كثير من الحكايات والأساطير، التي لا أستطيع سردها بشكل متواز. ليست لديّ آلية مونتاج الأفلام السينمائية، كي أقسم صفحة الكتابة إلى قسمين أو أربعة لأحداث كانت تجري في آن واحد، ولكن ليس بالإمكان أحسن مما كان. قالها مجنون ومضى، دلالة على ضعفه، إذ أنه بالإمكان أن يكون الإنسان أفضل مما كان. المهم أن الذي عشته، هو أن أمي كانت تلد في كل عامين طفلاً ذكراً، وعندما أصبح أبي شيخاً، صارت تنجب البنات. بدأ الإنجاب من الصفر، وبما أنهما كانا يعتقدان أن الصفر ليس من الأعداد المهمة، فقد مات الطفل الأول واسمه حسين، وتبعته ليلى بسبب المرض، بعد أن شاع وباء في منتصف الخمسينات، وبدأ والداي بالعدد الطبيعي، أي بالرقم واحد.

قررتُ أن أكتب بعض أشيائي، وحرت كثيراً من أين أبدأ! كتبت كثيراً، ومزقت أكثر، وكنت أشعر بالحرج الكبير، وأنا وسط أناس لا يفكرون أبعد من إنقاذ أنفسهم مما هم فيه، بينما أنا حائر بكتابة بعض التفاصيل التي ربما لا تهم غيري. وبعد أكثر من سنة، أقبلت بعض الوفود، كي تخيرنا قبول اللجوء في بلدانها.

لم أحزم شيئاً من أشيائي داخل الخيمة، سوى حقيبة سوداء فيها أوراقي التي كتبتها على شكل خلخال امرأة بدوية، له رأسان، أي أني جعلتُ طريقة سردها، تقرأ من البداية على أنها نهاية الأحداث وصولاً إلى بدايتها، وتقرأ من

النهاية على أنها بداية الأحداث وصولاً إلى نهايتها. كتبت كل هذا من أجل أن أنزع كل ما يربطني بالمكان، وفي الوقت نفسه ليكون جزء المرآة الذي كنته؛ ولكن هذا كان يمثل هموم وآلام كثيرٍ من أفراد الشعب العراقي.

اصطفت الحافلات الكبيرة والمكيفة أمام الغيتو الذي يجمعنا قسراً، وبدأ أحد رجال بعثة الأمم المتحدة، وبحماية رجال جيش المملكة العربية السعودية، بقراءة الأسماء بغية فرزنا إلى حيث الدول التي اختارها كل منا. تقدمتني عائلة مكونة من أب وأم بالإضافة إلى أطفال وصبية وشباب. نظرت إلى الأطفال وتذكرت تاريخ عائلتي.

❖

في الزاوية القصية من العالم، وفي زمن من دون ملامح أو رقاص لساعاته، جلست أستدرج أحلامي وأضغاثها، كأنها مذكرات في اللوح المحفوظ، كانت محفورة في ذهني كما يحفر الماء نقوشه وأخاديده بين الصخور. منذ ألف ألف عام كنا مثل نجوم خافتة، كانت أمي أرضاً صالحة للضوء، عندما نثر أبي بذاره، استفاق الهواء من غفوته، فكانت الولادات بلون الدخان، وكان البحر والسرد والأشجار. حينما ماج البحر بمخاضه الكبير، كانت الطقوس الأولى للشجر والطير. وعندما كبر الإنسان، كانت النساء الإله الأوحد، الأرض محرابها، والسحر والشمس والفراغ.

أفرك عينيّ ولا تتضح الرؤية، الشوارع مضببة بندف الثلج، أو دخان السحر، لا أتذكر جيداً إن كان حلماً أم حقيقة، أكان ليلاً أم نهاراً، ولكن ما أنا متيقن منه أن أبي ذات يوم حدثني عن عائلته وصباه؛ إنه الابن الثاني لأب مات مبكراً من دون سبب كأنه عرجون نخلة باسقة، أو نهر جف عطشاً،

وأمّ سهرت كثيراً على تربيتهما حتى كبرا، وأخت وحيدة تعمل جاهدة على تجنب شرهما. دخل الكتاتيب، ومثل أية عائلة فقيرة إن لم تكن مسحوقة، تركها بعد أن تعلم الصلاة والقراءة والكتابة بمهارة، وكأنه مثل طير تنتهي فترة حضانته بمجرد أن يمتلئ جناحاه بريش يصد الهواء ومنقار تحول من الأصفر الغض إلى الأسمر الداكن. تاه في غياهب العمل، مرة يعمل أجيراً كفلاح عند إقطاعي متوحش بالمال ومستهتر بالسلطة، يزرع ويسقي الأرض مثل شاعر يعتلي المنصة أمام أساطين اللغة، أو إله خائف نفد طينه وبقايا لوحة من الخزف لم تنتهِ بعد، أو عامل بناء ينقل القرميد من مسافة بعيدة إلى الطابق الثاني ومرة إلى قبو، لبناء سرداب أو قبر أو قصر لأحد الأثرياء.

ضحك أبي مقهقهاً، واتكأ على يديه ليسند جسده المهتز. ضحكنا لضحكته، ثم سأله أخي الأكبر الذي كان يجلس قربي ليؤنسه بالحديث، عن مواقف تضحكه، فقصّ حكاية زواج أخيه الأكبر من ابنة عمه وقال: كان ذلك في بداية الخمسينات وربما قبل ذلك بقليل عندما أفردت أمي كوخاً أصفر بباريائه القصبية قرب بيتنا الطيني المطعم بالقرميد، وبعد انتهاء مراسيم الزواج، دخل العروسان إلى كوخهما، ولم يطل بهما الوقت حتى حدثت المفاجأة، فقد اندلقا من الجانب الأيمن للكوخ وهما يحتضنان بعضهما بعضاً. لم يكن أحد من الأقرباء أو الجيران أو الضيوف حاضراً، سواي وأمي وأختي الصغرى التي انشغلت بجمع الفرش والبُسط. ضحكت أمي وضحكتُ معها، وسرعان ما عاد أخي وزوجته إلى داخل الكوخ ليتما صراعهما المنجب.

لا أعتقد أن جدي الأول قد جاء مع عتبة بن غزوان عندما بنى البصرة، أو جاء مع من ناصروا الحسين في قضيته، أو مع أبي جعفر المنصور عندما بنى بغداد، لكن أحد أجداده، وعلى مسافة بعيدة وفي قلب الصحراء الدامية

بالعطش والقسوة، وعند منطقة تسمى حصن الأخيضر، بنى هذا الحصن في زمن العباسيين، ربما كان أبي سليل ذلك الجد. ولكني مع ذلك لا أعتقد أن أيّاً من أجداده الذين انسلَّ منهم، جاء ليقارع المغول. لم يشبه العقيد نيكولاس ريكاردو ماركيز، ذلك العقيد الليبرالي الذي قاتل المحافظين في كولومبيا، والذي اصطحب حفيده غابرييل إلى السيرك ليريه الجليد، فلما لم يجده أخذه إلى ثلج يغطي سمكاً في خزان، فأنا في الأصل لم أحضر وفاته، إذ كنت ما أزال في ظهر أبي مسجلاً عند الغيب. وعندما بدأ يُسمع صوت دبيب الناس على الأرض، كانت جذور جدي قد بدأت بالوجود، فقد ولد أبي بعد إعلان العراق مملكة في آب من عام ١٩٢١، بستة أعوام.

لم يكن يختلف عن الآخرين سوى بشيء واحد، وهو أنه ولد في عائلة قد حددت النسل قسراً، فكان له أخ وأخت فقط. عاش حلماً أو طفولة قاسية مثل كل الصبية، إلى أن أصيب بمرض الجدري الذي ترك أثره من خلال البثور المنتشرة على جغرافية وجهه كله. لم يعرف لبس البنطال، وقد اعتمر اليشماغ والعقال، فهما لباس البسطاء كلهم وربما كان العالم العربي كله يموج بين البداوة والريف باستثناء البعض ممن انصهر في الدولة العثمانية في مراكز المدن البسيطة.

لم يمتهن أبي الوظيفة بابًا للرزق والمعيشة، فقد ترك التعليم وهو في المراحل الأولى من الكتاتيب، ولكنه يجيد القراءة والكتابة بشكل جيد. له شهادة جنسية عثمانية صفراء طويلة، رغم أن اسم جده (تومان) كان يثير الشبهة في زمن النظام البعثي بعد ذلك بزمن طويل. كما أن الأسماء في الوقت السابق واللاحق كانت تأخذ من المشاع في المجتمع ومن أسماء المحتلين الذين مروا على تراب هذا البلد المسكين والمستباح من قبلهم، فقد كانت أسماء بعضهم (مود) على اسم الجنرال البريطاني، أما من لم يرزق

بطفل إلا بعد حين، فكان يسمي أبناءه بأسماء غريبة مثل (زبالة، جحش، شنگة...) وما زال بعضها يعيش حتى يومنا هذا.

مدينتي قبل عام ١٩١٠، عندما كان الاحتلال العثماني يشهر سوط ذله على رؤوس من يسكنون المنطقة العربية وبعض الأطراف المترامية لها، عبارة عن سور عال يحيط المدينة القديمة وقشلتها. كانت أبوابها عند أذان العشاء ترفع معه، فيقضم الناس أعمالهم قبل ذلك ببعض الوقت، ومن لم يستطع يضطر إلى المبيت خارجها. في تشرين من عام ١٩٣٢، أي بعد اعتراف عصبة الأمم المتحدة بالعراق كدولة مستقلة ذات سيادة، نزح أبي مع أهله إلى مركز المدينة التي كانت لا تزال صغيرة تحيطها الصحراء من الجهة الغربية كأنها بوابة جهنم مجهولة السر.

الشوارع المؤدية إلى تلك الأبواب ترابية تعج بالغبار عندما تشقها عربة يجرها حمار قوي، أو عندما تضرب شمس الصيف الحارقة وجه الأرض فتتعالى منها طبقة خفيفة من العجاج نتيجة تزاحم الأقدام، وسط عدد من أهالي المدينة والزائرين، مع نساء يتوشح ظاهرهن بالسواد، فالعباءة السوداء المغمسة باللون الأحمر من حرارة الشمس، كانت هي الصفة التي تميز نساء المدينة. وفي الشتاء كانت تلك الطرق تتحول إلى بحيرات ضحلة وآسنة جرّاء هطول الأمطار المتقطعة بين فترة وأخرى. وبين العجاج والوحل كانت تلك الطرق مصدر إزعاج للسابلة والمستطرقين. العربات التي تجرها الحمير والكدش والبغال كانت قليلة جداً، وهي تأتي محملة ببعض ثمار البساتين المحيطة بها إلى داخل السور. الجو ملبد بالقداسة والدم والغرباء. الزمن عاطل عن العمل، إلا إذا احتاجه أحدهم لموعد طبيب أو حبيب. ينقسم سكان المدينة إلى قسمين؛ إما مالك بستان أو

فلاح فيها، والباقي غرباء عليها، وأنا أشم رائحة التطرف تملأ مساحات أجسادهم وعقولهم.

بعد قيام الجمهورية بدأت الأمور تتغير، تزوج أبي من أمي بعد أن طلق التي قبلها بسبب عدم قدرتها على الإنجاب، وهذا هو ديدن الشرقي الذي يعد المرأة مشروعاً لإنتاج البنين تحديداً، وبخلاف ذلك فهي مثل خيل الشرطة يجب أن تطلق عليها رصاصة الرحمة. كان أبي مثل كل البسطاء من الفلاحين والعمال، لم يكن يعرف غير الفلاحة مهنة يعتاش منها، فدرج في البداية على اكتشاف الأشياء والأماكن. تدرج في الأعمال والمهن المختلفة من عامل بناء أجير، إلى صبي مقهى، إلى بائع للخضر والفواكه إلى كيٍّ الملابس، ثم إلى وكيل للمواد الغذائية، وصولاً إلى أن أصبح وكيلاً لبيع الفواكه والخضر في سوق الجملة.

ولكن انتظروا هل مرت هذه المراحل من دون عناء أو تعسف من قبل الزمن والأقرباء والأهل؟ أعتقد بل أجزم أن ذلك مستحيل. وإني لأذكر مما كان يفيض منه في لحظة عصبية أو انزعاج عندما كان يرى أخي الذي يتوسطنا بالعمر وهو يجلب لعائلته عدة كيلوغرامات من الفواكه أو يسرف في تبذيره المال في قضية يعتقد أبي أن فيها إسرافاً، عندها يقول بضجر: في الخمسينات كنا نأخذ التمر الزهدي ونضعه تحت لساننا ونشرب الشاي عليه، فالسكر في وقتنا لا يشتريه إلا الأغنياء وكان يباع على شكل قند، وأنتم الآن تشترون أكياساً من السكر وكيلوغرامات من الموز والتفاح بعد أن كنت أبيعه بالمفرد. يبدو أن أبي لم تغادره لحظات العوز التي عاشها فيما مضى، ولازالت تلازمه حتى بعد أن أفاض الله عليه بالخير الوفير.

ذات مرة سألت أبي لماذا لم يشتر لنا بيتاً في حيٍّ مرموق كحيِّ الحسين. ابتسم وضحك بعقلي، ثم تجهم وغضب وقال: في تلك الأيام كنت فقيراً لا أمتلك قوت يومي، وحتى إن امتلكته، فلا يمكنني أن أشتري في المكان الذي تقصده، لأنه مكان صحراوي يعجّ بالذئاب والثعالب والحيوانات المفترسة، هذا الحي الذي تمّ افتتاحه في خمسينات القرن العشرين عندما اختنقت المدينة القديمة بسكانها، وضاقت الأبنية بأهلها وبالزائرين، فقررت الحكومة إنشاء حي جديد للتخفيف عن مركز المدينة، فشرعت باختيار الأرض والتي سميت لاحقاً بحي الحسين باسم المتصرف حسين السعد، وأراد بذلك تخليد اسمه عندما كان متصرفاً لمدينة كربلاء. وتم تخطيط الأرض على شكل عرصات تبلغ مساحة العرصة ستمائة متر مربع، سعر المتر المربع الواحد هو خمسون فلساً، إلا أن المواطنين أعرضوا عن شراء تلك العرصات، فاستدعى متصرف اللواء حسين السعد أعضاء غرفة تجارة كربلاء ووجهاء المدينة، وطلب منهم أن يشتروا القطع تشجيعاً لبقية المواطنين، فما كان منهم إلا أن سارعوا إلى الشراء وعلى مضض، وقد قامت شركة هندسية أمريكية بوضع مخطط الحي، واليوم يعتبر هذا الحي من المناطق المتميزة بين أحياء المدينة.

حلَّ الشتاء ورحلت الفراشات. جاء عمي عبد الرحمن عبود تومان بملبسه الميري يتأبط بندقيته الـ(مكنزي). وجدني متوجهاً نحو قبلة الحلم أطبق كفي متأملاً مثل رهبان أمام تمثال بوذا. نزع قبعته وهو يحدث عمتي: سيمكث المطر أمام أبواب البيوت وقتاً طويلاً، ويطرق زجاج الشبابيك مثل مرض النقرس. ردت عمتي وهي تضع قدر الطبخ على ماكينة الفتل: ما ذنب الغزال كي يرتجف خائفاً من مكر فهد جائع.

كان عمي، رغم اللين والطراوة التي تسكن وجهه، قاسياً على أبي وأمي. يروي أبي لي ولأخوتي في ليالي الشتاء القارسة، ونحن نتكور حول مدفأة علاء الدين بشباكها الدائري وألسنة النار غير المستوية اللاهبة كأنها تقضم حطباً يابساً منقوعاً بالكاز، أنه كثيراً ما تعرض لتعسف عمي بالكلام، وعندما يغضب كان يهجم عليه بحزامه العسكري فيضربه ويضربه ولا يتركه حتى يفر من تحت يديه مثل عصفور مبلل بالخجل. كان أبي يروي حكايته الحزينة وهي معجونة بالبرد، يتنهد ويزفر ويقول: ذات مرة وشت زوجته بي، وكانت أمك بالصدفة في المرحاض المشترك تسمع وشايتها، فأجَّلَ أخي قصاصه مني حتى العصر لظرف طارئ أجبره على الخروج.

قبضت أمي بطنها، وانتظرت أخي حتى يخرج، وما أن سمعت صريراً خشناً يصك الآذان صادراً من الباب الخارجي وهو ينغلق، حتى خرجت على غير رشدها مسرعة تخبرني بالذي دار. لم تكن لي قدرة على مواجهته، ففكرت بالرحيل إلى أعمامي في مدينة بابل. طلبت من أمك أن تصرَّ أشياءها، لم يكن لها غير (صندقجة) كجهاز عرسها جمعت فيه ملابسها وخلخالها الذهبي، ورزمت بطانية حوافها سمراء ولحافًا يقيها شر البرد، وجمعت الموقد النفطي الصغير وبعض القدور المعفسة سوداء الظهر في بقجة، وحملت بعضها. طويت عقالي في كيس خيش مع بعض أوراقي، وحملت البقجة الكبيرة، ووضعت على رأسي باقي الأغراض.

تسللنا خلسة مثل لصوص النهار نمشي على رؤوس أصابعنا، حتى وصلنا الباب الخارجي. كانت أمك مسكينة غريبة، كما تطلق عليها زوجة أخي كونها قريبته فهي ابنة عمته، فأمك ابنة ريف جئت بها من منطقة الفراشية. عندما عاد أخي إلى البيت وهو يبيت شراً مثل أفعى تختزن السم، تفاجأ بهربنا، جنَّ جنونُه، وهو يصرخ:

- (ولك عبد الله تشرد، إلا اذبحك اليوم).

لحق بنا إلى مدينة الحلة، حيث مضارب عشيرتنا خفاجة. لم أكن أتصور أو أتوقع أن يلحق بنا. سمعت بمقدمه عند شيخ القبيلة، ولم يكن يجرؤ على إلحاق الأذى بي، ولكنه طلب من الشيخ الإذن بإرجاعي معه، وطلب منه الشيخ وعداً بألا يسيء إلي، فقطع وعداً بذلك. عدت مثل قافلة بدو مهزومة، لم يجرؤ على الحديث معي، لكنه كان يتبرم، ويود لو ينفك من العهد الذي أبرمه وقطعه على نفسه، كما كنت أتهيب الحديث معه.

عندما دخلنا البيت، جئت معتذراً، رغم أنني لم أسِئ له، ولكن العرب قالت أن تعتذر من الكبير. وعندما وجدت منه بعض القبول، سألته عن الذي يسبب له الارتياح، فطلب مني تحويل ملكية نصف البيت الذي باسمي إليه، وكان ذلك قمة سعادتي، إذ لم أكن أتصور أن ذلك هو السبب في كل هذه المشاكل. شعرت بأن شراكة البيت كأصفاد تطوقني، وسمٌّ أتجرعه كل صباح وسجن يغلق قضبانه عند الليل. لم أجرؤ على مفاتحته بشراء حصتي، كما أنني لم أجرؤ على بيعها لغيره، لم يكن الحل إلا أن أتنازل له عن حصتي بلا مقابل.

نهضت أمي على ركبتها وأنزلت عن المدفأة قدر الباقلاء التي فاحت رائحتها في أرجاء المكان، رفعت غطاءه فهب البخار مثل قطار قديم ينفث دخانه. تناولت بمغرفتها حفنة من الباقلاء ووضعتها في الصحن الفرفوري، ووضعت قربه طاسة ملح خشن. كانت دائماً تخير أبي في أكله، ومن ثم ملأت صحون الفافون وقدمتها إلينا. كانت أمي تطبخ بنفسها، وهي تصلي على محمد وآله وتبسمل عند كل حركة تقوم بها أثناء الطبخ.

هكذا قرر أبي من جديد أن يبدأ مسيرة بناء أول قرميدة في حلمه الذي سيتنقل في عمله بين أكثر من مكان، ويجمع الفلس على الفلس، ليشتري بيتاً في منطقة باب الخان أو العباسية الشرقية كونهما منطقتين من المناطق الشعبية، حتى حالفه الحظ أن يشتري بيتاً في منطقة باب الخان على نهر البازول بسعر مناسب، والسبب أن المكان مملوءاً بالحشرات الضارة، وقد أكل البزل كثيراً من أطفال البيوت الذين يسبحون فيه.

ذات مرة سألت أمي عن قصة زواجها من أبي، وهي الحسناء كبدر الزمان، استدارة وجهها مثل البدر، وأبي الرجل البدوي العربي. تبسمت وقالت: أتعلم متى رأيت أباك أول مرة؟ فقلت لها: متى؟ قالت: كنت أصعد على نخلة نشوة أقطف ثمرها الناضج، ورأيت على مبعدة عدة رجال يتقدمون نحو باب بستاننا، وكنت أعلم من قبل أنه موعد مجيء الرجال. لم يكن أيٌّ منهم يعلم أنني كنت فوق النخلة أتلصص من دون قصد على مقدمهم، وكان أبوك من بينهم متزيناً ببشماغه الجديد وعقاله المبروم المصوّف، فعرفت أنه سيكون زوجي وحبيبي وراعي بيتي.

ربما تكون أحلامي متناقضة، فلا سلطان لي عليها ولا سلطان لها عليّ، النقطة التي نلتقي عندها أن يحقق أحدنا عبر الآخر ما يريد قدر المستطاع، فليس بالحلم وحده يحيا الإنسان. كنت بعد كل هذا الجهد الجهيد، وعندما أستلقي في فراشي، أمطّ رقبتي قليلاً على وسادة القطن المغلفة بغطاء من قماش التترون المقلم، أسبل يديّ ورجليّ، يحدّق القمر في عيني، ينتقي أحلاماً ويوزعها على العاشقين، فقد كانت تنام فيها غابات من الأحلام، لا

أستطيع أن أحلمها من فرط التعب، بعض الشهب تهوي إلى اللامكان مثل أسهم أُوقدت النار في رؤوسها.

من حسن اختيارات أبي للبيت، أن بيتنا القديم كان بجانب بستان يضج بالنخيل الفارع مثل مجنون منكوش الرأس، وعويل الكلاب وصرير الصراصير ونقيق الضفادع وأصوات لا أسماء لها تختلط فتخلق صخباً، وحركة أغصان الصفصاف وبعض الرطوبة التي تتسلل إلى الهواء المطيب بالعليل وأشباح تتخطف الستارة الفاصلة بين حديقتنا والبستان، ولا أحد يجرؤ على طلب المساعدة من ظلال الأشياء المتحركة على الحيطان، وأصوات السيارات بين ذهاب وإياب على شارع البازول لا يهدأ ضجيجها.

بيتنا القديم مثل جنينة صغيرة، بابه الحديدي مطلي بلون الحناء أو يميل قليلاً إلى لحاء الأشجار، هكذا أتذكره، ربما كان لونه فاتحاً أكثر من هذا. خلف الباب ممر من الحب الفواح، وسياج يحدده، وشجرة رمان تطل بجلنارها عليه، وشجرة التوت العالية تملؤه بثمارها السود والحمر وما بينهما. كلما رفعت رأسي إلى الأعلى، رأيت عصفوراً ينقر ثمرة، بعض قطعها يهوي إلى الأرض وبعضها يعلق بمنقاره حتى أضحى ملوناً. في أقصى جهة البستان، يوجد تنور أمي والحطب من سعف النخيل وماسكة السمك، وطابك الخبز وبعض الطحين المتناثر قرب فوهة التنور. من الجهة الأخرى للحديقة وفي أقصاها، كانت زاوية البيت المخيفة، وقطط سوداء تلمع أعينها في الليل وبؤبؤها الواقف مثل شيطان أخرس يزرع الرهبة في قلبي، فأفرُّ إلى داخل البيت. في النهار كنت أتمنى أن أجز المرجة الخضراء التي تكتسح الحديقة بآلة جز الحشيش لأقص الزائد منها وأشذب الباقي وكأني أمسد بيدي ظهر البساط الأخضر كأنه فرو الباندا.

ذات ليلة جاء عمي الوحيد مستأجراً صبياً يدفع عربة بثلاث عجلات كانت محملة بأكياس من الخيش كي تخفي ما بداخلها، أنزلها داخل بيتنا عند الحديقة. ظن والداي أنه جاء يطيب خاطر والدتي بسبب إصابة أخيها الصغير - خالي، كان مرتبكاً خائفاً. سلم على الجميع وأخذ أبي جانباً، ولم يطل لقاؤهما دقائق حتى نهض أبي وطلب من أخي الأكبر أن يأتيه بالمجرفة، وحفر حفرة كبيرة وسط الحديقة. نفذ أخي ذلك من دون أن يسأله عن السبب، ومن ثم قام أبي وعمي بدفن الأكياس التي تبين أنها تحمل كتباً دينية ممنوعة، وكنت أنظر إليهم من الشباك المطل على الحديقة. علمت فيما بعد أن ابن عمي اعتقل بتهمة انتمائه لحزب الدعوة العميل آنذاك، وأن رجال الأمن ربما يطبقون على بيته لتفتيشه وحجز الكتب الدينية الممنوعة كحرز جرمي ضده. هاتان الحادثتان ظلتا عالقتين في ذاكرتي التي تشبه في بعض أوجهها الصندوق الأسود الذي لا يترك صغيرة أو كبيرة إلا سجلها. وإذ أنعم الله على الإنسان بنعمة النسيان، فإنني كنت من غير المشمولين بهذه النعمة.

كانت أحلامي مثل طيور مهاجرة، تطوي الأزمنة لتزرع بيضة، وتشرب المحيطات بأجنحتها لتعيد لزرقته ابتسامتها، يتساقط بعضها مثل أجنة، بعضها ينقلب إلى كوابيس، فيتحول ليلي إلى كهف مظلم وأشباح وأفاعٍ بعدة رؤوس، فأركض وأركض مثل قطار فقد رشده. لا ينجو من أحلامي إلا آحادها وهو يلهث في رأسي متعباً، آوي إلى عش ابن عمي عبد الأمير عبد الرحمن فيربت على ظهري وهو يتلو: لا تحزن إن الله معنا.

II
طفولة سابحة فوق صينية سكاكر

تقدم الطابور قليلاً، بينما كانت لجنة الأمم المتحدة تجرد أسماءنا نحن الذين اخترنا الذهاب إلى أبعد مكان في العالم، وهو كندا، حتى نقطع ظمأ الشوق والحنين إلى بلدنا. عندها نظرت إلى الأطفال وهم يتزاحمون ويتضاحكون من دون مبرر، وكأنهم يستعدون لسفرة ترفيهية لا يعلمون أبعد من أقدامهم. تذكرت ولادتي وطفولتي المتعبة المنهكة والمحفوفة بالاغتيال والقتل والتغييب وأنا بائع متجول.

ولدت في مدينة وسط العراق وقلبه النابض، هو حي شعبي واسمي متوكل، في ليل صيفي من عام ١٩٦٨، اختار أبي اسمي قرب (سرى من رأى) عاصمة المتوكل، عندما كانت أمي تنوء بحملها الذي يتقدمها، خاطب المكان بالقول:

- (إذا جاء ولد فسأسميه متوكل على الله، ليحفظه ويذهب به إلى المراتب العليا).

ولدت من أبوين فقيرين، والدي لا يحمل سوى هم واحد اسمه كرامة العيش، جلس على حصران الكتاتيب بثوبه العربي المخطط ببراءته، حلمه وطموحه أن يفك أسرار كتاب الله، ليتعلم الصلاة. وما أن تطور حلمه لأبعد من ذلك، كان البؤس له بالمرصاد، جعله يترك أقرانه ويتجه إلى العمل ليعيل أهله، فهو الابن الثاني لعائلة كانت حضرية في الإنجاب، أو أن الزمن

لم يسعف أباه لينجب له أخوة وأخوات، فاقتصر على أخ أكبر قاسى كل تجليات البيئة المحيطة، وأخت تمسك ذيل ثوب أمها خائفة من حشرجة الحياة وتلكؤها، ليغادر إلى عالمه الآخر.

كانت أحلامي مثل أرض فلاح كسول، أو مثل حياة مصنوعة بيد إله مخمور، يغدق على مكانٍ ذهباً ومياهاً وينسى آخر فيصيبه الجدب، يزرع أشجاراً وشلالات وعيوناً ويسهو في صحراء كبيرة أن يرسم واحة لتسقي نخلة، يرسل مبشرين وأنبياء وأولياء إلى أقصى الأرض، ويترك الأقصى الآخر دون نذير.

لم يتمم يوماً حلم الأمس حلم اليوم والغد، وكأن اليابسة كانت متصلة ومن قطع أوصالها هي المياه. أنتظر، وكأن المياه كانت متصلة ومن قطع أوصالها هي اليابسة. في كل حلم كنت أرتجف مثل امرأة دون طلق، في النهار أكتب أفكاراً وأحلاماً وأفقد بعضها عند الليل. يرافقني في أغلب أحلامي طنين التعميد من قابلة مأذونة لا أتذكر اسمها، يصرخ في أحشاء رأسي فأطفئه بنار الكلمات، فكما الماء عدو الماء، كانت الكلمات هي الداء والدواء، لكن ما أن تتحول إلى رماد، حتى يعود طنينها إلى ذهني من جديد.

ذات أيلول دخلت المدرسة كطالب غريب وسط الحشود، لم أتبين في حلمي إن كانت أمي أو أبي أو حتى أخي الأكبر هو من قادني للتسجيل في مدرسة العزة الابتدائية، هذه المدرسة العريقة بتاريخها وجدرانها وصفوفها، لكن الذي أعرفه، هو أنني كنت أرتدي في أول يوم حذاءً جديداً اشتراه لي أبي من سوق (النعلجية) لبيع الصنادل والأحذية الرياضية والجلد، وقميصاً وبنطلوناً طويلاً قليلاً من سوق العلاوي، وحقيبة جلد قوية تكفيني لأكثر

من عام. فروة رأسي كنت قد تركتها عند الحلاق، وأظافري غادرتها عند سلة المهملات. وفي الليل كانت أمي قد أعدت لي حماماً على غير العادة، والتحقت مع أخي الذي نجح إلى الصف الثالث صباحاً إلى عالم مجهول من الجموع.

أخذني أخي إلى الصف الأول، وأجلسني في الصف الأوسط من مقاعد الجلوس عند المقعد الثاني وعاد إلى أقرانه. كانت حقيبتي فارغة، لكنني لم أتركها من يدي أبداً، كنت أخفي فيها كل مخاوفي. يعج الصف بتلاميذ يصرخون من دون سبب، يصعدون على الرحلات ويدبكون بكل قوتهم، بعضهم يخرج من الصف وآخرون يعودون راكضين، وأنا أجلس في رحلتي دون حراك. سمعت صوت جرس، فبدؤوا يدخلون الصف مثل قطيع خرفان بريئة شَعَرَت بتهديد خطر قادم. جلس قربي تلميذ مثلي دون فروة رأس. وعندما انتظم باقي التلاميذ في الرحلات، كان أغلبهم يشبهني برأسه وحقيبته وملابسه.

كانت الصورة غائمة ومشوشة عندما دخل معلم يلبس بذلة أنيقة وربطة عنق ملونة، فصمت الجميع. طلب منا النهوض من مقاعدنا، ثم أومأ بيده بالجلوس فجلسنا. جاء معلم آخر يلبس بذلة غامقة اللون وربطة عنق تدل على الرزانة والهيبة، ربما كان المدير يقود تلميذاً ومعه أمه، وطلب من معلمنا الإذن بأن يكون في صفنا. دخل التلميذ وهو يلتفت إلى أمه ويبكي، يمسك بيده حقيبة تشبه حقيبة أغلبنا وبيده عملة معدنية وكيس بسكويت. جلس في المقعد الأخير، فالتفت إليه أغلب الجالسين وأنا منهم.

بدأ المعلم يتلو نصائحه مثل كاهن في قداس موت، والجميع صامتون، أخبرنا أنه في الدرس الثاني سيسلمنا الكتب، وأنه مرشدنا، وبدأ يسألنا عن أسمائنا بعد أن يطلب منا النهوض. تعذر على البعض نطق اسمه الثلاثي واكتفى باسم أبيه. كان يعلق على بعض من يعرف أباه، ويسأل بعضهم عن عمل أبيه. كنت أول مرة أسمع هذا العدد الكبير من الأسماء والأعمال، وكان الانضباط على مقعد لأكثر من نصف ساعة. على حين غرة صاح أحدهم من الخلف:

- (أستاذ، لقد بال هذا على نفسه).

بعد أن انساح البول خارج رحلته، ضحك الجميع والتفتُّ إليه بفضول بكر تجاوزت الستة أوراد دون وعي. تبين أنه الطفل الذي جاءت به أمه. تقدم نحوه المعلم وقبّل رأسه، وطلب منه ألا يخاف، فانفجر بالبكاء، كأنه يختزن اللحظة التي ينهار فيها. عندها طلب المعلم أن يرفع يده أي تلميذ يريد أن يذهب إلى المرافق الصحية، وتبين أن أغلب التلاميذ كان يأسر بوله من الخوف، فرفعت يدي مع الرافعين، وسمح لنا بالخروج. أخذت حقيبتي معي، فصاح عليَّ وطلب مني تركها، أرجعتها قرب زميلي الذي عرفت اسمه فيما بعد، لم أكن أعلم أين مكان الصحيات، ولكني ذهبت مع الذاهبين.

عدت وحدي إلى البيت مزهوّاً بنفسي، وحقيبتي مملوءة بالكتب والدفاتر والأقلام والممحاة والمبراة، لقد أوقفنا المعلم في صف طويل أمام مخزن الكتب والدفاتر، فرحت كثيراً، لأنها المرة الأولى التي يعطيني فيها أحد، غير أهلي، شيئاً من دون مقابل، وطلب منا المعلم أن نجلّد الكتب والدفاتر، وأن نحافظ على الأقلام ولا نبريها إلا إذا ثخن رأسها ومن جهة واحدة، ولا

نستعمل دفتر الرسم إلا بتوجيه المعلم، وألا نشاكس. كانت وصايا كثيرة لا أذكرها، وربما يكون قد بزغ الفجر ولسعة البرد تزاحم الحلم فاستيقظت منه.

الذكريات غائرة في طفولة بعيدة، ومثل فرخ طير، أخرج إلى حدود عشي وأحرك جناحي لأمتحن الهواء أو نفسي وأعود أدراجي. أخرج إلى باب الصف وأعود ومن ثم أخرج إلى حدود الساحة التي يلعب فيها تلاميذ الصفوف الذين يكبروننا بكثير وهم يلعبون الحصى كرة قدم وحدود الساحة ملأى بالمتفرجين وهم ينظرون إلى الحصاة مثل عيون اللاعبين. في الأيام والأسابيع الأولى كنت أمسك أسري حتى أصل البيت، ولكن شيئاً فشيئاً صرت أذهب متسللاً إلى الصحيات، لم أكن أنزع بنطالي من على جسدي حتى الركبتين، وكنت أفضل ذلك واقفاً.

كنا نهرع إلى المدرسة مثل خلية نحل، يعلو طنيننا إلى قمم أشجار الصفصاف العالية في الحديقة الجانبية لمدرستنا، وبنفس الهمة عندما نخرج، بعضنا يتكور حول بائعي الباقلاء أو السكاكر المتجولين الذين يعرفون موعد خروجنا. لكن الصبي الذي ظل عالقاً في ذاكرة البعض منا، يتخلف دائماً عنّا، ضعيف البنية مظهره لا يدعو إلى حسن السمت، كثيراً ما يسحب حقيبته خلفه دون أن يحملها على ظهره أو بيده، ليجد أمه تنتظره بلهفة عند باب المدرسة، وتأخذه بالأحضان وتشد على يده وهي تمسد على شعره، وتطلب منه الاستمرار لأنه المتميز على أقرانه، وسيصبح ذا شأن كبير، رغم معرفتها بضعفه الجسدي، وعزوفه عن الاندماج مع وضعه الجديد وأقرانه من أبناء المنطقة والمناطق الأخرى.

أصبحنا نتوجه إلى الصفوف مثل فسائل النخيل، ونجلس على المقاعد الباردة، كانت حقائبنا السوداء تحتضن دفاتر رسمنا البريئة، وعيون الشبابيك بكل سعتها تراقب وتهدد بكلابات المراوح. كانت السبورة السوداء مثل رجل أمن، عند كل خطأ تجلدنا أيدي المعلم، وعند كل شتاء تستقبلنا الشوارع بصباح خائف، فالغربان كما الزيتوني، عند عطفات الأزقة، يتأبطون الأصفاد والبنادق، ليلقوا القبض على كل ابتسامة، أو خصلة شعر طائرة لفتاة حلمت بمستقبل سعيد.

لم تكن أمي تعرف القراءة والكتابة، ولكني حفظت كلمة دار من حبي لبيتنا، وداران من حب الجيران، ومن ثم تعلمت الحرص من النملة التي حبسها أحدهم وأعطاها حبات رز تكفيها لأسبوع ووجدها بعد انقضاء الفترة توفر بعضها، وعندما سألها عن السبب من وراء ذلك قالت:

- (خفت أن يطول حبسي).

حفظت أنشودة المهندس الصغير:

- (لي قطع من خشبي... أهو بها في اللعب).

نظمت كتبي وأشيائي القليلة، أحببت البلبل الفتان يطير في البستان، غنّى على الأغصان بأعذب الألحان. وعلمت أن جمال صوته هو السبب في حبسه داخل أغصان الزينة. هكذا تخطيت الصف الأول والثاني حتى الصف الثالث الابتدائي مثل كل الصبية، أجلس على رحلتي وضجيج التلاميذ يخرج من النوافذ الحديدية والأبواب المطلية بغراء الأخشاب لأكثر من مرة، أذكر جيداً ذلك الشرخ في ذاكرتي مثل ليل الكسوف، عندما حصرني الصبي المعاق بشلل الأطفال الولادي في زاوية الصف قرب سلة المهملات وبقايا

الورق المدعوك وفضلات الأقلام وممحاة مهزومة، وضربني لا لشيء إلا لأني كنت أحفظ قصيدة طلبها المعلم وكان يجهلها.

اسمه مالك، أعرج منذ الولادة، شعره منكوش مثل ساحرات أفلام سينما الأطفال. كل خميس كان يقف على حواف الخط ونحن نلعب كرة القدم في حصة الرياضة، أو نتقاذف الحصى في الساحة في الفرص ما بين الدروس. أبوه يبيع الشاي وهو صبي مقهى الكراسي الحزينة القذرة، يفرغ القمامة كلما امتلأت بفضلات أوراق الشاي. مررت بعد ذلك على مقهى أبيه ووجدت واجهة ثوبه الأسمر ملوثة بدبق الشاي وبخار الماء الحار وأظافر يده متورمة من غسل صحون الأكواب السمراء المائلة إلى السواد.

عدتُ إلى البيت مكسوراً مثل جناح فراشة أو غصن شجرة. رميت حقيبتي البريئة قرب خزانة خشبية اقتسمتها مع أخي الذي يكبرني بعامين، القسم العلوي خاصته، بينما اقتسمت مع أخي الفوضوي القسم الأسفل منها. كان باستمرار يسرق أقلامي التي يضيعها في المدرسة والتي يهديها إلى أصدقائه، والتي يهملها على حز المقعد الذي يجلس عليه أو في جاروره. بينما يتربع التلفزيون عليها مثل برج إيفل وأسلاك الكهرباء والبث من خلفه تحركه مثل دمية.

على حين غرة دارت أمي في مساحة محصورة ما بين المطبخ وغرفة نومها تبحث عن عباءتها، كانت معلقة على المشجب القريب من باب المطبخ، وكنت أنا أبلغ من العمر تسع سنوات، أودعتني أمي عند أخي الأكبر الذي سألها عن ارتباكها ودورانها، فأجابت أن أخاها جرح في معركة الشمال وجاؤوا به إلى بيت أبيها وتريد أن تتثبت صحة ذلك من عدمه. حينما عادت

أمي مع أبي الذي لحق بها، كانت عيناها محمرتين وبعض الخرابيش على وجهها. من حديث أبي تبين أنها قد توهمت أنه جيء به مقتولاً بعد أن وجدت أهلها وأقرباءها متجمعين في البيت، ولكن جدتي هونت عليها وطلبت منها الهدوء والدخول إلى غرفته للاطمئنان عليه.

في صباح اليوم التالي لم أذهب إلى المدرسة، فقد أطبقت الأحلام على أنفاسي مثل سقف مهدم على عائلة فقيرة، قرر الجميع عيادة خالي. عندما دخلت مع أمي وأنا أمسك بذيل عباءتها، كانت المفاجأة المفجعة، كان خالي بقايا مومياء محنطة يعلوها هرم يناطح السحاب، أرى أمي تبكيه من جديد، وهو يعيد قصة جرحه، وبتر رجله حتى آخر فخذه، ويحمد الله أن جهازه الذكري لم يصب بأذى.

ذات مرة طلب منا معلم درس الرياضة أن نلبس ملابس رياضية، وبخلاف ذلك سيضربنا بعصا أعدها من غصن شجرة رمان. طلبت من أمي ذلك فاعتذرت. وبعد بكاء كثير، ذهبتُ مع أبي عصراً إلى محل باتا خائفاً، اشترى لي حذاءً أبيض مثل أحلام القطط. وفي صباح الجمعة ذهبت مع أمي بعد إلحاح كبير لنشتري ملابس رياضية (تراك سود)، وكنت مثل بلبل أطلق سراحه، فمعلم الرياضة كأي ضابط أمن لا يقبل العذر، فعصاه تسبق براءتنا، وغضبه يسحق رجفتنا، مثل قدم ماموث منقرض على زهرة نبات اللوتس. نركض لاهثين خلف كرة القدم وبعض مكعباتها مخلوعة، ومرمى كل فريق، حقيبة خضراء، أو كتب سمراء خط على أولها وآخرها بعض الشخبطات ورسوم وحشية عن فتاة منكوشة الشعر.

كلما صغرت سلامية إبهامي كبر قلمي، واسودَّ بياض أوراقي. هكذا عبرنا الصفوف المتبقية ونحن نحلم بحرف الدال أن يكون بسعة الدار و(الداران) في أوله، وحرف الألف مثل كرامتنا لا يخدشها أي زمن، وعند نهاية المطاف أن يكون الراء، روضة من الحب والاطمئنان.

قرب مدرستنا، كان يرقد سيد هاشمي، ننذر قرب رأسه النذور، فيقطع من قبته الخضراء لونا، ويشده بعضدنا، يودعنا بابتسامة، ونحن نسمع هسيس دعواته في محراب الله. في قاعة الامتحان، نبري أقلامنا بعد كل سطر ننشره، ونعيد بالممحاة جلو ذاكرتنا، فنكتب من جديد، أن الأمل الذي ننشده، يحتاج إلى الكثير من الأقلام والممحاة، يحتاج إلى الكثير من التجاعيد والآلام، وإلى (عصافير) البلدية الساهرة طول الليل، لتضيء كلمات المستقبل الوليدة، إلى ثيل أخضر يمتد عند الجزرات الوسطية وبين حنايا القلوب. مثل الملابس الزرقاء التي لبسناها عنوة وهي تنوء بخريطة الوطن العربي.

في الخامس ابتدائي كنت ألبس ملابس الطلائع مثل أقراني في كل يوم خميس لنرفع العلم فوق هاماتنا، نعتمر القبعات مثل قمم الجبال وصقيع الشتاء ينزل مثل ثلوج كليمانجارو، نصطف مثل سيقان القصب دون أغصان ودون أوراق، مثل عيدان خالية من الحياة. يقف أمام صفنا معلم بعصاه الغليظة ويحذرنا باستمرار، وهو ينظر بعين صقر إلى أرنب يختبئ من براثنه، وأحذية بعضنا (باتا) ترتجف الأصابع فيها، يرغم قصارنا على الوقوف أول الصفوف ويبعد طوال القامة حيث أشعة الشمس تخرج أصابعها، والخجل والخوف يلف بعضنا، والمدير يزعق مثل كلب يعوي أن أعلو البعث، أعلو القائد، فلا صوت في الأرض غير صوت البعث.

تلاميذ الصفوف يصطفون في الساحة الخارجية ويحيطون العلم مثل يوم القيامة، بعض التلاميذ ترتجف أقدامهم خوفاً من البرد، والبعض الآخر يبصق بين يديه ويزيد من احتكاكها علَّ الدفء يحل بينهما. كنا بملابسنا الزرقاء مثل دم فاسد، أو أورام خبيثة، وأرانب أنوفنا حمراء، وأحدنا يمسح سيل مخاطه بكم قميصه بين الحين والآخر. يمر مشرف الصف بعد أن يأمر بأن نمدّ أيدينا مثل عنق نسر دون ريش، ليفتش عن أي تلميذ نسي أن يقلم أظفار يديه وهو يلعب قرب زقاق بيته، أو يعمل في ورشة أبيه.

كنا نحيط بالراية المصلوبة وسط العمود الحديدي وحبال المقصلة البيضاء تنتظر إعلان مسيح جديد صباح كل يوم خميس. ما أن يتقدم التلاميذ الثلاثة المنتخبون بمشيتهم العسكرية يتبخترون، حتى يلقي أوسطهم إعلان الإمبراطور بأننا نموت من أجل أن تحيا أيها العلم، ونموت من أجل أن تحيا يا إله الجميع، لم يعلن أحد من يموت من أجلنا، كنا مثل قرابين المعبد تنتظر في الحظائر يوم العيد الكبير لتنحر قرباناً في يوم سعيد، يسير أوسطهم خطوتين ويقف مثل مسمار خائف، وعيوننا ترتجف متجهة نحوه مثل وعل تاه قطيعه فأحاطته الأسود. يفك عقدة الحبل التي تطوق العلم لتلتف حول أعناقنا فيما بعد مثل معضد ذهبي أو قلادة امرأة حضرية، فيأمر المدير أن نغني له، فينشج الجميع أنشودة الموت السعيد.

عندما عبرنا امتحانات نصف السنة وبعد شوط قصير من اللهو السعيد، انتظمنا في الصفوف من جديد، وزعوا على الوجوه البريئة نتائج الامتحان، كانت بعض الخطوط الحمراء تكحل شهادتي مثل الدم الفاسد عند مخاض امرأة حديثة البلوغ. جاء أخي عندما أعلموه ببكائي، لم يربت على كتفي أو

يطيب خاطري، بل بصق بوجهي مثل ذرق حمامة غبية تبيض على وتد فيسقط بيضها دون أن تعلم على من سقطت.

أعلم جيداً أن أخي هذا يمقت حرصي، يكبرني بسنتين، هو فرق الولادة والرضاعة فحسب، يكبرني طولاً مثل أي إفراز طبيعي بالحياة، يلهو ويشاكس مثل كثير من تلاميذ المدرسة الذين يرغبون بأن يشار إليهم بالعصا والوقوف في ركن الصفوف مرفوعي الأيدي مع القدم اليمنى. عندما عدت إلى البيت وجدت أبي على غير عادته، وأمي مرتبكة ومسرعة الخطوات في حركاتها وترتدي لباساً أسود. كان الحديث مكتوماً فيما بينهما، وأخي الأكبر يجلس حزيناً، عرفت أن أحد أقاربنا قد توفي أو قتل. ففي العراق، الشتاء حزين، والكلاب تطوق جغرافيته بزيتونها القبيح، والأحلام وحدها هي من تعبر بوهم دون أن يشموا بصمات سيرها إلى أريج السماء. حدث ذلك في أواخر تشرين الثاني من بداية عقد الثمانينات، عندما تسلل حلم ابن عم أبي (عبد زيد) بأفكاره إلى الضفة الأخرى ليمسح تجاعيد السماء من غبرة البعث الهجين، فأردوه ذبيحاً.

في طفولتي الغائرة بالتعب، وتحديداً في العطل الصيفية، كنت أبيع أكياس نايلون، ومن ثم أصنع الطائرات الورقية وأبيعها، وبعدها أحمل صينية بيدي الصغيرة ككف عصفور وأقبض على عملتي الورقية التي قدرها ربع دينار لا أذكر لونها، ربما كانت خضراء مثل حلمي، وأعبر زقاق ياس وأتلوى مع عطفاته ماراً قرب كف العباس الأيسر وأشم رائحة الدم. أدخل باب حصنه الكبير وأرى الناس يتضرعون، يبكون دون أن أتبين

ذنبهم، أشم عطر النساء، وأرى رجلاً بعينيه الشيطانيتين وبصوت خفيض مثل حفيف الأفعى، يمسك كف امرأة ملبدة بالسواد ويخبرها بأن الله أحل جسدها من كل خرافات الدجالين وفك عقد العطارين، ويتلمس يدها من جديد. أمضي نحو هدفي، فأرى مُقعداً يتوسل الله أن يسري الدم في أوردته المثلوجة ليمشي، ولم يجب، ويسأله ألم تقل (وإذا مرضت فهو يشفينِ) ولم يجب.

أعبر مثل سمكة صغيرة بين الحيتان، أغوص وسط شوارع، وعند العطفة الضيقة لمحلة باب السلالمة أغوص من جديد، فأرى سلال العنب الأخضر وأوراقه وبعض التفاح الأبيض وفاكهة حمراء بلون الورد القاني لم أعرف اسمها إلا حينما كبرت (كاكي)، كانت تشل فمي ولساني وتشنج سحر الكلمات. أبحر في عالم الاكتشاف، وظلال الزقاق الطويل يضوع برائحة جذوع سقوفه وشناشيله والشبابيك التي تطل برؤوسها تمسد على ظهري ضاحكة، وتخبرني أن أمضي على خطى الأولين كفراخ البط الأبيض في الماء. أشم رائحة الشعر تضوع بالمكان، ولا أعرف أن لهذه الأزقة الضيقة والمعوجّة شاعرًا اسمه محمد علي الخفاجي.

عندما وصلت إلى بائع السكاكر، وجدت بعض الصبية يسبقونني وصواني بعضهم النحاسية مطرزة بأجنحة الحمام يقفون خلف أرزاقهم، تقدم إليهم الحاج معاذ الشكرجي ليستلم القطع النقدية من أولهم ليعدّها على سطح منضدته الزجاجية ويطلب من عامله أن يضع في صينيته خمسين قطعة سكاكر على شكل تاج الملك. وصلني الدور، فرفعت صينيتي إلى معاذ لأطلب رزقي، ملأها وكأنها دعاء أمي في يوم ولادة الولي الصالح

الخَضِر. كانت أمي تضع بعض أغصان الآس، وطاسة حناء، وشموعاً باكية، وبعض حبات البرتقال، وشيئا أبيض لا أتذكر اسمه مثل طفولتي البريئة. أرجع باكياً من الفرح وأنا أصيح:

- (تاج الملك.. تاج الملك..).

أغني مثل بدوية في الصحراء، أضع الصينية على رأسي مثل عرف ديك، وأخاطب جيبي الأيمن أن اصبر ستمتلئ بعد قليل بفرح الأطفال وابتساماتهم. لم أكن نظر أبعد من حدود دوران صينيتي فوق رأسي، يسألني أحد السائحين عن سعر قطعة السكر الواحدة، وأهديه واحدة ليتذوقها، فيطعم عائلته كلها وينقدني درهماً، فأحسب أعدادها من جديد كي لا تنقص واحدة فتنقص بهجتي، فيكرمني السائح من جديد. يسألني زائر جاء بعائلته يطلب الغفران قرب محراب الله عن سعر السكاكر بعد أن أعجبه صوتي، وأطلب منه أن يتذوقها من جديد. أرفع الصينية عن رأسي وأضعها بين يديه وأطلب من ابنه أن يأكل واحدة دون مقابل، فيضحك الزائر من جرأتي، ويتيقن أنني شاطر وأتقن فن البيع وفن الابتسام. يقضم واحدة فيستطعمها ويقدم أخرى لزوجته والوشم الأخضر يعلو جبهتها وخديها، وعند مدق الحنك يرتسم مثل أحجية دون جواب.

أمضي أكثر من ساعة أدور في الأزقة الأليفة قرب الصبية والفتيان، وامرأة تجلس عند الباب تغزل بمنوالها ليفة حمام، وقربها امرأة تحكي مثل دوران المنوال، وأخرى تقلم نهايات أصابع الباميا دون أن تنظر إليها، وأنا أصيح:

- (تاج الملك، تاج الملك).

يهرع بعض الصبية للشراء، ويذهب آخرون لبيوتهم لاستحصال النقود ليعودوا ويشتروا. أنزل صينيتي مثل غيمة تشرينية تمطر مرة وتتوقف مرات، ترعد مرة وتبرق عشرات المرات، أدخل زقاقاً آخر، وبعض الصبية يلعبون الورق على حائط أصم خشن مثل أقدام الفلاحين وبعض الشخابيط والذكريات وأرقام كسرية لم أعرف قصدها ورقم أظنه لهاتف حبيبة، أمضي مثل طير يقصد ستارة سجانه ليلتذ بقفصه الخشبي.

وقفت قرب فتيان يلعبون من جديد وأنا أنادي:

- (تاج الملك، تاج الملك).

وأكرر أكثر من مرة ندائي، فيشتري أحدهم قطعتين ويهدي صديقه مثلهما وينقدني عشرين فلساً. لم يبق في صينيتي إلا عشر قطع، فأعود وأصفها من جديد قرب بعضها بألوانها الصفراء وألثم السبابة والإبهام مثل ذبابة تنظف أجنحتها ومجساتها. أقف أمام واجهة زجاجية وأنظر، كانت شاشة التلفزيون تنار عند العاشرة في كل صباح من العطلة الصيفية، ويبث أفلام كارتون (غريندايزر) للصبية والفتيان. وضعت صينيتي أمامي وجلست أراقب الأحداث. سألت نفسي لماذا الشر يكمن في السماء حيث يتخذ (فيگا) الجانب المظلم من القمر مركزاً له، وبهذا لا يظهر للأرض أبداً، (بلاكي) القائد الميداني، و(گندال) القائد والموجه، وحلقة الوصل مع (فيگا) الكبير في مقابل (دوق فليد) وصحنه الطيار (گرين دايزر)، أيعقل أن يكون القمر بكل هذا الشر؟ والإنسان بكل هذا الخير؟ يبنون السدود ويزرعون الصحراء، يدخلون المختبرات لصنع الأمصال ضد الأمراض، مقابل ما تصنعه السماء من الشرور.

أمضي في رحلتي من جديد، فيزاحمني صبي شقي يطلب قطعة سكاكر واحدة دون نقود فأرفض طلبه، وأنزل صينيتي عن رأسي، يهددني بالضرب وأرد عليه بأعنف من ذلك، فيتوسطنا رجل مستطرق يمنعه وينصحه أن يعمل مثلي، وأمضي في سبيلي وأنادي من جديد:

- (تاج الملك، تاج الملك).

أفرح كثيراً وقد نفدت كل السكاكر، وجيبي ممتلئ بالنقود المعدنية. جلست عند دكة مهجورة في زقاق أعبره يومياً كي أحسب نقودي، فأفرز رأس مالي، وأعزل في الجيب الآخر مرابحي.

أهرع إلى البيت مثل طير يتعلم الطيران يرفرف بأجنحته. عندما أصل بيتنا أتوجه إلى زاوية الحائط عند ركن الحديقة حيث خزانتي الشخصية بعد أن أخذت علبة حليب نيدو فارغة وأحكمت غطاءها، ثم ثقبتُ خلفيتها بسكين المطبخ بفتحة حجمها بحجم القطعة النقدية، وأحطتها بالجص الأبيض. أضع قطعة وراء قطعة وأنتظر رنتها الموسيقية، اعتدت سماع سيمفونية قطع النقود المعدنية المتعانقة، أفرح لعزفها وأسعد بتكاثرها.

عندما قرر أبي بيع بيتنا القديم وشراء بيت جديد، كان أيضاً قرب البستان نفسه ولكن من الجهة الأخرى، بيتنا الجديد، دفء وبساطة، وحديقة غناء، له بابان، الأول يتقدم واجهة البيت بثلاث ظلفات، يستقبل الضيوف متى هلّوا من الغرباء والأقرباء، يؤدي إلى غرفة الاستقبال الموشحة جدرانها بآية قرآنية، وسجادة منقوش عليها رجل مهيوب يجلس على كرسي أو مقعد وهو متوشح بالسيف مفلوق الرأس، وقربه أسد بفروة

تطوق رقبته وصبية صغار، وباب آخر يؤدي إلى غرفة الاستقبال لتنفرد النساء مع النساء ويغصن بالحديث مثل غواص في عمق بحر وماء شفيف يكشف أسرار القاع. أما باب البيت الثاني بدرفتين يؤدي إلى مساحة متروكة تحتوي على أنقاض أثاث البيت ومهملاته، فأس مكسور، وطست معوج وحبل غسيل، والموقد الذي يحتوي على أنبوبة يسلط عليها النار لتغلي الماء، وكذلك ترفع من درجة حرارة أرضية الحمام.

قرب الباب الرئيس للبيت من جهة الحديقة يوجد حوض صغير وحنفية معطاء تقف بشموخ وينساب الماء منها مثل شلال دائم العطاء، نغسل أقدامنا وأيدينا ووجوهنا قبل الدخول إلى غرفة المعيشة، ينساب الماء إلى الحديقة ليتيه عند جذور الأشجار. قرب الجدار الخارجي من الداخل تقف أشجار الجهنمية بجذوعها المثخنة بالتشققات وأغصانها الكثيفة لتنتشر أورادها الحمراء على طول السياج، وشجرة دفلى فارعة لا تصلح أورادها للقطف ورائحتها ضعيفة إن لم تكن معدومة، نسميها السمية لأنها مُرَّة الطعم، أوراقها خضراء تشبه لون أوراق الزيتون، تجذب الزنابير والحشرات، وعدة أشجار من النارنج. ووسط الحديقة توجد شجرتا تين ورمان، وقرب السياج جذع شجر العنب متشقق اللحاء جوزي اللون غامق، يتلوى كأنه دخان يصعد إلى الأعلى، ليمسك بسماء العريش ويفرش أغصانه وأوراقه ليحجب أشعة الشمس والهواء، فيثمر ثريات ملونة ما بين الأبيض والأسود والأحمر المصفر، والأصفر الكهرب.

قرب الباب الفرعي يتحصن حوض ماء صغير ناعم من الداخل بعد أن عبّد بالإسمنت لأكثر من مرة، خصص لشطف الملابس، وإرسال الماء

الملوث بمسحوق الغسيل إلى خارج البيت حيث النهر ومياهه الجارية. بعض الأحيان تتكاسل نساء البيت من رفع مياه الطست إلى الحوض فيسكبونه في الحديقة ليسيح فيها وتمتصه أرضه الخصبة، فيقتل جذور الأشجار، شجرة العنب هي أول من ظهرت عليها أعراض الموت، وكانت مشكلة كبيرة، ما بين أبي ونساء البيت.

تجذب حديقتنا باستمرار العصافير وحمامات الفاخت وقليلاً من البلابل، وبعض الأحيان يقف شاخصاً طير ملون الريش يطغى عليه اللون الأحمر يسمى (أبو الهلاهيل) فيزدحم صباحنا بالأصوات البريئة، وبعض القطط الخائفة التي تقفز السياج إلى الداخل، قرب منبت الأشجار الكثيفة، ونسمع مواء القطط الصغيرة، كانت الأم قد أخفتهم عن عيوننا حتى كبرت.

الحديقة من الداخل مسيجة بسياج حديدي تستوي عند مسطرة خشبية من السياج، وممر مبلط بالموزاييك، وبين ركني السياج حوض وحنفية. ومن بين كل الركام المكوم في الجهة الثانية من البيت، كانت أمي تحتفظ ببرميل حديد محزز من الوسط، سألتها ذات مرة عنه، ارتبكت وفضلت الصمت، ولكن الألم ينز داخلها، فقالت والكلمات تعتصرها:

- إنه من أيام الفقر. كنا نسكن في خان عند سوق التجار، استأجرنا غرفة وسط العوائل، كان أزواجنا يخرجون قبل ضياء الشمس إلى عملهم، وكان أبوك يعمل عامل بناء مع أسطة يتنقل بين البيوت بعد أن يُتم بناءها، وعند العصر يعود بأجرته التي لا توجد عملة معدنية توازيها الآن، فنقسمها حسب الحاجة، والأهم أن نضع بدل إيجار

الغرفة في برميل النفط، وأشارت بيدها عليه، ثم سرحت في ملكوت الذكريات القديمة وغرقت في صمتها، كأنها قطعة حديد تسبح في أعماق البحر الغائر.

تجذب حديقتنا الكثير من القطط لتتعارك، وتجعل منها حلبة صراع، مع أن أبي كان حريصاً على قيلولة الظهر، كي تجعله قادراً على إتمام يومه كونه يعود للعمل أيضاً. ولكن حديقتنا أصبحت مأوى للقطط التي تسرح قرب أماكن تجمع الفضلات، لأنها الوحيدة التي تحتوي على فضاء خارجي بسبب مساحتها الكبيرة، كانت تعود إلى طبيعتها الأولى كونها تحمل جينات أسلافها من السنوريات، يرافق عراكها مواء مصحوبٌ بصخب وضجيج يخافه الأطفال والصبية ويمنع نوم الكبار.

في إحدى المرات غضب أبي منها، نهض من نومه بعد أن رمى الشماغ الذي يلف به وجهه، وحمل عصًا غليظة، وذهب إلى الحديقة لينهي نزاعها، فهربت القطط، وصادف أن وجد أمًّا ترضع أطفالها اختبأت خلف أجمة صغيرة من السيقان الصاعدة لشجرة الدفلى، حينما رأته هربت، وكأنها تشم بشواربها غضبه وإصراره على قتلها، فحملت أحد الهررة وفرت متسلقة الجدار إلى الخارج مثل عنكبوت فتي. طلب أبي من أخي الموجود أن يرمي الهررة المتبقية في البستان وينظف المكان بحيث يصبح مكشوفاً، ويمنع تجمع القطط فيه من جديد.

كانت إحدى الهررة قد مشت بتؤدة نحو كوم من الأخشاب بينما رمى أخي ما تبقّى في البستان، وكانت الأم تنظر إليه بتوثب كأنها تريد أن تنقض عليه؛ ولكن ما أن ترك أطفالها بسلام حتى جاءت إليهم مسرعة، وبدأت

بحملهم من رقابهم الواحد بعد الآخر إلى جحرها الجديد. ذهبت خلسة نحو القطة التي استسلمت لي دون خوف، مسدت على ظهرها، فشعرت بطمأنينة ربما تصورت أنني أمها الجديدة. ذهبت مسرعاً إلى سلة الفضلات، لأبحث فيها عن بقايا لحمة متروكة أو عظمة فيها بقايا نخاع أو شحم. وعدت إليها بعد أن وضعتها داخل صندوق بلاستيكي مقلوب عليها كي أمنع فرارها. من عادة أمي أن تعطي كلاً منا قطعة لحم عند الغداء، تسميها بلغتها الشعبية (سهم)، فكنت أتركها لها. كبرت هذه القطة في حضني، وكنت أطعمها عند الصباح الحليب قبل ذهابي إلى المدرسة.

كانت تصدر صوت مواء رقيق يعبر عن الرضا والامتنان، وعندما أعود من المدرسة أهرع إلى مكانها وسط أكداس الخشب وقرب بيتها لأطمئن إن كانت موجودة أم هربت أم قتلها قط متطفل، أو لدغتها عقرب سوداء، إذ أن هذا المكان قريب على البستان، ولأنه جزءٌ من الحديقة، فإنه يحتوي على كثير من الحشرات القاتلة.

قررت أن أطلق على الهرة التي أصبحت قطة اسم سوسو، كانت نشطة تدخل معي المطبخ من دون أن تأكل أي شيء غير مسموح لها، واستطاعت أن تكسب رضا أمي بعد أن وجدتها قد اصطادت الفئران التي تعبث بأكياس الرز والسكر، من دون أن تأكلها. بدأت سوسو تكتسب رضا الجميع بخدماتها الكبيرة في اصطياد حشرات الخنفساء الخارجة من فوهات المجاري. بدأ الجميع يراقب تصرفاتها، فهي تذهب إلى الحديقة لتحفر بالأرض حفرة وتعود لتضع خلفيتها وتعصر بطنها لتخرج برازها وهي حذرة تتلفت، فتنتفخ بطنها للخارج، تعود من جديد لشم برازها ثم تدفع التراب بقائمتيها الخلفيتين لشمه وطمره.

القطة سوسو بيضاء ببقع برتقالية مائلة إلى الاصفرار، تلعق فراءها بلسانها الخشن وكذلك باقي أعضائها، لا تصدر أي صوت داخل البيت أو في الحديقة. أكثر ما شدني إليها هو بريق عينيها، لم أكن أنتبه إلى عيون القطط من قبل، كوني أعتقد أن بؤبؤها دائري، ولكن تبين أنه يشبه شقًّا في قماش أو جيباً في ثوب، تجلس وهي باسطة ذراعيها قرب أبي الذي بدأ يتقبلها، ويرمي لها شيئاً من اللحم، وفي بعض الأحيان يتفقدها ويسألني عنها فأفرح كثيراً وأهرع لمناداتها بالصوت الذي اعتادته مني، فتخرج من جحرها راكضة، وفي بعض الأحيان أجدها باسطة يديها وهي تطلق مواء التوسل قربي بعد أن اعتادت أوقات الغداء والعشاء، فأرمي لها حصتي كلها من اللحم.

زاد تعلق أبي بالقطة، بعد أن استمع إلى حديث ديني في إحدى الإذاعات وهي تقص العلاقة بين النبي محمد والقطط، بأنه كان ذات يوم جالساً على عباءته التي فردها قبل جلوسه فأقبلت قطة ومضت لتغفو جالسة على العباءة، ولم يرد الرسول الكريم إزعاجها، فقص قماش العباءة وترك القطة نائمة على الجزء من العباءة الذي كانت قد رقدت عليه.

والداي يؤمنان بالحسد أيما إيمان، كما يؤمنان بأن الحيوانات هي من تدفع عنا بلاءها، لذلك عندما انتقلنا إلى بيتنا الجديد، أول شيء قام به أبي هو شراء رأس غزال بقرنين كبيرين مصنوع من الجبس وملون بألوان زاهية ووضعه وسط الحائط الخارجي لدخول البيت، بحيث يكون محط أنظار الداخل مباشرة، ومن ثم ذبح خروفاً ووزع لحمه على الجيران والفقراء، بينما اشترت أمي ثلاث دجاجات وديكاً لتقع عين الحاسد عليهم أول دخول

القريب أو الغريب للدار، لكن أبي كان يدخل مع أمي في مشاكل كثيرة بسببها، منها أن صياح الديك المستمر يقلق منامه، وثانياً أن الدجاج على عكس القطط يذرق أينما حلَّ ما يسبب القذارة.

مثلما كانت الطيور بشير خير وفداء لنا، كان بعضها نذير شؤم، ذات مرة جثم غراب على إيريل التقاط الإشارة التلفزيونية وأخذ ينعق، تسمرت أمي في مكانها وتحولت إلى آذان مصغية لنعيقه، كانت تعده أبغض الطيور رغم أنه صاحب فضل على البشرية وعلّمها كيف تواري جريمتها. سألتها عن سبب صمتها وتسمرها، رفعت إصبعها إلى فمها المغلق لتأمرني بالصمت بعد أن عقدت حاجبيها دلالة على غضبها. نعق الغراب مرتين وطار، فحمدت الله على ذلك، وقالت: إن الغراب نذير شؤم إذا نعق ثلاث مرات فإن مكروهاً يصيب أهل البيت، أما إذا نعق أكثر من ثلاث أو أقل فإنه لا يضر ولا ينفع.

لم تكن السبعينات لتختلف عن التي ستأتي بعدها من عقود، كانت عائلة أبي تتهاوى مثل جيش منكسر، فقد سمعت أن جدَّ أبي قد وافاه الأجل، ومثله زوج ابنة عمته، أما أمه فلم أكن لأعيها فقد غادرته مبكراً.

خاض أخي الأكبر تجربة فاشلة في زواجه الأول من ابنة عمي، كان عمره ست عشرة سنة، بينما كانت هي تكبره بعامين، لم يدم زواجهما طويلاً، فسرعان ما انفصلا تاركين خلفهما شرخاً كبيراً لم ولن يلتئم أبداً. بعد مرور أكثر من خمس سنوات قرر أبي أن يزوج أخي الأكبر مرة أخرى من إحدى بنات أقربائنا في النجف، الذي احتفى كثيراً بهذه الزيجة. دعا كل أقربائنا وجيراننا. كانت بطاقات الدعوة لحضور مائدة الغداء زاهية ومخطوطة على

ورق لماع موشحة بأشرطة من الحرير معقودة على شكل ربطة عنق فينوكه، وزخارف نباتية، ومن بعدها يتم عقد حفلة الزفاف.

لم يكن ذلك حلماً أبداً، لأنني أتذكره جيداً، رغم أن ذاكرتي مثل وجه الماء الصافي، ولكنها تعكرت بسبب تراكم السنين وتقادم الأحداث عليها، فقد كان المعمول به في ذلك الوقت، أن تقام للعروس سبع ليال، في كل ليلة تلبس بذلة عرس جديدة تختلف عن التي قبلها. وكنا نحن الصغار نجلس وسط النساء وهن كالفراشات يرقصن وسط بعضهن البعض، شعورهن حاسرة ومصبوغة بألوان قوس قزح، ملابسهن مثل بستان مزهر في فصل الربيع، والفرح يعم المنطقة كلها، فالجميع يبارك ويشارك بالرقص والضحك، لا مكان للحزن رغم الجراح الصغيرة التي خلفتها حرب الشمال في نفوس البعض.

كان ذلك في نهاية أيلول، قبل أن يلتحق أخي بالجامعة وهو في السنة الرابعة من دراسته بكلية الزراعة. كان المطر ينزل مبكراً في العراق، فيفرح الجميع بهطوله، إذ لم تكن الحياة متعسرة في ذلك الوقت، ولكن تبين فيما بعد أن للمطر تاريخاً من البرد والعواصف والألم في المدن الساحلية والجبلية، ولكن في مدننا الهجينة هو لحن راقص مثل ضوء القمر، في ليالي الشتاء الطويلة تستيقظ الصباحات وفي عيونها نعاس ثقيل من الكسل، حبات المطر تطرق زجاج النوافذ لتوقظ الحياة فينا، تنزوي الستائر مثل طير خائف في عشه، أو تتكور على نفسها مثل حيوان خائف في جحره. خيوط الأمطار النازلة من الفضاء تتحول إلى برك وسواقٍ دون قناطر، يفوج التلاميذ والطلاب مياهها الرمادية قاصدين مدارسهم مثل أسماك ضاحكة، بعض

الأزقة تزدحم عندها المياه وكأنها قندس يبني بيته فأنشأ سدًا عالياً من الممنوعات.

البيوت القديمة مبتلة السطوح والواجهات وقورة، ترسل شلالات من الغناء عن طريق ميازيبها، الحمائم الزرق منفوشة الريش تختبئ عند الشرفات القصية، سطوح الدوائر الحكومية المهملة تغتسل بمرح مثل صبية يسبحون في نهر تغفو قريته على ظلال النخيل، الحدائق ترتوي بينما يقف حبل الغسيل متسمراً بالعزلة وحيداً دون أنيس يسليّه.

براعم المطر الأولى توقظ الضفاف اليابسة، تولد أحلام الأشجار النائمة مثل الشموع لتضيء المناظر الخضراء، تتعثر في شوارع المدن الفسيحة، مثل طفل يحبو لأول مرة، توقظ الدفء في البيوت الباردة، حتى إذا ما نشطت قليلاً، تغسل غبار الصيف المتراكم على فطرتنا لتعيد الروح تأملها من جديد. الأمطار وحدها التي تمتلك براءة الأطفال، لأنها تعامل الجميع بقلب أبيض، تنزل على سقوف الفقراء بحنو، تراقص مروج الحقول مثل النحل، وتغزو السهوب الشاسعة مثل قطيع غزلان تتقافز من فرط اللهو.

تتطفل بعض أشعة الشمس من بين الغيوم المعتمة لتسقط من روحها دفئاً للبراعم الطرية. خيوط الأمطار عند العشاق أوتار عود تعزف أغاني العشق، تعزف موسيقى هادئة بإيقاع متصاعد من الغرام واللهفة، ترسم صورة ذهنية في عقولهم، سيمفونية عشق ناطقة، دقات طبل بيد طبال محترف. أتعلمون أن الأمطار رحيق العشاق المتوالد الذي يورث الأجيال أن ثمة أحلاماً تنبعث في كل مرة من الأرض وليس السماء.

المطر أغنية قديمة يحب سماعها الكبار ويترنمون مع أنغامها، يجلسون بصمت رهيب كأنهم في قداس الوداع الأخير، يزيد من نضارة الأرض فتحمر خدودها وتتكحل عيونها فتضوع بعطر يملأ أرجاء المكان. وحده ماء السماء من يلقح الأراضي التي تشققت من لهفة الانتظار والوعود. وفي المدن يرقص أسفلت الشوارع منتشياً بعودة بريقه الأول. تختبئ الرياح في البيوت المهجورة والجحور الضيقة، العواصف تتحول إلى ماضٍ لا نريد تذكره، وحدها البساتين هي من تجلب الأمطار لكنها تخاف من الصحراء القاحلة. قطرات الأمطار في جبهات القتال ساخنة تبكي الرجال الذين خضَّبوا الأرض بدمائهم لردِّ العدوان كي تزهر أملاً من أجل أن تحيا أجيال جديدة من الخضرة وحب الحياة.

III

مرحلة البلوغ وذروة الثورتين

ربّت على ظهري الذي يقف خلفي، طالباً مني التقدم قليلاً بعد أن تحرك الطابور. استفقت من غفوتي الحالمة، وكأنني أنفض غبار طلع الذكريات التي بدأت تتدفق صعوداً إلى الواجهة، وكأنني في الوداع الأخير.

أقف بإجلال أمام كلمات حفرت على السيراميك الأزرق، تعلن عن اسم متوسطة الكرامة وتأريخ تأسيسها، في البدء، لم أكن أعرف أننا غادرنا طلائع الحياة الأولى، وأن عضدنا الأخضر مازال طرياً، مثل جدائل الربيع، وأنني اليوم مثل أيِّ فتى، لا بد أن أتدرب على عبور لهيب النار المصطنعة، والبراميل المجوفة، نركض إلى مسافات معلومة مثل وعول الجبال ولا نبالي. وعندما نعود لاهثين، يطلب منا المدرب أن نعيد الكرّة من جديد، فنقرف من السباق بعد أن تذوب براءته. ملابسي الصفراء المرسوم عليها خريطة الوطن العربي، تشعرني بالحرِّ والقرف. عندما كبرت قرأت في كتب التاريخ، أن درويشاً المقدادي، هو من أسس المجاميع الكشفية، لتنبعث منها نواة الفتوة، لم يفعلها في فلسطين ليحرر أرضه، فكان العراق قرباناً لمحرابها.

هكذا تجري الأيام والسنوات لنستوي في المتوسطة في صف واحد، وأغادره مثل ماضٍ قبيح حفر في دفاتر ذكرياتي قبح أفعاله وتوبيخه القديم. تحولنا من تلاميذ ابتدائية إلى طلبة متوسطة، وكأننا تحولنا من صبية لا نفقه فن الفرق بين الصبي والفتاة، إلى مراهقين تفرز أجسادنا الإحساس بالذكورة المبكرة. ما أقسى تلك الأيام وأنا أجترها مثل بعير أضناه الجوع

والعطش. كنت أغرق في صمتي بينما تحملني الذكريات إلى مسافات بعيدة، تطوقني مثل سوار أحاط معصمي، سعيت جاهداً أن أتخلص منها ولكن دون جدوى، وتبين أن الحل الوحيد لها هو أن أكتبها وكأنني أنزع ماضياً رافقني رغماً عني، وأرميه الآن لأشعر بتحرر من تلك العبودية التي لازمتني أمداً طويلاً.

أمتلك ذكريات مُرْهَقَة مُتْعَبَة مُنْهَكَة، حلمت ذات ليلة عندما كنت في الثانية عشرة من عمري وربما أكثر بسنة من ذلك وفروة رأسي مثل أغصان اللبلاب تلتف على نفسها، أنني أعمل عند أخي الذي يكبرني بأربع سنوات عاملاً أصعد فوق السيارات الطويلة التي تحمل علب السمن وعليها ماركة شركة الزيوت النباتية. كنت ضمن أكثر من ستة عمال أنا أصغرهم عمراً، أتسلق جنبها مثل جبل ذي واد غائر العمق، أفتح الشبكة الحديدية التي تمنع الحمولة من الوقوع، أناول العلب للذي على الباب المحمول بسلسلتين جانبيتين ليأخذها من كان على الأرض بدوره إلى المخزن الكبير.

بعد جهد وإرهاق أنزع قميصي وأبقى ببجامتي المخططة مثل حمار وحشي أنهكه ركض لبوة مفترسة، أفرغ حمولة (التريلة) حيث يستمر العمل فيها لأكثر من ثلاث ساعات، لكن أجري لا يوازي الذي يكبروني عمراً وحجماً، وأعلم جيداً أن مطالبتي بمساواتهم لأنني أبذل الجهد نفسه، تعني العقاب الشديد.

لم يكن حلم هذه الليلة في العطلة الصيفية هو الوحيد، بل كانت كل العطل الصيفية الطويلة والكبيرة بعنائها أحلاماً مزعجة وربما كوابيس مطبقة على تأريخي المغمس بالحزن والتعب. كنت ضمن مجموعة من العمال

ننتظر وصول السيارات المحملة بكراتين الموز الأخضر من ميناء البصرة، لنفرغ حمولتها بمخازن محكمة الجوانب أعدت لها. صدورنا عارية والعرق ينضح من مسامات أجسادنا مثل خيوط الماء التي تنزل من سقف كهف إلى الجداول الضيقة. ما يجفف عرقي ويخرس حزني، هو حصولي على مؤونة السنة الدراسية القادمة. كنت كالحمل الوديع لا أفكر أبعد من تأمين سنتي الدراسية، نعم الشعور بأن علبة حليب النيدو التي بنيتها في الجص كخزينة كانت ملاذي الحقيقي ومعبدي مثل محراب رجل ناسك، أجلس قربها وأكتم الكلمات، أخزنها في ذاكرتي ليوم تتحول فيه إلى قيثارة حزن ولحن ألم ينزُّ جراحات الصبا.

كنت أنظر إلى المدرسة والصف على أنها عرش ملك أو سلطان لا غاية أخرى توازيها. لم يكن نوع العمل يهمني، حتى لو اضطررت إلى أن أعمل منظف خزانات مراحيض أو أجلس بباب مبغى أو ألبس فيّنة وأعقد للعشاق مواثيق الزواج والطلاق عند العصر، أن أكتب وأقرأ وأحفظ وأحب وأبكي، أن أحلم باليوم الذي أكون فيه رئيساً للبلاد وربما صاحب رأسمال كبير أتحكم برغباتي وأقودها نحو التحقيق، ولا تتحكم بي وتقودني إلى الخراب.

في كل صيف كانت أمي تمدّ فرشنا بعد المغيب، الكبير فالصغير فالأصغر، وكنت الأوسط بين هذه الجموع، ربما هي حقيقة أننا كنا ننام فوق سطح البيت وأوراق التين تطل من على ستارة البيت وهي تفرش وجهها مثل كف رجل طاعن. أرقب كل يوم دورة القمر حتى يكتمل ضوءه. كانت أسئلتي، مثل الشهب تبرق وتنطفئ، عن القسمة في الحياة،

عن سر المال والأحلام، وكنت أخفي أسئلتي عن الله ولا أبوح بها أبداً، فقد سمعت أنه لا يحاسب عبده على الأشياء التي يحلم أو يسأل عنها. اختزنت كثيراً منها والخوف والحزن والفرح والعشق يعتريني.

وعندما يحل شهر أيلول، كان الصبية يتنازعونه بين الرفض والقبول، بعضهم يحبه لأنه يسرع من تحقيق طموحاتهم وأحلامهم، وبعضهم يبغضه لأنه يحرمهم من اللعب والعمل. كان أيلول بالنسبة إلي أكثر من شهر فاصل بين الجد واللعب، بين الصيف والخريف، فقد كان نافذة حلم أسيح فيه مع نفسي، أشعر أنه درج سلم، في كل سنة أتسلقه نحو الأمان، واكتشف عوالم الآخرين، أتعرف على أشخاص جدد بعد أن يجمعنا صف واحد، فيهم الأشقياء والفقراء والمؤدبون والمشاكسون والعابثون ومن اقتيد مجبراً ومن جاء طوعاً، أنصت جيداً للطلبة والمدرسين ولكن بحذر، فكل من أصادقهم هم مثلي لا يميلون للعنف وسيلة حياة أبداً.

كانت أمي تنهض مبكراً لتعد الفطور، وبعدها تجلس على عجل لتمشط شعر أختي الكبرى وتفرقه من الخلف إلى خصلتين لتضفره إلى ضفيرتين، وبعدها تمشط شعر أختي التي تليها بمشطها الخشبي الذي تكسرت بعض أسنانه لتجمعه كله في خصلة واحدة. تكتم أختي أنينها بينما تنهمر الدموع من عينيها رغماً عنها، كون شعرها أسفل رقبتها معطوباً، وكثيراً ما كانت تُعيِّرُها بالقول (تعالي أم اعطوب) امشط (اعطوبك) وتقصد بقولها صوف شعرها.

ثم تتهيأ للخروج إلى السوق القريب للتسوق والعودة سريعاً إلى البيت لتعد وجبة الغداء. إنها تعرف رغبات أبي جيداً في الطعام، فقد كان يحب

أكلة لحمة رأس الخروف والكوارع في يوم الجمعة، لذلك فهي تسهر مع كنّتها في نهاية كل أسبوع من أجل تنظيف رأس الخروف من الشعر وتكسّره مع الكراعين استعداداً لطهيه في يوم الجمعة كوجبة غداء، بينما تعطينا الكرشة وقليلاً من لحمة الرأس. وكنت أسألها ما فائدة الكرشة فهي عبارة عن جلدة تتمطى ليس فيها لحم أو شحمٌ، فتضحك وتطلب مني شرب الحساء الدسم، ثم تأخذ أحد الكراعين وتضربه على الصينية ليسقط نخاعه، وتطعمنا نحن الذين نجلس حولها كأنها طير يزق فراخه.

تقسم أمي أنواع اللحوم على أيام الأسبوع، فاللحم الأحمر على طول الأسبوع باستثناء يوم الاثنين حيث كان الغداء دجاجاً، ويوم الأربعاء كان سمكاً ومعه الطرشي والبصل. بعد أن تمد السفرة على الأرض، تجتمع العائلة ليبدأ أبي بالأكل ومن بعده نحن، وكان في كل ذلك حصة لقطتي المدللة سوسو. لكل نوع من هذه الوجبات طقوس خاصة، لكن ما يميزها هو الرز المركب إما على الجزر أو الكلم أو البرياني، لأن أبي يهتم كثيراً بالطعام، كما يهتم بنظافة ملابسه ومكان جلوسه ونومه. لكنه لم يكترث أو يتحمس لأي من أخوتي، ويسأل عن أوضاعهم المدرسية والاجتماعية، لم يلبِّ يوماً دعوة لحضور مجلس الآباء في أية مدرسة من مدارس أخوتي، لم يكترث يوماً إن حلّ الشتاء بشراء سترة أو معطف لأيٍّ منهم، كان يعتقد جازماً أن توفير الطعام هو أساس الحياة وما بعدها يتمكن أيٌّ من أخوتي من الإحاطة به. لم يدعُ أياً منا يوماً لتعلم الصلاة أو الالتزام بواجب الصيام، لم يستطع أن يغادر واقعه الذي نتج منه، كونه لم يعرف طعم الأبوّة، لكنه يعي جيداً قساوة الأخ الأكبر، وبدل أن يترفع عنها داخلياً ترجمها إلى فعل

خارجي معنا، كان يعتقد أن القسوة هي السبيل الوحيد لصلاح كل من يخطئ بقصد أو من دونه.

ذات صباح من صباحات العراق الحزين، وفي الطابق الثاني من مدرسة الكرامة التي تتوسط البيوت وتحيطها الشوارع الفرعية من كل جانب مثل جزيرة وسط البحر، علا صوت أزيزُ الطائرات، ارتبكنا نحن الطلاب بالرغم من طمأنة المدرسين لنا. كان زجاج الشبابيك ودرفاتها المطمئنة تكاد تنقلع من مكانها، حتى أن القلم المسكين الذي لم نخطَّ به كثيراً على دفاترنا البيضاء بدا مرتعشاً خائفاً وهو في مكانه يدفعه الأزيز إلى حافة المقعد.

شاع الارتباك في المدرسة، بعض الطلبة مطوا رؤوسهم قرب الشبابيك، وبعض المدرسين خرجوا من الصفوف إلى الشرفة المطلة على ساحة رفع العلم لينظروا إلى السماء التي بدأت تتلبد بالخوف. عم الهرج والمرج واللغط بين المدرسين، الذين يصر بعض الطلبة على أنهم معلمون، وليسوا مدرسين وكأنهم يرفضون مغادرة بكارة الابتدائية. وخرج الطلبة من صفوفهم. أعلن المدير فتح الباب الخارجية للمدرسة إيذاناً بإعلان اليوم عطلة رسمية للحرب. للحرب عيد كما للحب عيد، ولها نصب وتذكار وجندي مجهول ونصب للشهيد، ولا ذكرى لمخلفاتها من أرامل وأيتام وأمهات ثكلى وآباء مكلومين بالحزن والفقد.

زمجرت الطائرات فوق سطوح المدارس، فأعلن الرئيس، أن لاحت رؤوس الحراب تلمع بين الروابي، فبدلت أمي فوطتها البيضاء بالسوداء، وأصبحت عند كل خميس تجر أذيال عباءتها، مخذولة عند مرقد لا يرد فيه دعوة مظلوم، وظلت تمتحن قدرة الإله أن يعصم أولادها من النار، لكنه

كان يزيد لظاها، فتنصهر قلوب الأمهات ويضيع الأطفال في الأسواق، والزوجات الصغيرات يذهبن في الطرق المظلمة، مثل أية قطة جائعة تبحث في أكوام الفضلات، عن حائط مبكى جديد، أو كعبة تطوفها عارية. وكن مثل الزرافات من دون أصوات.

بعيداً عن اللافتات السوداء التي تنعي بيتاً توشح بالعزاء، أو طفلاً تيمم باليتم وهو في القماط، كنا نسرق جزءاً من شارعنا ونخط عليه بالعيدان أركان لعبتنا المثلثة، أو نحفر بالأرض دائرة لتغط فيها كراتنا البلورية فتخرج لها أنياب. كنا صبية تختلط جدائل البنات وخيوط طائراتنا الورقية لتلامس الغيوم، نلعب من دون حجاب، ندخل البيوت من دون استئذان والأمهات يتوسطن طسوت الغسيل، أو يسجرن التنانير، نركض إلى السلم من أجل طائرة ورقية سكنت السطح، أو علقت بحبل غسيل لم تنشر عليه بعد ملابس الليل.

في الحرب تتعطل الحياة، وتتحول الساعات إلى مواعيد موت، والانتظار مثل مقصلة تخلو من الرحمة ولا تخطئ موعدها، ومنائر الجوامع إلى مبشر لعين بنقل الأقدام لتشييع من قطعت أوصاله مع أهله والأصدقاء، لتخلو الشوارع من المستطرقين، والأزقة من الابتسامة والمرح، ودكات البيوت القديمة من النساء والنميمة، ورؤوس ثمار الباميا لا تقلمها الأصابع الغضة. لا انتظار لرب البيت المتعب من العمل، فالأعناق مشرئبة نحو الغائب البعيد، والقلوب ظمأى للقاء، والخوف يتربص بكل قادم كأنه نذير شؤم. لا أحد يريد حمل الأخبار، لا أحد يريد استقبال الأخبار، رجعتُ إلى منطقتنا وحيّنا القابع قرب منائر القاشاني والقبة الصفراء، والجوامع الزرقاء

بالغيب، رأيتُ فتاة تصغرني بسنتين تحمل أختها الصغرى على خصرها وتميل بجسدها إلى الجهة اليسرى لتوازن حملها، وشعرها البريء وثوبها الطويل مثل سعف النخيل يغطي ساقيها، أحببتها دون سابق إنذار مثل فيضان احتقن غضبه سنين وانتفض في لحظة نزق.

اجتمعت في قلبي ذكرى الحرب المقرونة بالحب، وما بينهما حرف الراء الذي سيكون لعنة يلاحق بقايا كتابات أرسمها دماً على أوراقي، وحزناً بلباس أبيض، وفرحاً بثوب أسود، أو هكذا يتهيَّأ لي في كل مرة أنوي فيها وأصر على مغادرة حزني، على مغادرة الحرب والحب، فأعود منكساً مثل فزاعة وسط حقل مهجور لا تقربه الطيور، يقف قربها كلب ليرفع قائمته الخلفيتين ويرش بعض بوله.

بدأ الجميع يلبسون معزوفة الحرب، لكن لم يتيقن أيٌّ منهم أكان يعيش كابوس الانتصار أم فرحة الهزيمة التي ستطارد الجميع، وانزوى كبار السن قرب جهاز الراديو يسترقون السمع إلى إذاعة (مونت كارلو) الدولية، وبعضهم إلى إيران يسمع البرنامج الإذاعي التحريضي حجي عباس، وآخرون يسمعون الإذاعات العالمية التي تنفث سموم الحرب مثل أرض سبخة لا تنتج سوى الملح المميت. حلم الحرب وأغنيته القبيحة، وأشعار شعبية وأهازيج، وعُقل دائرية تطوح بالرؤوس وكأن الحجاج يعود من جديد ويصرخ بالجموع: إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، وإني لأرى الدم يترقرق بين العمائم واللحى. أما الفقير الذي انتبذ من أهله مكاناً شرقياً فكان محل شبهة واتهام، في الحروب لا جزر سلام، تموت أو تُقصل، كل الطرق نهاياتها مغلقة، هكذا يقول التاريخ

الإسلامي، إن للشيطان طيفاً وإن للسلطان سيفاً. لا توجد منطقة وسطى ما بين الطيف والسيف.

بدأت الجوامع مزدحمة بإقامة العزاء، ومن بينها جامعنا جامع الرحمن الذي أنشئ في ستينات القرن العشرين، عندما كانت منطقتنا الشعبية خارج الحصن الذي يحيط العتبتين المقدستين. ومنطقتنا عبارة عن بساتين غناء ومروج خضراء، ترعى فيها أشجار النخيل مثل الغزلان ويسمع فيها أصوات الغدران مثل هلاهل العصافير في وقت الربيع والتكاثر، فتدافع الناس حتى كسر الحصن، وبدأ أصحاب البساتين يقسمون الأراضي إلى قطع سكنية وبموافقة الحكومة التي أخذت حصتها من تلك البساتين على شكل شوارع ومدارس وغيرها من الخدمات كبنى تحتية للبيوت الناشئة.

هذا الجامع الذي تحول في الحرب العراقية الإيرانية إلى إذاعة ناطقة باسم الموتى، أو صحيفة تعلن عن أسماء الوفيات، فقد أعلن خادم الجامع أو حارسه لأكثر من مرة عن موعد تشييع الجنازة من خلال الميكروفون وسماعاته الأربع عند أعلى المنارة بأفواهها المفتوحة كأنها ترصد الأنواء الجوية من الجهات الأربع.

يتجمع أهل وبعض أقرباء الشهيد وشيبة المنطقة وكأنهم ينتظرون يومهم ويتفكرون في الساعة التي يتبادلون فيها الأدوار مع الآخرين. أعاد الحارس نداءه الأخير لإعلام الناس بساعة التشييع، وكان المتوفى قد أزفت ساعة رحيله النهائية، الأهل يبكون بحسرة على القتيل ويتذكرون ما كان من محاسنه، بينما ينزوي البعض الآخر يلفه الحزن كأنه دودة القز. تقدم أخوة الشهيد لرفع النعش من الأرض ووضع القران الذي كان عند رأسه

على جنب، صاح الناعي (لا إله إلا الله)، وكأنه يعلن كذبة الخلود التي ابتكرها (أوتونوبشتم) وحاول (جلجامش) تقليده ولكنه وقع في قبضة الأفعى. تقدم الناعق النعش وهو يصيح (لا إله إلا الله) لتنتفخ أوداجه مثل ديك الصباح مع الفارق، ويعود ليرسم الحزن والبؤس على وجهه كأنه على صلة قرابة ورحم مع المتوفى حتى أدمن الوجوم وأصبحت الأشياء في نظره بين الأسود والرمادي وكأنه مصاب بعمى الألوان البهية، وهو في كل صباح يدعو ربَّه أن يرزقه بميت جديد يكون غنيّاً كي يحصل على مال أكثر. يعيد نعيقه بعد كل خمس خطوات أو أكثر ويزيد (محمد رسول الله)، ثم ينظر إلى النعش حتى يحافظ على المسافة الفاصلة معه، وما أن يشعر بأن من يحملون النعش على عجلة من أمرهم ويكادون يصلون إليه، يؤشر بيده كي لا يسرعوا بالمشي، وفي قلبه يتمنى عكس ذلك.

يترك بعض أصحاب المحلات أماكنهم متجهين إلى النعش، فيقوم أحدهم بحمل النعش بعد أن يقول (وحّد الله) فيرد من يترك له النعش (الدايم الله) ليدور على أركان النعش من أربع جهات ثم يبطِّئ خطواته لينسل ويعود أدراجه. بينما تركن السيارات الحكومية والأهلية وعربات الحمل والحوذية وأصحاب الدراجات النارية والهوائية على جنب، يرفع أغلبهم يده تحية للشهيد، هكذا تعلم الجميع أن يعظِّموا الموت ويأخذوا له التحية احتراماً وإجلالاً، وداخل بعضهم خوف من تلصص حزبي أو رجل أمن يقتاده إلى أقرب مقر حزبي أو دائرة أمنية بحجة عدم احترام الشهيد وتعظيمه. وسمعت أحدهم يهمس لصاحبه، ولكن الله لم يذكر كلمة الشهيد بمعنى من قتل في سبيله، لأنه يقول ولا تحسبن الذين قتلوا، ولم يقل ولا تحسبن الذين استشهدوا، ويصمت لشعوره أنه مراقب فآثر السكوت

ورسم علامات الوجوم على وجهه. بينما كانت وجوه أهل الشهيد مغلقة مثل أبواب فرعونية موصدة.

في العراق كل الشهور طقوس بابلية، جاهلية، احتفالات، للحزن كما للعرس، للجنس كما للموت، والإنسان سمكة لائجة في المياه الضحلة، لا الموت ينهي عذاباته، ولا الحياة تمد له يدها ليهنأ بباقي ساعاته القصيرة، لا فرق بين السراديب والسجون، ومن فيها يحمل الأفكار، لكن الأول باختياره وربما خوفه من المجهول، والثاني باختياره ولكن حبه للمعلوم. وفي كل مرة يعيد التاريخ نفسه، فينبت شاعر وفنان وقائد يأتي في ظلمة الليل ليبقي ستارته مسدلة حتى يرحل مقتولاً أو منفياً.

عندما اختط الشَّعْر خيطاً رفيعاً على شفتي العليا، مثل هلال العيد، وقفت كثيراً أمام المرآة، أسال نفسي إن كنت قد أصبحت رجلاً، أمد يدي أسفل سرتي أتلمس ذكورتي البكر. وعندما انتظمنا في المدرسة، كان من بين كادر التدريس مدرسات فارعات الطول حاسرات الرأس، فاشتعل الاعتناء بزيّنا وأناقتنا، عند كل صباح نمرر على وجوه أحذيتنا الورنيش، ونغسل رؤوسنا بالشامبو، نسرح شعرنا مثل فتاة تضمر الحب للمرآة. عندما حلَّ الربيع وفاحت السواقي بالمياه، اخضرت الأغصان وتفتحت الأزهار وضاع عطرها في أرجاء البساتين. أتذكر جيداً أن صديقي علي شنان، عند كل صباح وقبل أن تبدأ فيروز أذانها، يأتي بباقتي ورد جوري، يا للون الورد النضر بالحب والعطر، يمتلئ الصف بعطرها، وعند أول محاضرة يقدم للمدرسة الباقة الأولى عرفاناً بالجمال منه، حتى ذاع صيته في المدرسة، بينما يبقي الباقة الثانية حتى الدرس الرابع وبعدها يوزع عطرها علينا.

أسمع صهيل الأصوات الخائفة وهي تدور حول أراجيح الهوى ودواليبها. كان ذلك في حلم بعيد عندما اصطففنا قرب السيارات الطويلة كأحلامنا نستعد للصعود في سفرة مدرسية إلى حيث أبي جعفر المنصور والدوائر المعتقة بألف ليلة وليلة وسفينة البعث ومتحف الآثار العراقية كأنه قطعة من عبق التاريخ عندما ندخله. نقف أمام التماثيل مشدودي الأبصار تسلب منا لب العقول والقلوب. عندما دخلنا مدينة الزوراء وقرب الأقفاص ما زلت حتى اليوم أسمع ذلك العربي يصرخ:

- (على سدرها تنور، على ظهرها تنور، على أي حتّه تنور).

نركب قطار الموت فيدخل بنا الكهف الاصطناعي المظلم، تفاجئنا الأشباح، وامرأة ترتدي على جسدها هيكلاً عظمياً. نحضن بعضنا من الخوف الجميل، نسكر في غفلة واقعنا المزيف ونسرح بعيداً. وعندما نخرج من نهاية النفق نكركر مثل طفل على باطن قدمه تتحرك ريشة نعامة.

مال قرص الشمس إلى نهايته، لنعود إلى مدينتنا فرحين، وكأننا في سفينة تشق عباب الماء، بينما قبطان السيارة يرفع شراعه عالياً ويتمايل برأسه مع صخب الأغاني وتصفيقنا البريء، وكانت محطتنا الأخيرة هي الأولى أمام باب المدرسة.

عدت إلى البيت راكضاً إلى المرآة أتفقد بقايا حلم يقظة رافقني في السفرة، وكنت من قبل لم آلف سحنة وجهي، بل كنت ناقماً عليها، تمنيت لو كان لون بشرتي أبيض محمراً أو حنطاوياً، وشعري أسودَ فحمياً سرحاً يميل حيث مال الهواء مثل زهرة عباد الشمس وهي تتطلع إلى عين الشمس. عيناي واسعتان وسع جوف مثلث برمودة، زرقاوان أو خضراوان،

وحاجباي مثل هلال العيد في يومه الثالث، ودورة وجهي تشبه قرص الشمس، ويترصع خداي بغمازات عندما أضحك ملء شدقيّ، وأذناي صغيرتان ومصفوفتان إلى الخلف. كانت هذه الأمنية أو الحلم ينط أمامي كلما واجهت وجهي بالمرآة، وكنت أسمع همهمة المرآة وهي تبدي أسفها أن لا حول ولا قوة لها، تواسيني بأمنياتي وأحلامي التي بدت صعبة التحقيق عليها، رغم أنني لم أكن قبيحاً، ولكني لم أكن جميلاً أيضاً.

أصبح الحب كابوساً يطاردني أو مقصلة تتدلى وسط عيني كلما أصعد سلم الهوى لأقصده فيختفي مثل ومضة برق. أفغر فاهي مثل وردة حمراء لنور صباحك فيخيم هجرك مثل شباك العنكبوت في زاوية مهجورة. هجرك المقذع دون علمك يقتل فيّ ربيع الأشجار، يجعلني مثل نهر يابس غادرته المياه دون سبب، وأصبح مثل شتاء بلا شمس. أوغر هجرك المقصود قلبي فأفرج أشجار الصفصاف والصبار، سادن الرب أغلق الأبواب بوجه رسائلي فأسدى قلبي مثل الحجر الأسود، مجذوب العقل والقلب في خصلات شعرك المتدلية على ساقية زقاقكم المضيء، رمى مستطرقاً حكمة ألا تذعن لزبانية السلطان ولا تيأس من عزوف الخلان، لكني في محراب قلبك مثل عبد مختلس أو سادن مخمور قضى في السر كل الموبقات وأعلن توبته. كنت في كل مرة أصطدم بجدار أصم يسقطني من علياء السماء. عجباً لقلبي المكسور يقتفي أثرًا ضاع منذ آلاف السنين في زحمة الرفض.

أصبحت أتفكر بالأرض والسماء وما بينهما. إن الإله الذي يسكن بعيداً عن غنماته ولا يستطيع حمايتهن لا يستحق الافتراض أو الوجود. وإن الإله

الذي يحيط نفسه بالأسرار مخافة اكتشافه، إله لا يمتلك أي أسرار. إن الحياة التي تقوم على أساس الانتخاب الطبيعي لا تترك فسحة لوجود قوانين أخرى. إن الطبيعة التي تقوم على أساس التكافل الطبيعي لا تحتاج إلى مسبب لوجودها. إن البيئة التي لا تنتج أنبياء هي بيئة خالية من الخرافات والأساطير.

قيمة الإنسان في احتياج الآخرين له، وليس بعزوفه عنهم. فالشجرة التي لا تقطف ثمارها تسقط على الأرض لتتعفن، والضرع الذي لا يفرغ من حليبه يتحول إلى عضو ضامر. أن يموت الإنسان من غير أجوبة أفضل من أن يعيش دون أسئلة، البعض يحتاج إلى إله حتى لو كان عاجزاً مثل أب كسيح، يحتاج إلى صنم يلجأ إليه عند حاجته ليبكي في حضرته وينساه في لحظة فرح، يلجأ إليه في لحظة ضعف، يتضرع إليه ويتركه عند توهج الضوء الأحمر. افترى من ادعى أن الصمت والضجيج نتاج الصناعة والازدحام، إنه نتاج خوف المرء من وحدته وطنين الحيطان الذي يستعر في ذهنه، فأراد أن يملأه بالاهتمام فافتعل كل هذا الضجيج. والحقيقة أن الموسيقى صلاة كلما هدر صوتها وحان وقتها استجابت العصافير لندائها وركع الماء سجوداً من وقوف ومالت الأشجار بأغصانها لتتوقف الغيوم عن التسبيح والمطر.

ويعود هاجس الحب يسيطر على كل مشاعري، الحب بطاقة دعوة إلى الحياة، لكني لم أحظَ بواحدة، لذلك بقيت خارجاً أقف قرب السور أنظر إليكم دون أن تروني ودون أن أرتوي، مثل رجل كسيح يشاهد لعبة كرة قدم لأصدقائه دون أن يشركوه معهم، أو مثل طفل يتيم ينظر من خلف الأسوار إلى الألعاب ولا يسمح له بالدخول أو اللعب مع أقرانه.

من غيرك أنا جامع بلا محراب، كنيسة بلا عذراء، حديقة بلا أزهار، أنا وجع بلا صوت، ألم بلا جرح، نهر بلا ماء، دونك فصول عمري بلا ربيع، سنواته بلا شباب، خريطة بلا مكان، تاريخ بلا أثر. دونك أقف حداداً على قلبي مثل العشب اليابس، فبعدك لا قلب ينبض بالحياة، لا ورد يحمر ويصفر بعطره.

قالوا إن الحب لوعة بدوية، فقلت إن شفاهية الكلمات تبدو مضحكة، فالحب دون كلمات تكتب في محراب الورق، مثل شخص دون هوية، شفاهية الحب والكلام مثل بدوي يرتحل في الصحراء دون مكان أو تاريخ أو بوصلة، شفاهية الحب والكلمات مثل حروف غير متصلة لا تنتج معنى، شفاهية الحب سراب يحسبه الظمآن ماء. الحب جزع حضاري، شوق مدني، مثل رجل مدينة يؤسس للتاريخ والجغرافية، يؤسس لروح المكان، ليصدر هوية. تحريرية الكتابة، تعني الاستمرار بالحياة، تعني الفلسفة والزندقة. الحب حضري به نبتت الأوراد ألواناً لتضوع بعطرها على كل البساتين، الحب مدني نبتَ في أركان الأزقة وعلى أبواب المدارس، الحب مثل حديد شامخ كناطحات السحاب.

حبك أسطورة، بعضهم قال إنك حقيقة، وعندما تأخرت وربما غبت نسجت حولك الأقاويل والخيال، بعضهم لا يعتقدك حقيقة بل خيالاً نسجت حولك الحكايات حتى تحولت إلى حقيقة، وحدي أنا من رآك وكلمك وإن كانت لمرة واحدة، وحدي أنا من تلصص عليك عندما كنت تكتبين تاريخي الموشح باليتم والحرمان، أنا والعصافير كنا شاهدين على غدوك كل صباح إلى المدرسة، وكان النهر يوقف جريانه عندما تعبرين

ربوته مثل سحابة صيف. كنت أعلم أن للحب إلهاً ليس ككل الآلهة، يبكي لحظة فراق ويفرح لحظة لقاء، عند كل مساء يسهر مع عشاق القمر والنجوم. حبيبتي أيا لوعة بدوية، وعشبة برية، كلما طال غيابك أشعر أن لقاءك أقرب، وكلما مضى العمر من غيرك، أحس أن القلب أقوى بحبك، كلما طالت لوعة الانتظار، ازدادت لهفتي للقاء.

لم نذهب إلى المدرسة في اليوم التالي، فقد فاضت الشوارع بمياه الأمطار واختلطت مع المياه الثقيلة بعد أن طفحت من مجاريها. الشمس غائبة خائفة، فالغيوم تمنع أشعتها من رسم خطوطها على مروج الحقول وأشجار البرتقال ورؤوس المارة والأزقة الضيقة والشوارع الفسيحة، والمصابيح تئز نوراً مرتجفاً. صفير الرياح الذي يسقط أوراق الأشجار الذاوية هو سيد المكان. بلاط الأرصفة المقرنص غط بالمياه الرمادية، وبعض الجزرات الوسطية بأشجارها الغضة التي تحيطها بلاطات ملونة تلفظ أنفاسها الأخيرة.

الشارع العراقي ينتفض غضباً كما ترتعش السماء لذة، ليحكي أجمل رواية، تكتبها خيوط المطر التي تحولت إلى بحيرات من الغرق اللذيذ، الذي يحبس الأهالي في البيوت، مثل طيور الزينة، يجعلهم يهجرون طقسهم اليومي، فالشوارع غارقة بالغيث، والأسواق حزينة مثل شباك صيد. والدوائر الحكومية مغلقة مثل أقفال بلا مفاتيح. الأزقة غير المعبدة تطفو على جزر من مياه الأمطار، والناس خلف قضبان البيوت خائفون. أي غيث هذا الذي تزفه السماء علناً، في المدن تستثنى صلاة الاستسقاء من كل الصلوات، فالخضروات معلبة كاللحوم وقناني اللبن وعلب الطرشي المعتق.

كل الأمطار في المدن القديمة محض افتراء، فلا أنهار تحتضنها ولا بساتين، والشوارع العتيقة، من لهاثها يسيل زبّادها، فيطفح غضباً كأنه بركان يقذف بحممه النارية ليطفئ النهار. الأمطار في المدن القديمة تتأبط شراً لتنبت شوكاً مثل أي نبات بري، أو مرض في غير أوانه.

التلاميذ معطلون عن المدارس، والموظفون فرحون بما جادت عليهم السماء من عطلة قسرية، بعض من تسرب من الطلبة إلى المدارس، كانوا مغمسين بالغرق مثل الشوكولاتة، ومثلهم بعض النسوة اللواتي سرقن بعض دقائق من غفوة السماء واندسسن ما بين الأزقة وصولاً إلى الأسواق، أصبحن مثل الحمام المبلل، فقد أعادت السماء غيضها من جديد.

النساء في حيرة من أمرهن، فالملابس متراكمة فوق بعضها في أركان البيوت، ومعجون الطماطم لا يكفي لمرقة الفاصوليا، وربما نفدت أسطوانة الغاز ويحتاج البيت لواحدة جديدة، العجلات الهوائية تقطر ماءً عند طوارم البيوت، وحبال الغسيل تقطر مياه الأمطار.

الأسواق معطلة والبسطيات مهجورة من ألوان فاكهتها، وقد أسدل عليها غطاء نهاية العمل، وكأنها أعشاش كبر فراخها. من خلف السلال المغلفة بالهجران، تنساب سيول المطر التي تساقطت فوق المسقفات لتقطر بدورها خيوط الماء لتمدَّ الشوارع الغارقة بالوحل، وقد امتزجت بالمياه الآسنة التي طفحت من المجاري بعد أن ضاقت بها بطن الأرض بأنابيبها القديمة.

فقراء القوت اليومي يبغضون الشتاء لأنه يعصف بأرزاقهم، مرة بالبرد ومرة بالمطر، ولكنهم اليوم تفاجأوا بإرهاصات آذار الأخيرة، وهو يغلق

أبواب رزقهم من الشوارع والأسواق بالحزن، بعضهم رفض الإذعان له، فوضع نعله عند ركن عربته، ورفع نهاية بنطاله الذي اشتراه من عربات الملابس القديمة، ودفع عربته وسط السوق الذي اعتاده يومياً من أجل رزق متناثر في جيوب المتسوقين ممن كثرت بضاعته وثقل حملها. بسمل وقرأ بعض أدعية الرزق وتوكل على إله المطر آملاً أن يرسل بعض الدنانير إلى من ينتظره في الجهة الأخرى من الجنوب ليعينه على عيشته الضنكة.

كل حكايات المطر في بلادي حزينة، قبل أن يخاطبها السياب وبعده، فليس للشوارع من أكف لتستقبله، وليس للأنهر من مكان تبيت فيه، وأقدام الفلاحين من طين أرضهم مشققة، كما هي سقوف الفقراء، تهتز عند أول البرق وآخر الرعد، لتختم بيوم حزين.

ذات مرة ذهبت مع أمي لزيارة أختها في منطقة الفراشية قرب مضارب بني تميم. ركبنا سيارة (لاند كروز) تنقل الناس من مركز المدينة إلى قضاء الهندية وبالعكس، لم تبتعد كثيراً من مكان انطلاقها حتى هبت نسائم الذكريات على أمي من مرابع الطفولة والصبا. أخذت أمي تسارع الخطى دون وعي حتى بانت طلائع البساتين بعيطاتها الفارعة المنفردة الجميلة. سرنا مع ضفة النهر الذي يغذي الجهة الثانية من ناحية الشبانات، القصب يعلو جانبيه وبعض الحشرات تحط على رؤوسها وتطوي أجنحتها للداخل. مرّ فلاح يقود عربته التي يجرها حمار ذابل الوجه، مستكين لصاحبه، يهش الذباب بذيله وكأنه أدمن الطريق الذي سلكه مئات المرات. عبرنا القنطرة المعمولة من جذوع النخيل. كانت الباب المصنوعة من الجينكو والمحاطة

بإطار خشبي مواربة، فهي تحكم بالليل بوضع حجرة ليست بالكبيرة خلفها وتدفع إلى جنب عند الصباح، وقد أصدر مصراعاها صريراً عندما دفعتهما أمي لندخل.

تجلس خالتي في براح المكان عند العصر، وتتمدد قربها ابنتها الصغيرة، وهي تضع رأسها في حضنها ومنغمرة في تفليته من القمل العالق به، وتدعس من تجدها بين ظفري إبهاميها وهي تصدر صوتاً من فمها بعد أن تسحب الهواء بفمها كأنه صوت شواء، حتى غدت أظفار بنانها حمراء من دم القمل.

نهضت من مكانها فرحة بقدومنا بعد أن أزاحت ابنتها عن حضنها وأخذت أمي بالأحضان، وأنا أنظر لكفي يديها وبشكل خاص إلى الإبهامين المخضبين بالدم كأنه صباغ أظفار. بينما انخفضت أصوات الكلاب التي بدت متوجسة من كل غريب يطأ البستان بعد أن هجرها الزرع واستفحلت الحشائش الضارة والدغل بسبب قلة المياه وزيادة الملوحة، باستثناء بعض أشجار الرمان هنا وهناك، وشجرة سدر عالية كانت تقف عند الباب الرئيسة.

شعرت أن الهواء نقي مثل موجة بيضاء في بحر يستيقظ متكاسلاً كأنه قضى الليل ساهراً حزيناً، أو غمامة تلبس بذلة العرس. رحت أكتشف المكان بفضول كبير مثل غريب يطأ عاصمة بلد لأول مرة. التنور الطيني يفوح ببقايا الخبز الطازج، وطبق الخوص لازالت بقايا العجين عالقة في أطرافه وقد انسلَّ بعض الخوص منه، وكوم الحطب الكبير من الأغصان اليابسة وجذوع النخيل المقطعة وليفه الأسود الذي يساعد على اشتعال

التنور على جنبه، وعريش عنب رتب بطريقة بدائية يحمل الأغصان اليابسة وبعض الأوراق الصفراء الفارضة نفسها كأنها كف يد شاب بالغ، وكأنها أنهت مهمتها في إنضاج العنب وقطافه وآن لها أن تعيد دورة سباتها من جديد.

طلبت خالتي من أمي الدخول إلى البيت، وعندما تقدمت أمي ذهبت خالتي إلى إبريق نحاسي مركون على جنب، وشطفت يديها بلامبالاة ومسحتها بثوبها المشجر الطويل، وتبعتها وتبعتها بدوري أيضاً.

طفت بنظري في البيت مثل صاحب قارب يختار المكان المناسب لرمي شباكه، كان البيت عبارة عن كوخ قديم أو حجرة في أول الأمر، أو هكذا بدا لي، ثم عدّل إلى غرفة استقبال وبعدها غرفة نوم بنيت كل واحدة بشكل مستقل عن الأخرى. كانت رؤوس حديد السقف ظاهرة عند الطارمة، بعدها كان المطبخ دون باب وقد خرجت قطة منه تتمشى على مهل في ساحة الدار، من دون أن تصدر أي مواء لتدخل إلى المرحاض، وتعبر من نافذته الصغيرة المحددة بإطار خشبي إلى الجهة الثانية، بينما موِّهت جدران الحمام بالإسمنت، وقربه عين غازية وأنبوب ممدد كأنه جثة هامدة، وإناء ألمنيوم كبير فارغ، تأكدت أن من يريد الاستحمام لا بد له أن يسخّن الماء ويغتسل به.

سكرت أمي مع خالتي في عالم الذكريات، كأنني غير موجود وأنا أنصت إليهما وهما يبحران في ذلك العالم البعيد عن جدتي التي كنت أحبها كثيراً، ومن ثم تعودان من جديد إلى الحاضر. كانت خالتي تعيد ملء الأقداح بالشاي وهي تتم حكاياتها التي لا تنتهي وكأنها بقايا شهرزاد،

نظرت إلى الطاسة المقعرة المملوء أكثرها ماءً وقد رسب بعض أوراق الشاي في أسفلها وغدا لون الماء مائلاً إلى السمرة من غسل الأقداح وفتات الخبز، فقد كانت ابنتها تغمس كسرة الخبز بالشاي لتعود وتقضمها وتعيد الكرة من جديد، بينما يستمر الحديث بينهما. ورغم أن مثل هذه الأحاديث لم تكن قد تم الإعداد لها من قبل، إلا أنها تدفقت مثل ثلج الشتاء الذي تحول إلى سحاب يمطر السهوب.

كانت تتكلم عن زوجها وأولادها بمرارة، فقد كان خالي المسكين يتصور نفسه أنه خلق على شاكلة الله، ولما تطوع في سلك الشرطة رأى الناس على شاكلة الشيطان، ففي كل يوم تأتيه عشرات الدعاوى عن الزنى والسرقة والقتل والسلب والنهب والعراك، يعود راكضاً إلى بيته ليغلق بابه على أولاده وكأنه يغلق أبواب الجنة عليهم حتى لا تتكشف سوءات الناس لهم. لم يفلح أولاده في المدارس، فسعد خالي بذلك كثيراً بجلوسهم في البيت، ولم يرغب أن يعملوا عند الآخرين فمشاكل اللواطة والزنى مستعرة في مركز الشرطة والمراكز التي يتنقل بينها، حتى إذا ما كبروا وأرهقوا كاهله بطلباتهم البسيطة فكر بأن أفضل طريقة لحمايتهم هو أن يكونوا امتداداً له، ويتطوعوا في سلك الشرطة بعد أن قسم الآخرين بين (لاط وملوط) أو (شاكل ومشكول)، ولكن للأسف لم يكن ابنه الكبير قد أتم الخامس الابتدائي فلفه سربس الحرب، أما الذي يليه فأصر أن يهرب من الجيش وينتقل إلى العيش مع أعمامه ليعيش مثل طائر الفاخت يتحسس كل حركة غريبة، أو مثل فأر خائف يهرب إلى جحره الذي حفره في نهاية البستان ويخرج من الفتحة الثانية

لبستان عمه الآخر من الجهة الثانية. لم يبق أمامه من خيار، إلا أن يدرج ابنه الثالث في سلك الشرطة، حين السادس الابتدائي بعد عناء كبير، ليكون ظله.

يعمل عصراً على سيارة تاكسي عتيقة (مسكو فيج). كان مطمئناً على عائلته أثناء فترة غيابه عن الدار، فأخوه المعاق الحاج حميد الذي لم يزر الديار المقدسة بعد، يجلس في البيت، ولم تعمِّرْ امرأة معه رغم زيجاته الثلاث، فقد تزوج أول مرة من إحدى قريباته، ولكنها لم تعمر معه، ولم تمض على زواجهما سنة، حتى غادرت الحياة من دون أن يعرف أحد سبب مرضها، ثم عزف عن الزواج عندما حدثت مشكلة كبيرة بين عشيرته والعشيرة الأخرى المحاذية لهم، ما أدى إلى إصابته بقدمه، فتركت أثراً فيها، ما جعله يتعكز على عكاز تحت أبطه الأيمن.

بعد أكثر من خمس سنوات، تزوج من أخرى، وقد نسي الجميع وفاة زوجته الأولى، ولكن الحادثة أعيدت مع زوجته الثانية التي غادرت الحياة بعد انقضاء السنة الأولى من زواجهما، عندها تنبه الجميع إلى السبب. ذهب خالي به إلى أحد السادة العرافين لمعرفة سبب وفاة زوجته الثانية بنفس الطريقة التي ذهبت بها زوجته الأولى. لم يعرف العراف السر المكنون وراء وفاة زوجتيه، ما اضطره للاستعانة بعرافة تسكن في أحد الأماكن البعيدة، المكان الذي تسكنه محاط بهالة من القداسة والاحترام. عندما وصلا إليه، وجدا أن الناس ينتظرون عند مصاطب طينية بنيت عند جدار الغرفة التي تجلس فيها العرافة. وفي الجانب الآخر مربط للأغنام والعجول، هي نذور من الذين جاؤوا إليها، وهم يشعرون بالفضل والجميل لنباهتها وحدسها الخارق.

عندما دخلا على العرافة، نظرت إلى عكازه الخشبي الذي بدا متآكلاً من أسفله، ومتآكلاً عند قبضة اليد، وقد لامست السمرة خشب العكاز، ثم نظرت إلى وجهه بنظره ثاقبة، حاجباه معقودان، وعيناه بلون القهوة تحملان نظرة الصقر الجائع، شاربه كث اصفر أوسطه من سجائر اللف. وضعت بعض الحرمل على موقد النار الذي أمامها فتحول إلى دخان يتلوى، بينما الأضواء الحمراء والخضراء تجعل من الغرفة مثل استوديو الأفراح. سألت خالي عن المشكلة بعد أن وجدته أكثر استرخاء، فأخبرها بقصة أخيه، وأن لا امرأة تعمر معه، فما أن تعبر السنة الأولى من زواجها، حتى تغادره إلى الحياة الآخرة.

تيقنت العرافة أن هناك عملاً كبيراً معمولاً لهذا الرجل المعوق. طلبت منه طلباً واحداً لا غير، أخبرتهما بأن يعودا إلى البستان، ومن ثم يقوم خالي بربط أخيه إلى نخلة نشيطة حتى صباح اليوم التالي، وإن ماتت النخلة فإن العمل لا يمكن لأحد أن يخلصه منه، وإن عاشت النخلة، فإنني قادرة على فك أسره من العمل المعمول له. تعجب خالي من هذا الطلب، ولكن لم يكن عنده خيار آخر. سألها عن المبلغ الذي تطلبه، لكنها رفضت، لأنهما سيعودان إليها من جديد.

كان الجميع ينتظرهما، ولكن من عادة خالي التكتم على أشيائه إيماناً منه بالحسد، واتفق مع أخيه أن ينهي عشاءه ومن ثم يذهب به إلى نخلته الوحيدة التي تحمل تمر البرحي والتي يعتز بها كثيراً. وبالفعل أتمّا ما اتفقا عليه، وكانت المفاجأة التي أذهلت الجميع، فقد استفاق خالي مبكراً، ولكنه انتظر حتى مطلع الشمس وذهب باتجاه أخيه وعيناه تنظران إلى

النخلة من بعيد، حتى إذا ما اقترب منها بدا سعفها يابساً، بينما كان أخوه قد لف رأسه بيشماغه ملتحفاً ومتكوراً على نفسه، واضعاً يديه بين فخذيه. وتبين لخالي أنه قد استحلم. سأله النهوض، فجلس يحاول أن يداري ما فاض منه في الحلم، نظر إلى النخلة فبدا سعفها مصفراً، وتيقن الاثنان أنها قد ماتت.

كان زوج خالتي بدوياً بامتياز، كل ما فعله أنه بدّل حيطان وسقف خيمته المصنوعة من أصواف الغنم وأوبار الإبل وشعر الماعز بالقرميد المغلف بالجص والبورك والسيراميك، وأبدل رمل الصحراء ببلاط إسمنتي صلد، ونزع العباءة البدوية ولبس لباس الشرطة وبقي ممسكاً سلاحه بيده. في مدننا التي بنيت بالطريقة الأفقية لم تكن البيوت تختلف كثيراً عن بيت خالتي، وحده البناء العمودي من يجبر الناس أن يتقبلوا بعضهم البعض بسبب مشتركات المكان والزمان والحاجة. إذ لا زالت العصبية نبضاً يظهر كلما شعرنا بالخوف، واسم قبيلتنا يذيل أسماءنا ويطرز فراغ هويتنا، يبتسم على الجانب الأيسر من أبواب بيوتنا، نزدرد النساء بسبب أنها تسقط عصبيتنا القبلية، ونحيي الأماسي لصبي مشلول أو متوحد يحمل اسم قبيلتنا.

ظلت هذه الزيارة والحكايات عالقة في ذهني مثل اسمي لا يغادرني، بينما وقفت أمي وهي في طريقها إلى الباب لتتم حديثها مع أختها لأكثر من ربع ساعة، ثم أخذت خالتي عباءتها التي بدت متربة من الأرض ووضعتها على رأسها بعد أن اتجهت أمي إلى الباب. كان كلما يحين موعد الوداع، يزداد الحديث حرارة، وكأن الساعتين من الحديث الحميمي لم تكونا كافيتين

لاجترار الماضي والحاضر. في هذه الأثناء مرَّ صاحب عربة يجرها حمار جوزي اللون يحمل الحشيش، فعدلت خالتي من عباءتها بالرغم من أنها تغطي رأسها بفوطة سوداء وثوبها الطويل وجواربها السميكة، ولم تكن العباءة إلا عادة قد اعتادتها وإلا فإن جسدها عبارة عن صرة من الملابس المتنقلة. خالتي دعت أمي أن تزور مكة المكرمة بعد أن رفضت ذلك بسبب التحاق أخي الأكبر بالجيش وسط المعارك الشرسة، ونذرت أن تزورها بعد أن تضع الحرب أوزارها ويرجع ابنها سالماً.

كانت الجمعة وخيمة على النفوس، وحسناً فعلت أمي عندما أخذتني معها إلى بيت أختها الصغرى، ومع ذلك عدت بشوق كبير إلى منطقتي وأترابي، ومن ثم دلفت البيت بعد أن غربت الشمس إلى مآلها الأخير، استعداداً ليوم دراسي جديد، فقد أصبحنا ثلاثة أخوة في المتوسطة وفي مدرسة واحدة، لكن الذي يكبرني بسنتين، قد تأخر في السادس ابتدائي، وعندما عبر إلى المتوسطة فصل في الصف الثاني متوسط، بعد أن دخل على معاون مدير المدرسة الأستاذ دحام مع أقرانه إلى غرفته وأغلقوا الباب خلفهم، وأخذوا يقلبون دروج الكتب الرسمية والملفات على رأسه وانهالوا عليه بالضرب والشتيمة، ليتحول إلى طالب في الدوام المسائي، لكنه لم يترك شغبه مع الطلبة والمدرسين. وكثيراً ما كان يذهب إلى قاطع الكهرباء قرب ميزانية المدرسة ويفصل الكهرباء ليعم الظلام المدرسة، فيهيج الطلبة في صفوفهم، ما يجعل المدير يخرجهم إلى بيوتهم، إلى أن اكتشف السر وراء انطفاء الكهرباء.

أما الذي يصغرني بسنتين، فقد أصبح في الصف الأول متوسط، وكان أكثر شقاوة ولا يهاب المدير أو المدرسين، فيعقد أمام باب المدرسة حلبة صراع للذين يتوعدهم، فيتجمهر الطلبة من حولهم بينما ينهال بالضرب على قرينه، ليُخرج في اليوم الثاني عند الاصطفاف الصباحي على أنه طالب مشاكس وغير منضبط للقصاص منه أمام الجميع.

كنت أدفع ضريبة الاثنين، فقد كنا مميزين، وقد تبين للجميع أن ليس لديهما ما يخسرانه، فقرر المدير نقلي إلى مدرسة أخرى في العباسية الشرقية، وكنا قد اجتزنا امتحانات نصف السنة وهذا أمر غير جائز أو قانوني في كل اللوائح وبالخصوص في المراحل المنتهية، فقد صدر أمر نقل ثلاثة عشر طالباً إلى مدرسة الثورة. سعينا جهدنا للرجوع إلى مدرستنا، إذ لا يمكن معرفة أساليب المدرسين وطريقة شرحهم وامتحاناتهم، وبالخصوص أننا في مرحلة حرجة، والحرب دائرة لا يثني عزيمتها أي دعاء أو عاطفة أو وساطة دولية، بعد أن حرص الجميع على توفير وقودها. وقد أفلح أحد عشر طالباً بالرجوع إلا أنا وطالب آخر لم يسعفنا الحظ أو الواسطة. وعندما شكوت لأمي ورجوتها أن يذهب أبي للمدير ليؤثر عليه، زمجرت ورفضت خائفة من أن أبي غير متفرغ لمثل هذه الأمور البسيطة، وما الفرق بين المدرستين، المهم أن تكون طالباً جيداً.

لباس مديرنا أخضر اللون لا يفارقه في الدوام الرسمي أو المظاهرات المفتعلة تأييداً وشجباً واستنكاراً، لكن لا أحد يجرؤ على الخروج بمظاهرة تطالب بالإصلاح أو تعديل قانون أو حتى لإحياء مناسبة دينية، تؤيد أو تُغيّب، تشجب أو تخرس، معنا أو ضدنا؟ هل أجرؤ على

القول إن الشعب كان ضحية، أم أن قادته كانوا ضحية طموحاتهم المسعورة فيبيعون ضمائرهم بثمن بخس من أجل تحقيق أحلامهم المشبوهة، ولذلك ماتوا حتف أنفهم، كما مات الشعب حتف أنفه من الخوف والتغييب والهجرة.

مديرنا أحمد المعملجي أربعيني الهوى، حليق الشارب والذقن كأنه ضابط جيش موصلي، فروة رأسه كثة وخطها الشيب، وما زاد اعتناءه بنفسه، أن مدرستنا كانت الرائدة في استقبال المدرسات بعد فجوة المدرسين التي سببتها الحرب، والتحاق الخريجين إلى جبهات القتال، وقد أحدث هذا الاستقبال ضجة كبيرة. تغير حال المدرسين بشكل جذري، فقد أصبح الجميع على علاقة طيبة مع المرأة، وكذلك بعض الطلبة في الصف الثالث المتوسط.

يرفع العلم العراقي في كل خميس، يوقف الطلبة بالاصطفاف ليلقي علينا قداس القائد والوطن الممل. كان يقول إذا خاطب الرشيد الغيم بالقول: أينما تذهبين فإن خراجك عائد إلي، وخاطب الإنكليزي السكسوني الآخرين بفخر: إن الشمس لا تغرب عن إمبراطورتينا، فإن رئيسنا المبجل خاطب العراقيين: كلكم فداء للوطن ومن ثم للدين والقائد، تحت شعار: الله، الوطن، القائد. يعلن صراحة أننا قرابين منتظرة عند مجزرة الوطن، كنا ضحية ثالوث مقدس.

الحرب ونار الحرب متقدة كفوهة بركان تنثر حممها على كل الجوانب، والمجانين والخرسان والعرجان والبرصان وكل المعاقين والجياع والمرضى النفسيين يملؤون الشوارع، وكأنه قد تحول إلى مصحة نفسية، لا رجال

سالمين إلا عند جبهات القتال، لا نساء عفيفات إلا خلف أسوار الجوع، لا أطفال يلعبون إلا واليتم دليلهم.

السيارات أكفان تبحث عن قتلى، وقطع القماش البيضاء ترقب بلهفة أجساداً مقطعة مفحمة، والجوامع دون أبواب، ويتقاطر المعزون من مأتم إلى مأتم يحنّون أكف المعزين، ببركة الشهادة متمنين الجنة لهم. ألم يقل كبيرهم إن الشهداء أكرم منا جميعاً، والنساء الأرامل وقود الليالي والحسرة، وأصوات الأطفال تحلم بالصورة المعلقة على حيطان غرف الاستقبال أن متى تعود يا أبي، بابا، وبغصة تعود قبل أن تخرج من أفواه الصبية المغلوب على أمرهم، لا أب ينصرهم على صبي مشاكس، أو قاطع طريق متجبر من صعاليك العقود. وفي المدارس صدر توجيه وأمر بألا تستدعوا أولياء الأمور فالولي الوحيد محنط بلباس الحرب عند جبهات الموت، وفي القصور التي تجثم على ضفاف دجلة والفرات، وحولها مراتب وجنود وأسلحة وكاميرات وموانع للحياة.

الحرب كأنها سورة الكهف، ونبي يبشر بالنار كجزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، والرؤوس تقطف بمنجل الحقد والعظمة والفخر على حد سواء. نمدُّ أيدينا دون أصابع إلى كهف التاريخ الغائر بالقدم لنستنهض حمورابي ونبوخذ نصر كرجال حرب ووقود نار، نمر على الحجاج والقعقاع كنذر شر يتأبطون عند ساح الوغى سيوف الحرب. هكذا نحن العرب عند كل صحراء نبكي أطلالنا نتحسس أغمادنا فلا خناجر أو سيوف، نتحسس قضيبنا ونشعر بالاطمئنان أن بقايا رجولة تنبض مثل خرائب بابل وذكرى سوق عكاظ.

وأنا وسط كل هذا الخراب لا أتبع ظل أحد لأكتب قافية، لا أسترق السمع لطرق الصفارين لأعزف لحناً، لا أعشق امرأة لأدوِّن سرد الحب ومغامرة أسطر فيها وفاء عنتر وعذابات كُثير عزة، أنا بقايا كعكة سقطت من فم أدرد ركنت قرب جدار واطئ فاستحوذ عليها النمل بعد أن قضمها فأر خائف.

المعابد الموشحة بالتيجان والتراتيل والغفران، تضوع بالزعفران والبخور المحترق بأجنحة الملائكة دون مصلين، وحده الخادم يترنح على صوت التسجيل يفتح قرآناً ويسبح، يغمض عينيه ويسبل، وعند مرآة المغاسل يرى شكله الأبرص فيهرب منزوياً بالحمام. وعند أول بائع خبز يتجمع الناس مثل النمل وقرب امرأة حسناء يحضر أول شيطان، وحدهم الفقراء من يصلون خلف إمام الجامع، والغرباء يوافقون رجال السلطة دون نقاش، ليصنعوا لهم في كل مكان تاريخاً من النسيان، تخترقهم الغربة في كل تفاصيل اليوميات، إلا ما ندر منهم لا ينتمون إلى الضياع يتنقلون مثل الطيور المهاجرة، ما أن يحل شتاء جديد حتى تبدأ أجنحتهم بالحركة والطيران، ليس ذنب الناس عندما يكون سقف توقعات الأنبياء فوق طاقاتهم.

كثيراً ما أتأمل المنائر والقبب الصفراء، وأسال حلمي، لماذا لا تُغْني كلُّ الأدعية عن جوع، ولا تستر كل التسابيح والتضرعات عريانًا، الفقراء والمجانين يملؤون الشوارع، وبيوت الدعارة وبائعات الهوى على أطراف المدينة يزحفون مثل الأرض الطيبة إلى حد السيوف. أدركت أن رأسي منجم أحلام لا ينضب، مثل استوديو الجماهير للتصوير الفوتوغرافي الذي

أبغضه كثيراً، لأنه يؤطر الموت مثل بائعي الأكفان وحفاري القبور، بل إن كثيراً من الجنود كانوا يقصدونه، وقبل ذلك يذهب الجندي إلى الاستوديو ليأخذ صورة لنفسه بخلفية قبة ومنارة أو شباك لأحد الأولياء الصالحين، ويلتحق متّكِئ على خوفه إلى جبهات القتال، إذ لربما يعود مجندلاً بالعلم العراقي، وعندها لا يعوز صورته إلا خط أسود في الثلث الأعلى من يسار الصورة.

طيور الصبح ومصابيح أعمدة الكهرباء وجنود دون هدف يمشون مثل السكارى وكلاب سائبة وفقراء يلتحفون السماء، وأقفال محال أندى الليل عليها قطرات حلم برزق وفير، وعرير الصراصير قرب طوف البستان المهدم يقض مضاجع المارين دون رشد فينتبهون ويعودون إلى سكرتهم. كان أبي قبل كل صباح وعند السحر وقبل الفجر يوقظ الله ليخبره بصحوه المبكر، يخبره بوضوئه بالماء البارد، بالأفواه التي ستفتح بعد السادسة من كل ضياء، حتى الجمعة لا يذر البيع أبي، فالأفواه لا تعرف الأعذار. كنت أنا مثل ديك الجيران أستيقظ بعد ذهاب القمر، أسمع تسبيح أبي، وأمي من تعب الليل ممددة مثل وسادة خاوية تئن وتئن حتى يخفت وجعها، لا تستيقظ مثل أبي، فأواني الطبخ لا زالت فيها حرارة طعام العشاء، وأطباق الأمس وبقايا فتات الخبز وسلة المهملات ممتلئة تشهد على ليلة حمراء.

ذات صائفة وحلم يابس وعلى غير موعد سمعت عويلاً، كنا نغفو فوق سطح الدار آمنين، نلتحف السماء بصفائها الخلاسي، نهضت أمي من فراشها بعد أن أزاحت الجانب الأيمن من كلّتها البيضاء مرتبكة،

بحثت عن نعالها باستعجال ولما لم تجده، نزلت مهرولة إلى الطابق الأرضي، لم يهتم أبي للصوت، وأعاد الكلّة إلى وضعها الطبيعي وغرق في نومه. وعند الصباح تبين أن جارنا كامل السباح قد غادر إلى العالم الآخر قرب ربِّه.

لم يكن أحد ينتبه لزحام الموت الذي مثّل دورين؛ مرة تقمص دور الضحية الذي يشبه كذبة نيسان، ومرة كسوط جلاد حانق، فبالرغم من أن الناس قد اعتادوا الموت حتى أصبح جزءًا من يومياتهم المعتادة، فهم ما بين تشييع جثمان وذهاب لتأدية واجب العزاء، أو زيارة القبور، أو حضور مأدبة لمرور أربعين يوماً على استشهاد شهيد لم يدفن من جثمانه إلا أجزاءٌ، إلا أنه سرعان ما تفتضح كذبة نيسان بسبب غياب الجثمان الكامل للقتيل، ويتبين بعد فترة أن الشخص الذي قد دفنت أشلاؤه، كان جريحاً في مستشفى عسكري، أو سجيناً نتيجة مشادة مع زميله أو الضابط الذي يترأسه، أو محاصراً في جبهات القتال، وما يترتب على غيابه ربما موت أحد الوالدين، أو زواج زوجته من أخيه أو من قريبه، وعندما يحضر تتكسر الصورة التي كان يرسمها لأهله أو لزوجته وهو عائد من محنة أنقذه القدر منها، ليجد أن كل شيء قد تغير، وأن زوجته وأم أولاده تنام في حضن أخيه أو قريبه، وأنه الميت الحي، الغائب الحاضر في الزمن الخطأ.

مات كامل السباح الذي لم ينجب سوى ولدين ولأسباب غير معروفة عقم عن الإنجاب، أو عقرت زوجته أن تكون أمًّا ولوداً، حوّل إحدى غرف بيته الذي يطل على شارعين إلى محل بدرفتين لبيع السكر والشاي

والسمنة وسجائر سومر وأريدو وبغداد وروثمان واحتياجات الصبية من الشوكولاتة والبسكويت والنساتل والمشروبات الغازية والمثلجات والمرطبات في الصيف، والجبن والقيمر وحليب (أبو غريب) المعقم في الشتاء.

كان في العقد الخامس من العمر طويل القامة نحيلاً، متجهم الوجه حاد الطباع، يجلس على كرسي خارج دكانه لينهر الصبية الذين يلعبون في الشارع، يمسك خرطوم الماء ليرش الأرض، لكن بعض الصبية لا يستجيبون لغضبه ويفضلون مشاكسته، فيدخل لدكانه ويخرج عصًا ويبدأ يتوعدهم ويهددهم. وعلى عكسه ابنه أحمد الذي لم يتم دراسته وفضل الانخراط في العمل مع والده، كان عفيفاً في نظراته لفتيات المنطقة، ولم يفكر يوماً في أن يقيم علاقة مع إحداهن. يتجمع الشباب عنده، دون أن يسمح لأي منهم دخول دكانه، يجلسون على المصطبة الخشبية التي تتقدم المحل والتي يضع عليها بعض العلب الزجاجية التي تحتوي على السكاكر والعلكة والجوكليت.

بعد انتهاء العدة التي تسمح للمرأة بالخروج من سجنها الشرعي، والزواج إن سنحت الفرصة، كانت سرائر وجه أم أحمد تكاد تفضحها، فهي سعيدة بترملها، حتى أن بعض النسوة من اللاتي يجلسن عند دكة بابها يغبطنها على ما هي فيه وتمنَّيْن لو كن مثلها. أيعقل أن تتمنى بعض النسوة الترمل لتحيا بحرية، أم لتحرر جسدها من جسد الرجل الذي ينخر فيه كأنه حشرة أرضة.

وسط هذا الموت المجاني ومدفوع الثمن، كنت في كل عام دراسي أنزع ملابس اللعب والصبا وأرتدي ملابس الدراسة والجدية مثل حرباء في صراع من أجل البقاء. وكان مخاض السنة الأخيرة لمرحلة المتوسطة محطة صعبة كمفترق طرق، كنت وكل الشباب نتوقف عندها بين الحين والآخر، ندرس وسط جعجعة البنادق التي عند كل اصطفاف من يوم الخميس ترفع صوب الشرق لتطلق طلقات الخلب قرب العلم العراقي وهو ممسك بالحبل كمقصلة أعلى من رؤوسنا، وعند جبهات القتال يرى الطحين. حتى نجحت من الصف الثالث بشق الأنفس، ليس لأنني لست كفؤاً، وإنما كانت الحرب خير منافس لي، فقد استحدث في استمارة الانسيابية التي تنظم توزيع الطلبة على المرافق الأكاديمية ومنها التصنيع العسكري.

لم يكن الحب ليفارقني، كنت في كل مرة أرعد للسماء دون مجيب، أتوسل إلى خيالاتي المريضة بحبك دون رد. أعلم جيداً أن روحي تائهة مثل بدر ولميعة، غريبة مثل نازك الجميلة، كان حبك مثل تهمة إلحاد في حضرة جلاد قلّب كل دفاتري فلم يجد فارزة بل علامات استفهام. وكنت يا مليكتي غادة حسناء أو حورية بحر تطلين من على شرفات قلبي وتنتظرين وتبتسمين، وأنا أذوي مثل عود ثقاب في ليل حالك يتجاذبه الظلام والرياح فأشهق وأنطفئ.

ليس ذنبي أنني مثل سمكة في مائك، إن كل خلاياي تسبّح في ملكوت نبضك. وفي هزيع الليل الأخير ينحب قلبي مثل قطة ثكلى بصغارها الذين أكلهم الذئب، كلما تقرع أجراسه حنيناً لجفائك تصدين وتعرفين من قبل أنه ممهور بك، قلبي مثل حبة أناناس حمراء أو شفة فتاة وردية لم تعرف

الطلاء بعد، أو مثل حروف اسمك ينبع وينبض مثل أمواج البحار القصية. أعلم جيداً أنني ذقت وبال حبي وتجرعت صدودك الذي يشبه الصخرة الصماء ألوذ بها من الخوف لكنها كانت تكشف للأعداء ضعفي.

حتى كان الحلم وربما الحقيقة التي تجلت أمامي عندما كنت أذرع ساحة سطحنا بين ذهاب وإياب أمسك الكتاب، وإذا بفتاة مهجرة من البصرة بعد أن اشتدت المعارك على ثغر مدينتها وكانت البصرة الفيحاء، انتبهت إلى أنني اكتشفت العيون التي تراقبني من على سطوح البيوت المقابلة لبيتنا، تبسمت وقابلتها بابتسامة وإيماءة وبعد أيام كان اللقاء. تحدثنا طويلاً عن الحب. قالت أنت لا تحبني وإنما تحب الحب نفسه، وما أنا إلا عنوان له، وذابت في سرد مشاكلها ولون الحرب والخراب الذي حلَّ بالبصرة جراء الحرب الشعواء بين الطرفين، وفقدها لبعض أقاربها وأخيها الأكبر، وأمها التي ماتت فوق جثته وهو مجندل بالعلم العراقي.

تألمت كثيراً على حالها، وبينما كنت أبحث عن الحب معها، أخذتني إلى حيث الحزن يعشش في داخلها، كنت أسير معها سارحاً في ملكوتي الخاص، بعد أن وجدتها تتخذ مني مكبّاً لكلامها، عدت إلى هذياني وطفولتي، وربما أحلامي وأنا أرثيها. منذ نعومة أقلامنا، تعلمنا أن نصرخ في الصفوف المغلقة (دار دور داران) وكان حرف الدال يعني أن ندير ظهورنا للحاضر ونقبع في دور آبائنا لننتظر الدار الآخرة، رغم أن الصوت العالي أقبح الأصوات، ولم نحصل سوى على دار مستأجرة لا نعمر فيها شيئاً لأنها دار غيرنا، ولم نحصل على دار في مكان آخر لأننا لم نكن بعد قد حددنا المكان الذي نريد أن نهاجر إليه.

في ليل الشتاء القاسي حيث تناضل ذؤابة الفانوس اللاهثة من أجل إضاءة عتمة الحب التي ظلت قابعة فينا منذ القدم، ننحني على وجوهنا على دفاتر الواجبات الليلية كأننا في حضرة إله لا يحب أن ينظر أحد إلى وجهه. أرسم بالكلمات أحلامي البريئة، ونعانق المستقبل ببياض الصباح الذي لم يطل بعد، وعندما نتحول إلى مادة الحساب، نحب كثيراً ونشعر بالألفة أمام رمز الجمع، مثلما نشعر بالقرف والرفض لرمز الضرب ربما لأنه يضرب كل الآخرين ويكفرهم، ولا يسمح لغيره من أن يكون عبداً ذليلاً يلطخ جبهته بمثلث الموت.

مع تقادم الأيام وعندما صار الطريق يسير بنا إلى حيث حتفنا الأول، تعلمنا الرسومات البدائية مثل جدنا الأول عندما كان ينحت مخاوفه على جدران قلبه، ويتضرع للسماء بأن تنزل عليه مائدة عامرة باللحوم دون عناء، عرفنا اللون الأحمر، والذي كان القول الحسم في تقابلاتنا العشائرية وحل نزاعاتنا الدولية، هذا ما عرفته فيما بعد.

كانت حبيبتي تشكو من ضيق الأمكنة في مدينتي، وشح الأنهار وجفاف الأجواء، وكنت أعلم أن المدن التي لا تجري وسطها الأنهار مدن صماء، المدن التي لا تنشأ على ضفاف الأنهار والشواطئ تبقى مدينة للمياه، المدن التي تدور حول المراقد الدينية مدن خائفة من العطش، ليس للشمس عندها من معنى، تنار مع القمر وتنطفئ بغيابه، تبقى مدن ليلية تتخطفها الأشباح ويرعبها عواء الكلاب والذئاب وعيون القطط.

كنت ما بين مطرقة الواقع وسندان الأحلام أطحن كل مساء. كلما غرز الواقع أنيابه في لحمي هربت إلى الحلم لألتحف به. الأحلام هي وحدها من

يستطيع الإنسان البوح داخلها وفيها دون قناع أو زيف. يعيش تناقض الواقع بالحلم، وتناقض الحلم بالواقع وواقع الحلم بتناقض الواقع. الواقع هو الطريق إلى الموت، كلما انقضى يوم اقتربنا نحو الهاوية نحو اللاشيء، إلى المجهول، الواقع هو الإثبات الوحيد الذي نسير فيه دون دراية أو هداية إلى اللانهاية، ولذلك سعت الأديان إلى إيجاد أفيون يخفف منه، والأحلام هي السبيل الوحيد إلى الحياة. في كل زمان يحلم الشباب بالخلاص، ولا خلاص غير المسيح من براثن الحقد النابتة في الصحراء دون بذور.

كانت لقاءاتنا متفرقة، وكنا نلتقي كلما سنحت لها الفرصة أن تخرج من البيت. وفي بعض الأحيان كنت أغضب كثيراً من الواجبات البيتية التي كنت الوحيد الذي يقدمها للأهل بالرغم من وجود آخرين غيري، فقد كنت أوسط أخوتي كما تتوسط الأصبع الوسطى كف اليد، أنيطت بي مهمتان، الأولى شراء أرغفة الخبز الطازج من المخابز، بعد أن تركت أمي خبز التنور لكبر عائلتنا وضيق وقتها، ولانشغال الحكومة بالحرب فألغت توزيع الصمون الكهربائي على الأكشاك الصفراء التي بنيت على الأرصفة، وبدأت تجهز المخابز والأفران بالنفط من أجل تقديم خدماتها للناس.

والمهمة الثانية هي جلب الدواء للعائلة بالعموم ووالدي الذي يضع قربه سلة من الخشب الساج الأصفر مملوءة بأنواع الأدوية، فيها أشرطة الكبسول وأقراص الحب بمختلف الألوان والأنواع، فيها علب زجاجية صغيرة وقد علَّم عليها الطبيب بخطين دلالة على استعمالها مرتين كما الشمس في مشرقها ومغربها، وبعضها بثلاث خطوط كما الصلاة، وكذلك

قارضة الأظافر لأن أبي يستاء كثيراً من الزوائد الجلدية (الشعافير) التي تنبت حول الأظافر مثل كثير من الأشياء الفائضة عن الحاجة، إضافة إلى صيدلية البيت التي تحتوي على لفافة شاش ومعقم (اسبرتو) ومرهم دهنه أصفر ومقص، وخبرة أمي في طب العرب أو الأعشاب التي تعلمتها من جدتي الجميلة التي كثيراً ما كانت تتواصل معنا بودّ، لأن أمي ابنتها الكبرى وهناك أسرار تجمعهما عن حياة جدي لأمي الذي لم أره وإنما سمعت بعض القصص الغامضة عن حياته.

يرسلني أبي إذا أراد تجديد وصفة الطبيب، فأدور حول الصيدليات الاعتيادية وبعض الأحيان يتفقد دواءه فيجد أن بعضه قد نفد فيطلب مني جلبه. أركب دراجتي الهوائية التي اشتريتها من سوق هرج وكانت خاصة بالمسابقات، مقودها معكوف للداخل وسرجها صغير ويمتد إلى الأمام مثل وجه الكلب. أدور على الصيدليات الخافرة، وأولها صيدلية القباني لصاحبها محمود القباني، في شارع قبلة العباس، يلبس نظارات كبيرة الحجم تشبه نظارة المطربة عزيزة جلال ويربي شاربه الأسود الكث كأنه شيخ عشيرة، وصيدلية الديار الإسلامية عند رأس العلاوي وصيدلية الشهيد عند شارع قبلة الحسين، كان حليق الشارب، فروة رأسه بيضاء خفيفة، مرتبة إلى الخلف تشي بخبرة كبيرة في عالم الأفعى التي تتلوى حول دورق الدواء، يلبس نظارات طبية تضفي وقاراً وهيبة، قربه فندق يحمل عنوان (فندق الرضا)، وحينما تسلل حزب البعث إلى السلطة بليل حالك طلبت منه تغيير مثل هذه الأسماء، لكن صاحبه ولاعتزازه بالاسم أضاف الهمزة إلى آخره مثل الضرورة

الشعرية ليصبح اسمه (فندق الرضاء)، فاستوقفني هذا الاسم وأنا أركن دراجتي لشراء الدواء من الصيدلية.

ربما ذاكرتي مثقوبة مثل حقيبة مسافر هارب من خيباته لا تحفظ أشياءه، كنت حريصًا أن أجلب الدواء وأحفظ أوقات تناوله رغم الخطوط التي يخطها الصيدلاني على شريط الكبسولات أو علبة الدواء، فأبي حاد المزاج يستاء سريعاً إن جئته دون معرفة أوقات تناول الدواء. الصيدليات الخافرة كانت جزءاً من نشرة الأخبار عند رأس الساعة التاسعة صيفاً، والسابعة شتاء، كنا نلعب فيما بيننا حزورة معرفة الصيدليات الخافرة، ومن يحزر الصيدلية الخافرة لهذه الليلة.

فرحت كثيراً بالحلم الذي طاف عليَّ يبشرني بقبولي في الإعدادية، فقد كان حلماً عصياً على التحقيق أو المنال لكثير من الطلبة، لأن معناها أن يطيل المسافة بين الابتسامة والحزن. كان الثالث متوسط محطة فراق بين أصدقائي، فمن لم يحالفه الحظ، يذهب إلى التصنيع العسكري، أو معهد الزراعة أو التجارة أو الصناعة والدراسة فيها هو ثلاث سنوات، أما الإعدادية فمعناها أن يتم الطالب دراسته الأكاديمية نحو الجامعة.

IV
وأد الأحلام

نظرت إلى مسؤولي الأمم المتحدة وبعض رجال الجيش السعودي بوجوههم السمراء المغبرة وسط صحراء مقفرة موحشة، وتذكرت أيامي الأولى التي ارتديت فيها ملابس العسكر ولكن تحت عنوان الجيش الرديف أو الشعبي.

في الرابع الإعدادي، والحرب تشعل أفران الموت كأنها نار سقر، جاء مدير مدرستنا إلى صفنا وأستأذن مدرس التربية الفنية أن يخرجنا باصطفاف قرب صالة المسرح، اضطربنا، فالمدير يتأبط شراً بلباسه الزيتوني الذي لا يفارقه إعلاناً لولائه للحزب، وأي تفريط بالملبس أو عدم وضع الأقلام الجافة في الجهة العليا من كم القميص أو جيب السفاري استعداداً لكتابة التقرير الحزبي قد يودي بمنصبه. ظن بعض الطلبة الذين حملوا كتبهم الخائفة ودفاترهم المضطربة أنهم سيخرجون في مظاهرة لتأييد المعركة، فالمظاهرات والاحتجاجات بسبب وبدونه، ولكن مدرس الفنية طلب منهم تركها لأنهم سيرجعون إلى الصف من جديد.

مشى بعضنا خلف بعض كأننا أقلام رصاص في علبة كارتونية، وتبين أن مسؤول المكتبة يريد أن يسلمنا كتاب اسمه مختار الصحاح. انتابني شعور بالغبطة، وقد انفرجت سرائر وجهي ومثلي باقي الطلبة. عندما وصلت إلى الطاولة التي يجب أن أوقع أمام اسمي على استلامي للكتاب، وقَّعتُ بخوف دون أن أعرف السبب من وراء ذلك، وعندما عدنا إلى

الصف، كان وقت الدرس قد أزف ودخلنا في الحصة التي تليها. لم يعطِ كثير من الطلبة أي اهتمام للكتاب، ولكني طفقت أتصفحه وأبحث عن معنى كلمة حلم، حتى وجدتها:

- الحُلُم بضم اللام وسكونها ما يراه النائم وقد (حَلَم) يَحْلُم بالضم (حُلْما) و(حُلُما) و(احتلَم) أيضاً. و(حَلَم) بكذا بمعنى رآه في النوم. و(الحِلْم) بالكسر الأناة وقد (حَلُم) بالضم (حلْماً) و(تَحلّم) تكلف الحِلْم و(تحالم) أرى من نفسه ذلك وليس به. و(الحَلَمَة) رأس الثدي وهما حلمتان. والحَلَمة أيضاً القُراد العظيم وجمعها (الحَلَم). و(حَلّمَه تحليماً) جَعَله حليماً. و(الحالوم) يُغلّظ فيصير شَبيهاً بالجبن الرطب وليس به.

ولكن باللاوعي طاف ببالي جزء من آية في سورة يوسف (يَا أَيُّهَا الْمَلَا افْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) وطفقت أبحث في الصحاح عن معنى كلمة تَعْبرون حتى وجدتها: وعَبَرَ الرُّؤيا فسرها وبابه كَتَب و(عَبّرها) أيضاً (تَعْبيراً). و(عَبَّر) عن فلان أيضاً إذا تكلم عنه واللسان يعبر عما في الضمير... إلخ. هكذا صرت أطوف في عالم اللغة وأبحث عن معاني الكلمات وتفسيرها وشرحها وتأويلها وأوزانها دون أن يبقى أيٌّ منها راسخاً في ذهني، فقد كنت أعتقد أن لغتنا لغة السلطة والأوامر لأنها منزلة من السماء، لغة الآلهة والحاكم الذي لا يعرف التفاوض، لغة مثل وطن لا أرض لها، أو مجتمع لا شعب له، أو زوج يلبس الواقي ويريد الإنجاب من زوجته.

كانت أحلام أغلب الذين أعرفهم مقرونة بالليل والظلمة، كأنها شريط كاميرا فوتوغرافية مخرم، بينما كانت أحلامي ترافقني مثل اسمي في الليل

والنهار، مرّة على شكل أحلام يقظة، ومرة أحلام نوم قلق أو مستريح، أرى بعضها مموهاً أمامي لأقف وأسأل نفسي: هل ما أراه أمامي حلم أم حقيقة غائبة عن بالي؟ حلم أم خيال أتوهمه؟

بين الحزن والغضب وقسوة أبي وزمجرة أخوتي والحذر من زلة الحياة والانزلاق في شهوات الفتيان والتيه في لا مبالاتهم، قبضت على مدرستي. في الامتحانات الأخيرة، رسب الجامحون، مثل أفراخ العصافير، ليتساقطوا في خنادق الحجابات الأولى، فلا عاصم لهم من الجحيم، حتى قال أحدهم ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل القائد أمواتاً بل أحياء في أنهار الجنة يسبحون. الأسوار عالية والحدود مغلقة، وجوازات السفر مثل مفاتيح الجنة، لا ينالها إلا من كان ابن مسؤول أو صاحب كنز كبير. وما أن حطت السنة الدراسية أوزارها، لنوضع في اختبار جديد لاختيار دراسة الفرع العلمي أو الأدبي، ولم تختطَّ بعد شواربنا، أو ترسم ذقوننا لوحات من الحزن والهم، حتى جاء المسؤول الحزبي إلى بيتنا يطلبني الالتحاق بقاطع للجيش الشعبي. وهذا يعني أنه حتى من نجح إلى الضفة الأخرى، كان لزاماً عليه أن يخدم في الجبهات الثانوية مثل رعيل من الدجاج الأبيض، ليملأ الفراغات تحت عنوان الجيش الشعبي.

هكذا انتشر البعثيون في وضح النهار باسطين أذرعهم بالوصيد، ولم يكن لنا مدخل غير أبواب بيوتنا، فمسكونا مثل الدجاج الداجن، وكنا خليطاً من المعلمين والمدرسين والطلبة والكسبة والعمال والموظفين، أنذروا الجميع أن عدم الالتحاق بالقاطع يعني الفصل من الدوام الرسمي للمدرسة أو الدوائر الحكومية، أما من كان صاحب محل فإنه سيبقى مطارداً

حتى يلتحق ويؤدي الخدمة. لم نكن جيشاً أو رديفاً، بل كنا خرافاً يقودنا رِخْلٌ عند قمم الجبال في طق طق، أو حمرين، وما بينهما.

جمعونا في ساحة وقوف السيارات عند باب قبلة الحسين تدعى ساحة الطيار، وكانت الباصات الكبيرة من نوع مرسيدس - الأوتومارس تنتظرنا، كان اسم قاطعنا هو قاطع النضال، وقد تم سوقنا بداية شهر حزيران، وانتهى في الثاني من تشرين الأول للعام نفسه، وَشَمْتُ ذلك فيما بعد على الذراع العلوي من يدي اليمنى، كي يبقى ذكرى سيئة في تاريخ مراهقتي. انطلقت السيارات بنا تتقدمنا سيارات عسكرية صغيرة تحمل آمر القاطع ومساعديه وسيارة نجدة تعلن بأضوائها وأبواقها المزعجة فتح الطريق، بينما كانت بعض النسوة والشباب يودعون أولياء أمورهم ويلعنون من كان السبب، بعضهم كان يحبس حسرته ودمعه، وبعضهم استعاض بالدعاء وأوكل أمره لله، بينما كان بعض الشباب فرحين باكتشافهم أماكن جديدة ربما لن يروها لولا هذا القاطع.

عادت سيارة النجدة بعد أن خرجنا من حدود البلدية لمدينتنا. هدأت النفوس واستكانت وهجعت، ودخل بعضنا في حوارات جانبية كي نقتل الملل والخوف الذي استحوذ علينا. لا أتذكر كم أكلنا من ساعات عمرنا ونحن بين نائم ومتأمل وسارح في ملكوت حلمه، بعضهم يئن من وجع الفراق، وبعضهم حائر كونه لم يترك لعائلته قوت يوم واحد. كانت الأحاديث تعلو بالألم وتنخفض من جديد، حتى إذا ما دخلنا أربيل بعد أن توقفت السيارات في مدينة (طوز خرماتو) أو قريبة من هذا الاسم على ما أتذكر، بدأت التضاريس تشهر عن وجودها.

استفاق الجميع من غفوته، فقد بدأت السيارات تتلوى من الألم، في البدء كانت الأرض غير مستوية ومن ثم بدأت متعرجة، لنصعد تلالاً وننزل وديااً صغيرة، حتى كانت اللحظة الحاسمة، في صعود جبل يسمى (أبو سبع دورات). اعتاد سائقو الباصات الطرق المستوية، وهم في ذلك يحسنون تقدير المسافات للمناورة، لكن في الطرق الجبلية تخونهم التقديرات، فما أن بدأت السيارات العسكرية تتسلق ظهر الجبل لتتبعها الباصات الكبيرة بتؤدة كبيرة، حتى دار الباص الذي كنا في داخله الدورة الأولى ومن ثم الثانية، ولكن عند الدورة الثالثة اصطدمت مؤخرتا بالجبل وارتدت إلى الوراء، ولكن شجاعة مساعد السائق الذي كان يقف بالباب وسرعته في أن ينزل من الباب الأمامية جعلته يضع تحت العجلة ما يعيق رجوعها لتسقط في الوادي.

كانت أفئدة من يجلس الباص تكاد تخرج من صدورهم، وأصوات البعض تلتبس كأنها حشرجة الموت. طلب السائق من الجميع النزول، فتراكضوا بعد أن كانوا متشبثين بمقاعدهم والمقاعد التي أمامهم، رافعين أيديهم بالدعاء، نظرت إلى السائق وأنا أتجه صوب الباب، وجهه أصفر وكأن الموت زاره وعفا عنه فتوقف الدم في مجراه، عيناه جاحظتان مثل مشمشتين ناضجتين، يداه تصلبتا على مقود السيارة لتصطبغا بصبغة صفراء من كثرة الضغط. عندما لامست أقدامنا الأرض وتأكد لنا أننا أحياء على ظهر الجبل وموجودون، نظرت إلى قعر الجبل، كان وادياً سحيقاً، فيه بعض السيارات التي تهاوت وتبدو كأنها علب ثقاب، بينما جلس البعض الآخر يستنشق الهواء بكل ما وسعت رئتاه.

أعاد السائق السيارة إلى وضعها الطبيعي، وبعد أكثر من نصف ساعة جاءنا سائق كردي ينتمي إلى فصيل موالٍ للحكومة يسمى الفرسان ليستلم القيادة نيابة عنه، بعد أن رفض سائقنا إكمال الطريق بادعائه أن ملك الموت يتراءى له. وهكذا ركبنا من جديد وأتممنا الطريق الذي استوى ووصلنا إلى القاعدة التي يجب أن نكون جزءاً منها، وبدأ آمر القاعدة أبو سحر يوزعنا على الربايا، وهو يلبس نظارات غامقة لا تصلح إلا لمن كان بصيراً، عظام وجهه ناتئة كأنه خرج من مجاعة، من كلامه غير مؤمن بالجيش الشعبي ولكنه مدير مدرسة ولا مناص من أن يأتي في هذا القاطع لأنه على أبواب التقاعد، ويريد أن يخرج بحسن السيرة والسلوك.

جاء رجل طويل متذمرٌ من الربية التي نسّبوه إليها إلى آمر القاعدة قائلاً: إن ربيتي قرب رب العالمين، ولا أريد هذا المكان. صادف وجود آمر القاطع علي الجبوري بجسده الممشوق وشعره السرح وزيتونيّه الذي لا يفارقه، وترف مساعده بكرشه الذي يتقدمه حتى أنني أعجب كيف يمكنه أن يحلق عانته أو حتى يرى التفاصيل الأخرى، ومساعده الآخر الذي لا أتذكر اسمه، طلبا الصعود إلى الربية للتأكد من ادعائه.

تذمر آمر القاعدة القديم الذي يريد تسليم ذمته والعودة بالسيارات التي جاءت بنا. قرر آمر القاطع ومساعدوه والحماية مع آمر قاعدتنا أبي سحر التوجه إلى الجبل لتسلقه والوقوف على صحة ادعائه، لكن الرفيق ترف لم يقطع من المسافة إلا أمتاراً معدودات حتى عاد وهو يسحب النفس بصعوبة بالغة. أما آمر القاطع فإنه لم يقطع ربع الجبل، ليعود متقهقراً إلى القاعدة وخلفه آمر القاعدة والحماية، فانبرى آمرنا متصدياً له بشجاعة البدو أنه هو من يأخذ مكانه، فربت على كتفه آمر القاطع، ووسمه ببعض

الكلمات التي لا تضر ولا تنفع لمن كان به عقل، ولكنه تطيّر من كان ينشد البطولة الوهمية، وهكذا صعدنا إلى الربية.

سلكنا الطريق النيسمي المتكون جرّاء سير الجنود الذين سبقونا صعوداً ونزولاً، وكنت أنظر إلى الأعلى وأرى بعضهم ينتظروننا بفارغ الصبر. استمر صعودنا ربما لأكثر من نصف ساعة، لم أشعر بالإجهاد الكبير كوني شاباً لامست السادسة عشرة من عمري، لكن آمرنا كان يلهث مثل كلب مسعور يخرج لسانه أمتاراً أمامه، حتى إذا ما وصلنا إلى قمة الربية كان الجنود بانتظارنا. بعد راحة ليست بالطويلة، سلمونا ما بذمتهم، وأهم شيء كان هو البغل الخبير بأمور جلب الأرزاق صباحاً، والمياه من الينبوع أسفل الجبل عصراً. وفروا نازلين، حتى أن بعضهم ترك بعض أشيائه زاهداً بها لأنه لا يريد أن يحتفظ بأية ذكرى منها.

أول مرة أشعر أنني قريب من الغيوم، وأرى الشمس عن قرب كأنني ألامس بعض خيوط أشعتها. كانت ربيتنا على قمة أعلى جبل حولنا، فيما بعد كنت أنظر الطريق الذي تستوي نهايته وتلتقي مثل سكة قطار إلا أنه يؤدي إلى مدينة رانية وما بعدها هو العدو الافتراضي إيران. هذا ما علمته فيما بعد، ولم أتأكد من صحته، لأنني لم أذهب نحوها، وإنما أقصى مكان ذهبت إليه هو مدينة كويسنجق.

اقتادوني كأصغر فتى في قاطع الجيش الشعبي إلى جبال أربيل المتمردة، بقيت وفياً لحبي، لحبها، لذلك المشهد الذي لم يغادرني ما حييت، وأنا أقف على حافة الجبل بينما تنعس الشمس ذاهبة إلى مآبها الأخير، يسألني مسؤول الربية عن بكائي وأغاني عبد الحليم حافظ عن الموعود بالعذاب يا قلبي

وعمرك ما شفت فرحة، وظنه أنني أبكي أهلي وفراق دفء عائلتي، ولا يعلم أن حبها استوطن قلبي، لكنها لم تستطع العيش في مدينتي القديمة، غادرت حبي ولفظته مثل براز قطة، ودفنته بقوائمها الخلفية وكأنه وباء واجب طمره.

كان ماضياً جميلاً وكانت أياماً حزينة ظلت أطلالاً في الصور. أستعجل الليل ليس من أجل أن تستكين جراحي، وإنما لأوقظ أحلامي بعد أن يخفَّ الضجيج ويخفت الصخب. كانت من أسوأ المواقف التي وقعت فيها، أنني ذات مرة وقد حان دوري في جلب الأرزاق من القاعدة، وضعت الجلال على ظهر البغل، الذي كان دقيقاً في مواعيده، وصعدت على ظهره بعد أن وقف قرب صخرة كبيرة وعالية، وأخذ يتمطى ويتلوى في الطريق الصخري الذي اعتاده نزولاً، حتى أن قوائمه تضع حوافرها دون عناية أو تركيز، أمرُّ في طريقي على مزرعة لفلاح كردي، لا يعرف من اللغة العربية إلا كلمات بسيطة.

رجل جاوز الخمسين وربما الستين من عمره، شرواله بلون الأرض والجبل، وابتسامته نابعة من جوف مطمئن كأنه جوف الينبوع الذي ينضح ماءً بارداً عند العصر، طيب ومعطاء مثل غيم السماء، كريم وسخي مثل الشجرة المثمرة، ينتظر نزولنا لنعطيه الصمون العسكري الذي لا يؤكل، ليعطينا بدله ما نشتهي من الباذنجان والطماطم والشجر - الكوسة - والخاثر، ثم يكمل البغل طريقه، لكن البغل وعلى غير عادته انتفض وأخذ يرفس برفع قوائمه الخلفية إلى الأعلى ليسقطني، لكني طرت في الهواء مثل طائرة ورقية بيد طفل لا يحسن طيرانها، مندفعاً إلى الأمام وسقطت على كف يدي اليمنى لأصرخ بأعلى صوتي...

نهضت من مكاني وأنا أمسك يدي التي تفحصتها ولم أجد فيها أي خدش سوى راحة يدي اليمنى التي بدا وسطها منتفخاً قليلاً، بينما بقي البغل واقفاً في مكانه. جاء الفلاح الكردي الذي لم أكن قد ابتعدت عن مزرعته كثيراً، سألني بصعوبة عن وضعي، فأجبته أنني بصحة جيدة ولكني أتأوه قليلاً، ثم ذهب إلى البغل ليتفحصه، ووجد أن حبل الجلال الذي يدور حول بطن البغل وكذلك حول خلفيته لم يكن محكماً فصعد إلى دبره أثناء نزولنا ما أثار انزعاجه، وجعله يرفس الحبل أكثر من مرة حتى هويت من على ظهره.

عند الليل تورمت يدي وصعد الألم حتى بداية الكتف، كنت أتلوى ولم أستطع النوم. وعند الصباح نزل بي آمر الربية إلى القاعدة ليتصل بآمر القاطع ويقدم تقريراً بحالتي، لتنقلني سيارة إسعاف إلى مستشفى كركوك العسكري قسم العمليات الصغرى، فتحوا بطن كف يدي دون تخدير، وكنت أصرخ من الألم بأعلى صوتي، بينما سعى الممرضون إلى إمساكي بكل ما أوتوا من قوة، لأمنح على إثرها إجازة لمدة أسبوع.

لون البغل أبيض، حجم رأسه بحجم رأس الحمار وكذلك أذناه، عرفه جميل يتهدل على رقبته، شعر ظهره ناعم، لكن في ذيله خصلة شعر طويلة، يستخدمها لهش الذباب الذي يقف على جسمه، لم أسمع شحيحه يوماً، حجمه متوسط بين الحمار والفرس، لكنه قوي البنية، مطيع لم يحرن يوماً أو يمرض طيلة الشهور الأربعة التي قضيناها في الربية معلقين بين السماء والأرض، عند الليل يذهب إلى إسطبله المتهالك الذي هو عبارة عن سقف من صفائح الجينكو يقيه حر الصيف ومطر الشتاء، ينام واقفاً، وفي بعض الأحيان يجلس على الأرض، وفي أحيان يتمرغ في الأرض ليحك ظهره. لم

يستنكرنا أو يستغربنا، ربما اعتاد تبديل جنود الربية مع ثباته، وربما هو لا يستغرب الإنسان أبداً. كان من أهم وصايا آمر الربية السابقة هو البغل، فلولاه ما استطعنا جلب أغراضنا من القاعدة، وكذلك تنزيل العتاد في صناديقه الخشبية والعودة به مرة ثانية إلى الربية، هو ذمة عصية على المراوغة.

ربيتنا محاطة بحقل ألغام من الجهة الغربية، يعلم البغل أماكنها جيداً أو تعوَّد على سلك طريق خاص، لم يذهب يوماً نحوها، بل يعرف طريقه كما يعرف نفسه أنه كائن لا يكرر كونه لا يمتلك أعضاء تناسلية بسببها يحافظ على نوعه، ولم يكن ذلك يزعجه أو ينهق باتجاه أنثى أو يتراخى أمام ذكر.

تحيطنا على مدى البصر جبال وسهول مخضرّة ووديان عميقة، كانت الأرض والسماء عبارة عن معرض دائم من اللوحات التشكيلية اليومية المتغيرة وعلى ظهور التلال القريبة بعض الرعاة يرعون قطيع أغنامهم. كنت أستمتع كثيراً بمأمأة وثغاء أغنامهم بينما يهلهل جرس الرخل الذي يتقدم القطيع، يطوق القطيع كلبان بينما يركب الراعي بغلاً لونه مائل للسواد يصفُّ رجليه على الجانب الأيمن وفكره سارح في ملكوت الفضاء المفتوح.

لم تنقضِ الأشهر الأربعة بالهيّن، بل رافقها اغتراب وأشواق وكوابيس وأرق، فالمكان مملوء بالصراصير السوداء التي يبدأ ضجيج صخبها مع خيط الشمس الأخير، ومع انسلال الظلام وسكينة المكان غير متوائم تماماً مع أصواتها المقرفة. تعزف نشيد صرصرتها المقرف والذي يترك طنيناً يجعل من النوم صعب التحقق. بعض الأحيان ننسل خلسة إلى مدينة كويسنجق لنشتري بعض الأشياء ومنها الحناء التي تمتاز بأنها أصلية، والتي اشتريت منها بعض الأكياس البيضاء مرسوم عليها صورة لا أتذكرها.

كنا كلما تعتقنا في المكان نكتسب معلومات جديدة عن جنودنا وقاطع الجيش الشعبي الذي نحن جزء منه، فقد تبين أن الأكراد يعلمون من نكون ومن أية محافظة، فقد كان القاطع الذي يسبقنا في المكان قد دخل في آخر درجات الإنذار (إنذار ج) وقتل منهم بعض الجنود كونهم من محافظة ينتمي إليها رئيس الجمهورية، ولكن قاطعنا لم يقتل منه أي جندي، بل كنا نتمشى وسط المدينة دون خوف، ولم نكن نشعر بأية ريبة أو كراهية في عيون أصحاب المحلات والباعة المتجولين والجالسين في المقاهي والمارين.

عدنا أدراجنا إلى مدينتنا الغارقة في القدم، وعادت إلينا ذاكرتنا التي تعتقت كأننا فارقناها منذ سنين، وكانت السنة الدراسية قد فتحت أبوابها لتستقبل العام الجديد، وانتظمت في الدراسة بعد أن انشق أصدقائي إلى قسمين؛ منهم من فضل الذهاب إلى الفرع الأدبي لسهولة المواد الدراسية، ومنهم من له أمل في أن يحقق شيئاً لنفسه فاختار الفرع العلمي، وكنت أنا مع الخيار الثاني.

كانت إعدادية كربلاء محط أنظار رجال الحزب والأمن، لذلك يحضر بين الحين والآخر أحد المسؤولين مراسم رفعة العلم في يوم الخميس. كنت أسمع هسيس بعض الخائفين بالقول: أصبحنا جيلاً بلا فرص، بلا غيوم، بلا أغصان، عند كل صباح، تقتادنا الشوارع دون أحذية، دون دفاتر، يصطحبنا الخوف المحفوف بالأمل إلى مدارس بلا أبواب، وصفوف بلا رحلات.

ذات خميس وقد اخضرت ساحة المدرسة بالبنادق وخافقة العلم ترتجف، وقف كبيرهم بكرشه وشره وعلى عضده الأيسر تجندلت الأقلام

من وقوف، يخطب بنا الخطبة العصماء عن تضحيات الحزب والقائد من أجل العراق ومن أجلنا لنكون جنوداً أوفياء للحزب والثورة، لكنه لم يكن يعلم أنه ليست كل المسامير تقبل الحياة لتكون جزءاً من الخشب، بعضها يرفض الانصياع ويقاوم فينحني ظهره ولكن يظل واقفاً. كان ينهق مثل حمار وسط حقل مهجور، لم يكن يَدُور في خلده أن المهمة الرئيسة المناطة بالإنسان هو الحفاظ على حياته وصيانتها، دون أن يراعي للمفاهيم والقيم التي ينتجها أهمية تفوق وجوده. إذ أن من الغباء أن يموت الإنسان من أجل غيره مهما كان هذا الغير، وأن يعمل على إعادة قراءة وتأويل الأفكار بما يناسب بقاءه واستمراره لا نفيه أو محوه أو مسخه.

بينما السماء ملبدة بالغيوم، تحمل أحزان الفقراء، كان الدوام قد انتهى وهرعنا نحو الباب الخارجي لنتنفس الصعداء بعد الضغط النفسي من أول الخطبة حتى آخر الدرس، حتى بدأت بلفظ أنينها. الغيوم في كل شتاء تنزع ثوبها القديم، لتنثر مطراً على الجميع، تحاول ما استطاعت إليه سبيلاً غسل أدرانها مما علق بها من ذنوب الساسة ودعاء الفقراء، ترسم على خارطة العراق ضحكتها الباهتة، بينما تنتشر بيوت الفقراء دون تعفير، فتأكلها الأمطار والعواصف، تأكلها حرارة الشمس وبرد الشتاء، تأكلها وعود السياسيين، لم يستبدلوا حلمهم بغد أفضل، لأنهم لا يمتلكون غيره، فبقوا في غيهم يعمهون، بعضهم، انتفض جائعاً، وبعضهم استكان مريضاً، جراحهم دون أنين، يغطون في بئر الحرمان والعوز، ورغم أنَّ تهجدهم في محراب الدين كان دون أصوات، لم يتقبل منهم، ومن دون صلاة، كان الله يقبل دعاء السياسيين، بأن يبنوا برجاً جديداً في دبي واسطنبول.

مياه الأمطار عرت كل الفاسدين والمتاجرين باسم الدين، فقد سدت الشوارع والأسواق، وأغلقت الأزقة، وحولت أنفاق الجسور إلى مسابح تقدم خدماتها مجاناً، وتعطلت الطيور في أعشاشها، وهي تجثو على بيضها تبث دفء حرارتها فيه. مياه الأمطار أفرحت الأشجار الباسقة، وهي تغتسل من غبار الحزن، وأدران البرد، ومثلها كانت الأسماك وحدها ترقص جذلة.

استمر شنين الماء حتى عصر اليوم الثاني عندما خرج الطلبة الجامعيون، بجاكيتاتهم الزرق وقمصانهم البيض وبناطيلهم الرصاصية والسود، وحقائبهم الممتلئة بالأحلام، قاصدين منطقة المخيم حيث تتجمع الباصات الكبيرة لتقلهم إلى باب المعظم في بغداد، مظلاتهم أغلبها سوداء وبعضها ملون ومخطط، هم مشاريع المستقبل في الزواج والبناء والحياة، هم مشاريع أسر مؤجلة، بعضهم يسترق النظر إلى جميلة تقف وسط زميلاتها، وقد شعرت بنظراته تخترقها، وحاولت قدر الإمكان أن تبادله السرقة، بينما تأبط خطيب خطيبته أمام الجموع الذين يتراصُّون مثل الجزرات الوسطية على أمل أن يأتيهم من استأجروه سابقاً ليقلهم إلى حيث صروح العلم والتعليم.

صباح يوم السبت كان فوق العادة، العصافير تنفش ريشها، وتخض جسمها من بقايا كسل أجبرت عليه، وبقايا جوع تسرب إلى أفراخها، نهضت من أعشاشها مع خيط الضياء الأول، تبحث عن حبات متناثرة على بساط الأرض. بدأ عمال النظافة وآلياتهم يسحبون المياه الطافية بعد أن غطت الأرصفة وقطعت أنفاس البالوعات، وبدأ الرجال يتدفقون من عيون الأزقة وأفواه الشوارع إلى أرزاقهم، كانوا شرائح مختلفة، منهم موظفون وكادحون وأصحاب محال صغيرة وكبيرة وعمال، وتبعهم الصاغة وأصحاب البورصة والكماليات، حتى من يمتهن الاستجداء خرج مبكراً،

وعند رائحة أو مطعم لشواء الكباب وقف منتظراً أن يتعطف عليه أحدهم ببعض الطعام.

خرج التلاميذ، وبعض الفتيات الصغيرات، كن يتشاكسن مع بعضهن، وحجابهن الأبيض الذي يلف شعورهن يخرج من خلفه بعض الجدائل، بهيّات ممشوقات مثل جمل قصيرة في رواية كبيرة اسمها الحياة، جميلات كحبات عباد الشمس، قويات ناعمات مثل لوحة تشكيلية، عازفات على أوتار الحياة بأنغام العود. خرج الطلبة بملابسهم الأنيقة مثل ألوان الربيع، يمتطون الحقائب، وبعضهم يتأبط ما خف حمله ليربطه بآخر صرخة من الحقائب الذي هو عبارة عن حزام مطاط لاصق، دون قلم أو ممحاة أو مبراة، يسيرون دون هدى، فلا مستقبل واضح المعالم، لا قدوة حسنة وسط جو سياسي واقتصادي عاصف، الأغلب متجه نحو مستقبل مجهول.

لم يكن الشعب العراقي يمتلك ثقافة تتبع أحوال الطقس، وإنما كان يتنبأ ذلك من خلال تقلبات الجو وغضب السماء وحمل الغيوم، كان مثل أي بدوي يسعى جاهداً لقراءة الواقع الشتوي الملبد بالمخبوء من المفاجآت، لذلك كثيراً ما يتفاجأ أرباب العمل والكسبة من الباعة المتجولين والموظفين والمستطرقين والطلبة ومن له حاجة طارئة بالمطر، بعضهم يتأبط مظلته ويخرج إلى الشوارع بينما يطرق المطر بشنينه زجاج السيارات ويتراقص على إسفلت الشوارع قافزاً مثل جندب في عز نشوته.

هكذا انتهى الأمس، وذهب يوم غير متوقع من الأمطار الغزيرة، التي غلفت الحياة بالبلل والفيضان والطفح، وقد غسلت الشوارع والأزقة، غسلت الأرصفة من كل أدرانها، وبدأ عمال التنظيف دورتهم من جديد

برفع الأكياس السوداء التي تخمرت قرب أبواب البيوت، وكان على مقربة منهم، يعمل عمال المجاري بجد من أجل إنهاء آخر البرك الصغيرة من مياه متبقية برفع أبواب البالوعات، ودفعها نحوها.

في الأحياء العريقة، تلامس عتبات البيوت إسفلت الشوارع القديمة، عندما فاضت الشوارع بالمياه، اقتحمتها دون استئذان، بعد أن غطت بساط الحدائق الأخضر، حلت ضيفاً ثقيلاً على غرف الاستقبال والمطابخ، عندها غطت الأطقم والسجاجيد بعبثها، وطفقت بعض أشيائها تطوف مثل فلينة وسط بحر هائج. فكانت الأمطار كمثل قص الأظافر.

الأمهات بعد أن زففن أولادهن إلى المدارس، وودعن أزواجهن إلى أعمالهم، انسل بعضهن إلى الأسواق بعباءاتهن السود كأنها خيمة من الاشتياق والانتظار والحب، تحمل بيدها كيس التسوق، فقد ذهب زمن الزنبيل عندما كانت أمهاتنا من قبل تضعه على رأسها بتأنٍ تحته وهي تنوء بحمل ما تسوقته.

الحرب مستعرة والطرق السوداء، رسائل شؤم تودع أحياء لتعود بالأموات، والجوامع مزدحمة بالعزاء، والملابس الحزينة تكاد تكون سمة العوائل، وتجار القماش الأبيض للافتات البعثية والشعارات والمناسبات التي لا تنتهي في ازدهار، ومثلهم تجار الزجاج والإطارات الخشبية والمصورون وبائعو الأعشاب وكل ما تفرزه الحرب من موتى. أصبح أغلب الشباب يمتلك صورة ينتظر ركنها الأيمن أو الأيسر وشاحاً أسود ليغلق ملف الدنيا ويفتح ملف الآخرة، والأمهات في دعاء مستمر والآباء أيديهم على قلوبهم من أي مرسال أو طارئ، الخارج مفقود والعائد مولود،

ولحظة الانتظار ترهق الأعصاب، والتوتر هي سمة الشباب الذين ينتظرون دورهم في الموت.

مزَّقتُ تاريخي، وحرقتُ أفكاري، وصوري الفوتوغرافية بالأبيض والأسود، لازالت عالقة في مخيلتي، وبجامتي البيضاء بخطوطها السمراء العريضة، ساحة كرة القدم في مدرستي، وصحبتي، على دكة بيت الجيران، مع رفقتي، كنا ننظر إلى عدسة الكاميرا بلهفة، نضحك ولا نعلم إلى أين سيقودنا ضحكنا، إلى قلب فتاة لا تعرف الحب، أو إلى جبهات القتال لنعود دون تابوت يحفظ جثتنا من وحشة أرض الحرام. لأبدأ من جديد قصة يوم مجهول من المستقبل.

كنت أشعر أن بلدي مثل مقهى صغير بثلاث واجهات خشبية، قنفاتها عتيقة، حصرانها ممزقة، وبعضها مغطى بالأسلة المهلهلة بعد أن سحب بعضها الطارئون لنبش أسنانهم المسوسة من بقايا الخبز واللحم، وبعضهم يحك بالمسواك أسنانه الصفراء وكأنه ينظف سجادة قديمة متهرئة، قادمون، ذاهبون، غرباء، طارئون، آمنون، قلقون، تائهون، متسولون من كلا الجنسين، ومجانين ما بين مسالم وعنيف.

وأعود من جديد بهمة أكبر أنكب على دراستي في الخامس العلمي بالمستوى نفسه الذي أبحث فيه عن حبيبة، تتجاذبني الحياة مثل أي شاب تجذبه حرب الموت كأنه يسير على حافة واد غائر العمق، في مقابل حب الحياة الكبيرة الأمل، ومثل سواقي الأمطار، كنا ننتظر ضوء القمر ليضيء حلمنا الذي خفتت أذياله وسط ظلام دامس.

كانت أزقتنا ضيقة بما فيه الكفاية لنكتم هسيس أحاديثنا البريئة وبعض الخوص يتدلى من أعشاش العصافير التي بنت حوضها في عين المزراب

وفتحات الطابوق، وقد ملأته ضجيجاً، وعلى رف ناتئ هو عبارة عن صف من الطابوق يستند عليه شباك الغرفة المطلة على طول الزقاق يقف بيت الحمام، وهو يأمل بحياة آمنة، يختال بصدره الملون خلف أنثاه، وفي أعلى البيت الحاني عند نهايته استعمرت الفواخت أعشاشاً بلون ريشها. بينما جدران البيوت التي غادرها أهلها كئيبة حتى شخابيط الصبية شحبت.

وكان اللقاء، لقد تعرفت على فتاة لا تبعد كثيراً عن بيتنا، بهية رشيقة مثل جملة بليغة، جميلة حبيبة كحبات عباد الشمس، قوية ناعمة مثل لوحة تشكيلية، عازفة على أوتار الحرف، رنانة مثل أنغام العود. اسمها أشواق، ملأتني بشحنات من الحياة المتوهجة، رغم الخراب الذي يعم العراق، تجذبني نحوها حد التماهي لتبتعد عني حد الهجران.

أضحت كل الصباحات حباً، حتى التي نضيع فيها أسماءنا، حلم يوقظه الندى، لا يصحو إلا على القلوب الناصعة بالبياض، قبلة تطبع على وجنة القلب الذي ينبض بالعشق، عش لا يبنى ويكبر وينتج إلا بالحب، وهج يشع دون نار، نفخ في ناي ووتر عود، ورقرقة دمع، صوت موسيقى لا يفقه سرها إلا من فطم على لغتها، برق يقسم السماء إلى نصفين. عين قيثارة وروح معلقة بنياط قلبها.

كنا نسرق المواعيد من الزمن، نتوه في الأزقة الضيقة هرباً من عيون الأهل والأقرباء والأصدقاء وكل من يعرفنا، وفي بعض الأحيان نهرب نحو الجهة الشرقية من المدينة نتوه في الطرق الترابية قرب البزول والأنهار، وأصحاب العربات من الفلاحين يعبروننا بريبة، فلا يجتمع رجل وامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، لكننا عندما اجتمعنا كان ثالثنا الحب، حتى جاءت

لحظة الفراق وتشققت أرض حبنا، عندما فاتحتني بأمر الخطاب الذين يطرقون بابها، وبأنها لم تستطع مواجهة ضغط أبيها وأخوتها، فالخطيب الآن هو ابن خالها، بعد أن شعر أن غرباء طرقوا بابها. طلبت مني وعد أن أتقدم لخطبتها عند نهاية العام، لكني لم أستطع أن أقدم لها هذا الوعد، فأنا لم أتم بعد دراستي، وأبعد شيء عن تفكيري هو الزواج، فشباب العراق مشاريع موت مؤجلة ومنتظرة في طوابير الجبهات التي لا تغلق أبداً.

هكذا عدنا من حيث قدمنا بعد أن كنا نسير معاً، وخطا كل منا وحده حتى افترقنا إلى غير لقاء. ضاقت بي الدنيا رغم وسعها، أخذتني قدماي إلى حيث لا أدري فوجدت نفسي وسط المدينة وأمام حلاقة الاعتماد الشهيرة، يجلس صف من ماسحي الأحذية بصناديقهم الخشبية، معلق على جانبيها بعض الفرش وعلب التلميع والصبغ، يتوسط الصندوق قدم خشبي ليضع من يريد مسح وصبغ حذائه فوقه، وتتدلى من جراره قطعة قماش سوداء للتلميع النهائي.

كانوا خليطاً متجانسي المهنة مفترقي الأعمار، فيهم من تسرب من المدارس ولم يكن يتقن مهنة ومالَ إلى الربح السريع فامتهنها، وفيهم المعوق ولادياً أو نتيجة إفراز الحرب، يضع قربه عكازين أو طرفاً صناعياً ليكسب تعاطف البعض رغم أنه يحصل على راتب جيد، ومنهم من كان أبوه مفقوداً أو أسيراً في الحرب، ومنهم من هو كبير في السن وغفل أن يجعل من الحياة مشروعاً ناجحاً فجعلت منه وقوداً لاستمرارها، بعضهم يكتفي بالجلوس على مقعد بسيط دون مسند، وبعضهم يجلس على كرسي سيارة قديمة مخلع.

عبرت إلى الجهة الثانية من الشارع الرئيس وبالتحديد مقابل محلات باتا، حيث رأيت مثل هذا الصف من ماسحي الأحذية، وكان لكل واحد منهم

زبائنه الخاصون الذين يعتنون بصبغ حذائه جيداً، بعض الصناديق الخشبية مطرزة بمسامير ذات قبعات ملونة مرصوصة على حافات الصندوق، وبعضها في ركنه عرانيص خشبية، بعضها مصبوغ باللون الأسود وأخرى ملونة. تزدحم على صناديقهم الخشبية الأقدام يوم الخميس لأنه نهاية الأسبوع بالنسبة إلى دوام المدارس والدوائر الحكومية وبعض المهن الحرة، بالإضافة إلى نزول كثير من شباب أحياء المدينة والأقضية والنواحي مع توافد زوار المحافظات القريبة والبعيدة.

وجوههم شاحبة، وعلى بعضها بقع سوداء نتيجة مسحه لوجهه دون أن يعلم أن يديه ملوثتان بالصباغ الأسود، ملابسهم رثة، وأيديهم قذرة مائلة إلى السواد، فبعضهم يأخذ الصباغ من العلبة بإصبعه ويموهه على وجه الحذاء وخلفها، ليمسك فرشاة الصباغ ومن ثم التلميع بيده ويبدأ يمسح الحذاء ذهاباً وإياباً، ومثلها التلميع النهائي بقطعة القماش السوداء.

اسودت الدنيا في عيني، بعد أن اتحد مشهد الفراق مع هذا المشهد الموجع لبعض الصبية والشباب من الذين امتهنوا مثل هذه المهنة التي ينظر إليها المجتمع نظرة احتقار ودونية بل وانتقاص من الذي يمتهنها. لم يكن هناك بديل عن هذا الواقع المفارق لكل أحلامي سوى أن أتوجه إلى الكتب والروايات، وكنت من قبل أطلع على بعض الروايات التي كان يقرؤها أخي الأكبر، فأسترق القراءة في ألف ليلة وليلة والصخب والعنف التي لم أفهم منها شيئاً، حتى قررت ذات يوم أن أقصد إحدى مكتبات المدينة لأتصفح المجموعة الكاملة لجبران خليل جبران، فراقت لي كثيراً واشتريتها، ورحت كل مساء أقرأ فيها بعض أحلام الأنبياء وزقزقة العصافير، وتبرعم أغصان الأشجار لتنطق بأشجى الألحان.

طفقت أبحث عن الأب الأنموذجي، الأب الحلم، الذي لطالما راودني بطلعته الباسمة، وأسلوبه الحنين بعيداً عن الزمجرة والغلظة في القول والضرب بالفعل، ذلك الأب الذي يرتدي بذلته الصباحية بعد حلق ذقنه على أنغام فيروز، ليجلس على مائدة الطعام ويمسك الشوكة والسكين، يقطع البيض المسلوق ويشرب فنجان القهوة وهو يطالع صحف اليوم التي تتوسم صفحاتها الأولى مشاريع الاستثمار وافتتاح المصانع الوطنية، دون أن تكون من على الجهة اليمنى صورة لأحدهم وهو يرتدي البزة العسكرية.

أبحث عن الأم الجميلة في ثنايا المجموعة الكاملة، وهي ترتدي التنورة السوداء والقميص النيلي، مع حقيبة تواكب الموديل والموضة، تلبس الكعب الذي لم يتجاوز عمره الشهرين، وتضع (الميك أب) الخفيف على وجنتيها بشعرها السارح لتعلن عن أنوثتها الجميلة، وصيانتها لنفسها من كل الذين يرتدون بزة الله رافعين آيات الكتب المقدسة بوجهها.

أحلم بأخت تمارس الحلم الجميل بوصولها إلى مراتب العلم الأولى، بعيداً عن خيبة الزواج وحلم الرجل البائس الذي ينقذها من ظلم الأب الذي يشعر بداخله بعد كل ولادة جديدة تحمل عنوان الأنثى شعوره بالسيطرة على حريم الدار، وكلما أتاه نبأ الولادة بطفلٍ ذكر، شعر بأن سيادته قد ثلمت. أحلم بأخت ضاحكة للحياة مثل كل فراشات الربيع، وقدّاح الأشجار، مثل إشراق الصباحات الشتائية بفيض شمسها الدافئ، وعندما يحين قطف أنوثتها، نشعر أن الأصل قد أفرع بيتاً جميلاً، وأن في بلدنا اليوم أصبح لنا بيتان.

كان الناس في كل مساء يزرعون حلماً بغدٍ خالٍ من الموت تجف فيه منابع الحرب، ويتأملون كثيراً بغدٍ يعلو فيه صوت الفرح، يسمعون الأخبار

الدولية البعيدة عن الوساطات من أجل إيقاف الحرب، وعند الصباح يفسد الحلم، ليعود البؤس والتشاؤم إلى وضعه الطبيعي في نفوس الناس، لا غدَ مشرقاً، لا أمل بوقوف الحرب، وجنازير الموت باستمرار مقنطرة من جبهات القتال إلى المدن الخائفة إلى نبضات القلوب المرتجفة من أي طارئ متوقع، لا أحد يزكي نفسه من الخوف.

وأعود من جديد لأحلم مع أصدقائي، ففي الأمس القريب كانت أحلامي هي من تسيّر واقعي، ولكن تغير الوضع الآن، وأصبح واقعي هو من يسيّر أحلامي لتعزف أنغاماً سريالية، فقد كنا ثلة من الأصدقاء نجلس في مقهى المنطقة ونحكي الحكايات ويسأل بعضنا البعض عن أحلامه، عن قادم العمر.

كانت أحلامنا قوية صادمة نابعة من قوة عضلات أجسادنا. حلم بعضنا أنه لو تسنّم منصب رئيس الجمهورية سيجعل الخمر يجري في مواسير خاصة بالتوازي مع مواسير الماء الصالح للشرب، وعندها سيمتحن إيمان من يدعي خلاف ما يظهر، وأن يقنن بيوت الدعارة، ويخرج للعاهرات هويات رسمية كما سمع من أخيه الذي زار اليونان من قبل، وأيده في ذلك أحد الجالسين الذي كان يسمع من أخيه الأكبر الذي يعمل شرطياً عن كوارث الزنى في الأسرة الواحدة.

حلم آخر بأن يطلق العنان لشعائر الله ليمتحن تقوى القلوب بالتزامن مع فتح الملاهي والبارات والمخازن، ويجعل الناس أحراراً في اختيار طريقهم على أمل ألا يخرق القانون وإلا سيتعرض للمساءلة. حلم آخر بأن يكون القبول في الكليات حسب رغبة الطالب وبغض النظر عن المعدل

الذي ينجح به من السادس الإعدادي، وإن رسب في السنة الأولى من الكلية فإنه ينقل إلى كلية أدنى.

بينما حلم أحدنا بصوت عال أن يمتلك أطياناً وعمارات ليتخلص من ذل التوسل عند كل صباح وهو يرش الماء أمام عتبة باب رزقه لينتظر المجهول من أجل رزق شحيح أو وفير. حلم آخر أن يحظى بحبيبته ويتزوجها وتلك هي غاية المنى ولا يريد بعد ذلك من الأحلام أن تطوف على ليله.

كان الوحيد الذي لا يحلم ويتمنى أن تحقق له أمنية أو يؤسس له وطن هو أكرم، شاب متدين يقرأ كتباً دينية بالخفاء ولكنه يخاف أن يطيل لحيته رغم عدم اكتمالها، حلمه مفقود بسبب تعلقه بالأمل الموعود، بدولة العدل، وتأرجحه باتخاذ القرار، فكل الأمور مناطة بالله، الخير والشر من الله ويستشهد بالآية الكريمة (فَالْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)، ولكن عندما يناقشه أي منا عن عدم شرعية تجريم المجرم حسب هذه الآية يطرق برأسه دون جواب.

هكذا درنا في تلك الأحلام، ولكن لم يدر في خلد أيٍّ منا أن يهجر العراق، أو يحلم أيٌّ منا بموت والده كي يرث أمواله وبيته وسيارته، كانت أحلامنا أحلام قس قريب إلى الله يطمح أن يدخل الجنة دون عناء أو عمل.

عندما انتهت السنة الدراسية، كان لزاماً علينا أن نتوه في زحمة الحياة، نعمل ما تيسَّر لنا من الأعمال في الأسواق والمحلات والمعامل والمصانع، من أجل الحصول على بعض المال، ليضمن استمرارنا في السنة الدراسية المقبلة، لكن هذا الكلام لا ينطبق على الجميع، فبعضهم غير ملزم بذلك، إذ تولى

والداه أمر معيشته في الدراسة كما توليا أمر راحته في العطلة، وظيفة هؤلاء هو شراء الصحف والمجلات العربية وبالخصوص (كل العرب، الصياد)، وعند العصر يلعبون لعبة الشطرنج أو كرة السلة أو كرة المنضدة بعد أن وجدوا خزان ماء نخر الصدأ جانبه فقررت المدرسة التي تتوسط بيوتنا الاستغناء عنه، فقلبوه وأصبح جانبه السليم صالحاً للعب، بعد أن اشترينا شبكة ومضارب وكرة بيضاء مختومة بختم أحمر دائري.

كنت أشم عطر الحياة في كل زقاق وعند كل سيارة مسرعة، وأحلم عند كل ظهيرة وحتى بعد العصر بأني أحيا يوماً جديداً بكل غضبه وتمثلاته، أعزف مثل عصفور يبني عشه أو صبيّ يبني بيتاً من الرمل على حافة الخطر، ليعود ويهدمه من جديد ليشدَّ رباط حذائه في صباح كل يوم عازماً الذهاب إلى المدرسة. فليست الخطيئة أن تضعف أمام شهواتك، بل الخطيئة كل الخطيئة ألا تمارس انفعالاتك، الخطيئة أن تحيا من أجل غيرك.

كل الأديان تنص على أن الله خلق الحياة الدنيا من أجل الإنسان، ومن السخف أن يؤول سدنة المعابد بغير ذلك، ليقول أحدهم إنها خلقت من أجل أن يُعبدَ اللهُ، لأنه غني لا يحتاج إلى عبادة العبد. ومع ذلك كنت أرى فوق كل منارة هلالاً تحركه الرياح وعند كل هبوب يدور حول نفسه، يصر الفقير على تضرعه في محراب جامع بناه رجل بكرش كبير، وعندما يتم دعاءه يعطيه ذو الكرش سبحة ليديم تسبيحه وورقة فيها أسماء الله الحسنى أشّر تحت كلمة الغني بخطين أحمرين ولم يخطر ببال الفقير أنه لم يكن يوماً من أسماء الله الحسنى.

كنت أرى الدين مطواعاً بيد زبانية الحكومة، ومنبراً يصدح بمديح القائد وعرفانه بالفضائل التي لا تعد ولا تحصى. كانت صلاة الجماعة أقرب إلى

اجتماع حزبي مشوب بالحذر والخوف والتقارير الظنية، يتقدم الجموع من هو أكثرهم دناءة وخسة وأكثرهم ولاءً للقائد والحزب، ويتأخرهم الأدنى فالأدنى من المتحذلقين والمتملقين والمتصنعين والرذيلين والوضيعين، أعلم أن الأرض المالحة ينمو فيها القصب ونبات القرفة والطرطيع.

ولذلك كنت أتمنى لو يرجع الدين إلى حوانيته، ويخرج الفن إلى الشوارع والساحات. كنا نحتاج إلى رجال غير مقدسين، إلى متاحف، إلى أسواق لا تبيع قطع القماش الأخضر والسبحات التي لا تحترم الزمن، إلى أقلام وممحاة تمحو من ماضينا تأريخ الظلم لنكتب من جديد: أن تزرع وردة خير من أن تنزع رؤوس المختلفين، وأن يصدح معلم خير من الصياح اليومي على رؤوس الأشهاد، وأن تورق شجرة خير من لجان الأمر بالمعروف والنهي عن الحريات، لنعلنها صراحة أن الحجاب والنقاب ينتج في كل يوم تطرفاً بين ظهرانينا، وأن الغزوات والفتوحات فعل ماضٍ لم يقدم للجملة الفعلية أية خدمة، وأن بنات (أنيت) أفضل بكثير من كل فاعل يأتي بعد أفعال الماضي كلها.

ذات مرة في مجلس إحياء الليالي البيضاء، وبعد أن خلا المجلس إلا من أهله، سألني رجل دين يضع على رأسه غطرة بيضاء وهو يقبض لحيته بيده دون أن ينظر نحوي وكأنه اعتاد مثل هذه العادة أو ربما أراد الإيحاء لي من خلال حركته أن كثافة لحيته دليل علم ومعرفة وتراكم سنين، عن رأيي بالحكومة، وكان قد ميزني من بين الحضور وأنا أركز في حديثه بينما الآخرون منغمسون في حزنهم! فقلت له وأنا أنظر في وجهه بينما هو يداعب سبحته السوداء:

- يجب أن تكون الأنظمة السياسية حكماً لا طرفاً، وهي قائمة على أساس إعطاء الحرية لجميع أفرادها، ولكنها للأسف متحالفة مع رجال الدين، وبذلك هي لا تعطي الحرية للناس ليناقشوا في موضوع الأديان التوحيدية أو الوضعية، بل هي تأخذ من الدين ذريعة وعباءة تخفي تحتها كل أفعالها وما آل إليه الناس والوطن.

ارتبك الشيخ ولم يكن يتصور مثل هذا الجواب الذي أَعدَّه إدانة له ولكل رجل، وفي الوقت نفسه شعر أن فيه جرأة قد تؤدي به إلى التهلكة، وفضل النهوض دون أن ينبس ببنت شفة.

كنت واعياً جداً بأن رجال الدين في كل زمان ومكان، يعدون أنفسهم خواصًا بينما الآخرون هم عوام، لا يجوز الاختلاط بهم، هم صفوة المجتمع وممثلو رسل وأنبياء الله في الأرض، يعتزون بملبسهم المستورد من عمق التاريخ، ولغتهم التي تحتاج إلى قاموس لفك شفراتها، تلك اللغة التي ظلت عصيَّة على التطور حتى تجلدت لأنها رهينة الدين، كما يعتقد رجال الدين أنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة، حقيقة الخلق والكون، حقيقة الحياة والموت، ولم يخطر ببالهم أنهم يمتلكون أسرار اللغة القاموسية التي تحتاج إلى تأويل وشرح أكثر من كيانها، وأن اللغة السائلة هي وحدها من تستطيع مواكبة الفكر والواقع، وهي لا تمتلك الحقيقة المطلقة التي تنحصر في النصوص اللغوية العادية أو المقدسة،

لذلك كنت أعتقد أن اصطفاف المثقف مع رجل الدين بكل تدرجاته، خيانة كبيرة للحقيقة الحياتية، مهما كان سليط اللسان، ويمتلك أنكر الأصوات وأكبر الذرائع. لأن رجل الدين ليس حيادياً أو موضوعياً في

نظرته إلى الوطن أو الحياة. كما شعرت أن اللغة العربية مثل المنفى الاختياري الذي يجب أن أكون فيه، لأتعلم الدروس الأخرى الأقرب إلى عقلي مثل الحساب والجغرافية والتاريخ والعلوم والفكر.

كنت عندما أعود من العمل مرهقاً وعندما يجن الليل، وتهدأ الأصوات، يداعبني الحلم مثل مرآة جلية، يدور كل منا في فلك الآخر، أتفكر فيه كثيراً وأتحسسه كأنه كيان مستقل عني، يسألني عن ولادته القصية، ويضحك من سؤاله وظنه أنني لا أعرف الإجابة، أنقلب إلى الجهة اليسرى، وأجيبه كأنني أحدث نفسي: في الزاوية القصية من العالم كان الحلم سابحاً يبحث عن أيٍّ مخبأ يلوذ به حتى وجد عقل الإنسان، والذي بدأت تتمثله هلوساتٍ وإشاراتٍ وأصوات ثم نقوش على الحيطان بعد فجوة غائرة في ذاكرة التاريخ حول الحلم إلى كلمات بالتزامن مع الرسومات التي بدأ يخطها على الورق فكان الشعر والرسم، كان الحلم صوراً ندية خضراء تحمل بذور الانتقال وغيماً ماطراً على مروج الحقول، وفي كل مرة حاول الإنسان أن يزرعه كلمة وصورة على لوحة، لكنه ينزلق من بين يديه ليعود إلى تلافيف عقله، حاول أن يرسمه صوراً من الكلمات في ذهن المستمع من خلال الإذاعة، وكانت الصورة في كل مرة تذوب مثل قطعة سكر في نهر جارٍ، حتى إذا تحول الحلم إلى صورة سينمائية مفارقة للواقع وموازية للحلم.

وقف الإنسان كثيراً أمامها مثل علامة استفهام يتفكر في حلمه المغادر للواقع الذي يحاول الالتصاق به بنفس القدر الذي يحاول مفارقته، لكنه سرعان ما غادر القاعات المغلقة والمظلمة إلى أنوار البيوت وغرف المعيشة ليكون سيلاً متدفقاً من الخيال والأحلام المستمرة التي لا تتوقف. لم يتوصل الإنسان إلى السر الذي ظل تواقاً إلى سبر أغواره من أجل مغادرة واقعه، ولم

يدرِ أن الحلم هو من يدفع به إلى هذا النزاع الداخلي بينه وبين الحلم الذي يريد تمثله، وما أن يستوي حتى يغادره ليعود ويحاول تجسيده من جديد، وكان مثلهما مثل الليل والنهار في تعاقب مستمر.

لكن الحلم انكمش على نفسه حتى بدا مثل قط خائف في ركن غرفة مظلمة، بعد أن شعر أنه مكشوف أمامي، وعاد بالسؤال: هل تعتقد أنه سيأتي اليوم الذي سأنقرض فيه وأتحول إلى شيء من التراث أو الذاكرة، وربما إلى تعويذة تمنعني الولوج إلى عقول الحالمين والطامحين والراغبين في الحياة الرغيدة والمستقبل الزاهر؟ ضحكت كثيراً في الوقت الذي تفاجأت فيه مما اعتراه من خوف، ولكنني طمأنته أنه سيبقى ملازماً للإنسان ما زال فيه قلب ينبض، مثله مثل الدين والحب. لكن بقايا الخوف رسبت في داخله وعاد ليقول: أتعلم أنني بالإنسان أحيا وبموته أموت؟ أطبقت جفوني وأضحت الكلمات متعسرة في فمي تتعثر الخروج، ومع ذلك قلت له: ليس أنت فقط بل كل الأشياء الروحية والحدسية والمعنوية تحيا بحياة الإنسان وتموت بموته. وغرقت في نوم عميق لم أشعر بشيء بعده حتى صباح اليوم التالي.

انقضت العطلة الصيفية وشوق الانتظام في الصفوف الدراسية، يشابه شوق الأشجار للربيع، لكن هذا الشعور لا يخالج كل أصدقائي ومعارفي، فبعضهم يشعر أن السنة الدراسية تقرر النهايات، وهم لا يحبون ذلك، فبدأ الضجر جلياً على وجهوهم، بل إن بعضهم قرر أن تكون محطة السادس الإعدادي رحلة استكشافية للمواد العلمية، وليست المحطة الأخيرة لقطار المغادرة إلى العالم الآخر في الجامعات، فالجميع يائس من أن تكون للحرب نهاية، ولذلك هو لا يستعجل الموت في جبهات القتال.

ظل السادس الإعدادي حلماً قاسياً مثل سدٍّ عالٍ يحبس المياه المتدفقة ويترك جزءاً يسيراً منها يتدفق، فجميع الطلبة يحبسون أنفاسها وهم ينظرون إلى أعلى سطح مياه سابحة على أمل أن يتم ما حبسته من الأوكسجين حتى الهواء الطلق والسماء الفسيحة، ولكن في الوقت نفسه كنت أرى الخوف والخذلان في وجوه الجنود وهم يتزينون بالملابس العسكرية، بعضهم ملتحق بجبهات القتال وبعضهم مودعٌ ليرجع إليها بعد انتهاء إجازته الدورية.

كانوا ركاماً من الهزائم النفسية والمعنوية، أما الآباء والأمهات فيسيرون دون رشدهم وقلوبهم ليست في قفصها تذهب مع أبنائهم الذين يذودون عن حياض الثورة والقائد والحزب، كانوا خليطاً مبعثراً من رغبات الحياة والموت والهرب، يعانون من مرض شذوذ الحياة التي ترفض إنهاء معاناتهم بالموت أو الاستمرار، بينما يستمر القائد الضرورة حتى بعد أن يسدل الستار على يومه القميء ويظل واقفاً على مسرح أحلامنا.

كنت قد سمعت قاعدة تقول: لا يمكنك تعلم السباحة نظرياً، ولا بد أن تدخل النهر. لذلك قررت خوض مرحلة السادس الإعدادي برحلة استكشافية، لمعرفة مكنونات الدروس، كوني أرى طلبة السادس ممتحنين في حياتهم ومستقبلهم، فهم مجذوبو العقل واللب، يحفهم الخوف والخطر عند كل صباح يقصدون مدارسهم، وعند العصر يتخطفهم الوقت، وفي الليل يسهرون على مصابيح الأعمدة الكهربائية في الشوارع العامة.

كانت الحرب والحب والعَلَم والعِلْمُ وكثير من شرائع الحياة تسير معاً مثل قطيع حيوانات غير متجانسة، والسهوب معطرة بمروج الحقول وخطر

الخطوط الحمراء في كل زاوية من زوايا الحياة البرية والمدنية، لا أسوار يعبرها المحاصرون، لا خنادق يدخلها المغامرون، الأرض منبسطة والجلاد بسوطه الطويل يصيد حتى الأحلام المحلقة في الهواء، لا تقرؤوا، لا تكتبوا، لا ترسموا غير مدافع الحرب، لا تبكوا لا تفرحوا غير أعراس الحرب، الحرب؟ أية ترنيمة هذه التي عزفها مبشرو الأرض، الدم وما غير الدم من غاية.

انقضت السنة الأولى من دون أن يكون لي حق المشاركة في خوض امتحانات آخر السنة، وانغمست من جديد في رحلة عمل غير مكرورة من أجل أن أجمع أكبر قدر من المال، من دون أن يكون لنوع العمل أية أهمية، بينما الآخرون يبذلون جهدهم للحفاظ على حياتهم من الموت الذي يقف عند أبواب أحلامهم وواقعهم، وقناطير القتلى مقنطرة، والحزن أسراب سوداء من الأمهات نحو المقابر والأولياء الصالحين، وبعضهم فقدن رشدهن فتهن في المصحات العقلية والشوارع القذرة، بينما فضل بعضهن العزوف عن الحياة واللحاق بأولادهن.

هكذا كانت سيمفونية الحزن تكتب نوتتها، وعند الغروب يعزف الناي قصة حزن عباد الشمس، الحزن هو أننا لا نستطيع أن نحقق رغباتنا أو نتغلب على خوفنا، ولذلك كان السعي لبلوغ الأعماق القصية للأرواح الحائرة محض خيال وهذيانات متصوف ولهان، من دون أن تنفع معها تكهنات الكهنة، وسحر السحرة، وتنبؤات المتنبئين، والشعب مطوق من كل الجهات مثل مقيد القدمين والكفين يئن وينوح ولا من مستجيب لشهقته.

تأبطت حلمي مثل فراشة بريئة أو عصفور غض الجناحين، ورحت أتكئ على حيائي باتجاه قبلة الصباح ومشرقها، باتجاه سكرة الموت لتبعث

الحياة من جديد في طموحات حائرة وأحلام بليدة تطوقها أسلاك الخوف وزمجرة الدبابات. حَلَقْتُ ذقني المعطوب بالأمل، وفركت وجهي آلاف المرات برغوة الصابون حتى يبتسم قليلاً من سمار الشمس الذي زرعته في وجهي، وقررت خوض غمار أعباء السنة الثانية والأخيرة من المرحلة الدراسية.

عندما يحلُّ شهر أيلول من كل عام دراسي محملاً بالمطر، تحزن الأمهات وتنتكس البيوت بسمتها، كونه نذير شؤم للبلاد، كل الأمطار في المدن من دون فائدة، فلا الأنهار تحتضنها ولا البساتين، الدوائر الحكومية مغلقة مثل أقفال بلا مفاتيح، وحدها الأسماك ترقص جذلة. في المدن الكبيرة تزدحم الكلاب والقطط واللصوص ورجال الأمن، الشيء الوحيد المفقود هو الأمن، تكبر النفايات وعمارات اللصوص، والمآذن تصرخ باسم الله وتكبر. في البساتين تفرح الأرض عندما تحمل الأشجار ثمارها ولكن من دون راع يرعاها. وفي الأزقة عندما تكعب نهود البنات، تضيق البيوت وتصغر الشوارع. تمر الطيور لتزيد الحقول بهجة وتمر السيارات والدراجات النارية لتزيد الفضاء ضجيجاً. يختبئ الشتاء خلف الجدران الصماء متوثباً.

انغمست في الدراسة لا ألوذ بشيء سوى إنقاذ نفسي، وبقايا أمل يلوح في الأفق، فقد سيق أغلب من تخرج من الإعدادية لأداء خدمة العلم والالتحاق بأقرانهم الجنود إلى جبهات القتال، والحجة في ذلك أن معدلاتهم واطئة لا تؤهلهم للولوج إلى الكليات أو المعاهد، وكان هذا تثبيطاً لمعنويات الطلبة في نفس الوقت الذي يجعلهم يتحفزون أكثر للحفاظ على حياتهم. للحرب لوعة لا يعرفها إلا من عاشها أو عاش على ضفافها، لكني لم أسال

نفسي يوماً وربما سألتها وتوهمت أنني لم أسألها، هل الأحلام التي ترافقني نابعة من الواقع وبديل جيد لها؟ أو أن الأحلام هي من كنت أعيشها بعيداً عن هذا الواقع المرير وتوهمتها واقعاً؟

ذات مساء تمكن الأرق مني، فغضب حلمي، وسألني النوم، ضحكت رغم أرقي وسألته السبب، فقال أريد أن تحتضني وتنام لأنني أشعر بالبرد فدفّئْني. وقعت في حب فتاة جمعتني معها هموم الدراسة والأمل الذي يلوح من بعيد.

كان ساعي البريد مثل طير بريء لم يألف باب بيتنا، أو نافذة شبابيكها كما هي لم تمر يوماً بفؤادها عندما وضعت أمّها نواظم تمنعها سقي حدائقي العطشى، بعد أن رأتني يوماً وأنا أمشي خلفها لأغتنم الفرصة لمصارحتها بحبي، أوقفتني وأنّبتني رغم إنكاري لادعائها. فرحت كثيراً عندما توقفتْ وانتبهتْ لأمها وهي تحدثني بغضب، حتى اغتنمت الفرصة مرة أخرى للقائها، لكنها وبكل حياء طلبت أن نؤجل حبنا إلى أن نجتاز المرحلة الفاصلة في حياتنا.

ما زلت أتذكر هذا اللقاء ووعدها الأخضر مثل رجل الدين الذي منح مفتاح الجنة لفقير دون أن يعرف هو إن كان خلف الجدار البعيد جنة أو وعد أو صحراء، دون أن يعرف إن كان خلف الجدار البعيد أمل أو ابتسامة أو عنوان.

أصبحت متبتلاً بحبها، أذوب في هواها مثل سكر في ماء أذوب وأذوب، بينما حبيبتي مثل إوزة بيضاء وسط بحيرة غافية حولها الأشجار المتدلية بأغصانها على أطرافها. هكذا كان حلمي مثل ملابس مبللة على حبل

الغسيل ترتجف أمام شمس الشتاء الباردة، لا تورق الأغصان معها، وتتراقص عندما تلعب بها رياح الربيع لتورق آمالاً كبيرة، ولكنها تغطي ساقيها عند هبوب عاصف يحاول اقتلاعها فترتجف وترتجف وهي تمسك برجليها، ولكنها تتراقص باسمة في نيسان.

كنت أعيش الحب والخوف والحرب والحلم في آن واحد، كل التناقضات تجتمع فيّ رغماً عني، لا أستطيع مغادرة أيٍّ منها وأنا أسير في ركب السنة الدراسية الفاصلة المحفوفة بالارتباك، وكنت أسمع من أخوتي الكبار الذين التحقوا بالحرب كوقود أنه لا نجاة منها، وأن الموت آجلاً أو عاجلاً سيلقاهم.

على أية حال كان الهم والفرح يصارعاني دون أن يتغلب أحدهما على الآخر. وقعقعة الحرب تسير وسط براكين النفوس الخائفة، ولا طوق أو طوافة نجاة للصارخين والخائفين والمتعبين سوى جدران جرداء ترد صداهم. منهم من كبله الخوف بمقاصل الإعدامات المنتشرة في الخطوط الخلفية للهجومات المستمرة والمحاكم، ومنهم من كبلته زوجته بأطفال وحنين لفراش دافئ، ومنهم من كبلته خطوبة مؤجلة وقلب لائج وحب ينتظر، ومنهم من ضاع أمله في مستقبل واعد فتحول إلى خشبة يابسة ينتظر إيقاد النار فيها.

قررت أن أترجل من على صهوة جواد الخوف الجامح إلى ضفة الأمان، دون الالتفات إلى الوراء، لأتدبر الحياة وأترك جموح الخوف الذي يعتريني، وخضت غمار الامتحانات كأنها ساحة حرب، لا مجال فيها للتراجع، النجاح أو الالتحاق بجبهات القتال الدموية.

لم تكن الامتحانات هي المخاض الأخير، بل كانت كل محطة في سِفر الحياة هي محطة اختبار وترقب، فقد عشت خوف أيام إعلان النتائج، حتى إذا ما أعلنت، دخلت دوامة أعاصير جديدة من الحسابات التي لا تنتهي، وهي ملء انسيابية القبول في الجامعات والمعاهد. وبدأت لحظات العد النهائي للوصول إلى خط نهاية البداية الأولى، لتبدأ خطوات بداية النهاية الأخيرة، وهي القبول في الكلية أو المعهد. ولما كان حلم أغلب طلبة المحافظات أن تكون بغداد هي بيت المرسى، فقد كانت الاختيارات كلها جامعة بغداد والمستنصرية ومعاهدهما.

أتذكر جيداً اليوم الأول من أحلام الشباب، عندما كنت أرتكن قنفة بيضاء تحت نخلة محملة بهموم العراق وهي تقول كلوا من ثمراتي ما طاب لكم، وقربي شجرة رمان قطف ثمرها بعض محتسي العرق المسيح بالأمل، ومساحة صغيرة خضراء وكبيرة وسبخة مغطاة بملح الحزن، وأمامي علبة سجائر واستكانة شاي ودورق ماء مملوءة بالحياة.

كان ذلك من عصر مليء بالرطوبة والحر من شهر آب عندما كان يجلس في الجهة المقابلة مني أحد أبناء المنطقة، وطلب مني صبي المقهى الذي يجمع الفارغ من الاستكانات والدوارق وقناني البيبسي والسفن آب الذي كنت أحبه بشكل مختلف عن كل الماركات العالمية، أن أذهب إلى عمار المعوق، أو هكذا كان يتداول اسمه بين الأصدقاء، فهو معوق حرب تفوق نسبة عوقه الستين بالمائة بعد أن ملأت جسده شظايا الحرب في غفلة من الله لتقيد حركته، وتجاعيد الوجع تملأ سماء وجهه.

وقف مرحباً بقدومي، وطلب لي استكانة شاي رغماً عني. أوقدت النار المختبئة في رأس سيجارتي الحزينة على صلب أخي في غفلة من الزمن،

وصمتُّ بانتظار أن يفصح عن سر طلبه. قال بعد أن عدّل من جلسته واتّكأ على المائدة أمامه: سمعت أنك حائر في ملء استمارة القبول المركزي، فأجبته بنعم، استمر وقال: املأ الاختيارات التي تذهب بك إلى جامعات بغداد وضع أولها الكليات الإنسانية مثل كلية الآداب كضوء في آخر النفق، لأني كما عهدتك تحب قراءة الأدب بمختلف أجناسه، وأنت بسحنتك السمراء تنفع أن تكون ممثلاً على خشبة الحياة أو مهرجاً في سيرك أو تمثالاً ممهوراً بالحزن على ناصية العبث أو لحناً حزيناً معتقاً في قيثارة سومرية.

كان أغلب طلبة السادس العلمي والأدبي يمشون دون وعي، يعيشون دوامة الأمل الضعيف الذي يتعلّقون به درءًا للمخاطر التي تنتظرهم على جبهات القتال، إذ من الصعب على الشاب أن يقضي أغلب حياته وهو في مقتبلها بين اختيارات إجبارية، أحلاها علقم. هكذا مرت أشهر الصيف بحرها وسقمها، وعند كل مساء نجتر الاختيارات المرهونة بيد العبث أو القدر لا نعرف، المهم أن مستقبلنا بيد غيرنا.

V

أول الحلم واغتيال الروح

انتفض رجل خمسيني كان يتقدم العائلة التي أرقبها بشوق وكأنها تجسد تاريخي بمختلف مراحله، رافضاً ركوب الباص، وكأنه يعيش حلماً أو غفوة، لكنها أضحت الآن حقيقة لا مناص منها، وفضل الرجوع إلى الغيتو، طالباً إعادته إلى العراق. ارتبك الأطفال أول الأمر، لكن الأم طمأنتهم، وبدؤوا يصعدون الباص الواحد تلو الآخر، بينما تأخرت الأم ومن خلفها زوجها، وكأنهما نبتة تُقتلع من جذورها، وضعتْ قدمها داخل السيارة وهي تتكئ على الباب الجانبي، وتبعها زوجها. فتذكرت أيامي الأولى التي ودعت فيها مدينتي بفرح غير معلن.

شددت الرحيل إلى بغداد وأنا أتأبط حلمي، كان أطول من عمر نوح وصبر أيوب، أضغط بقدمي على باطن السيارة وأطلب من السائق أن يسرع خوفاً من سرقة حلمي. أنظر إلى الشجيرات البريئة على ضفة الشارع والمطلة برؤوسها من البساتين البعيدة باسمة، ما يزيد قلقي كل الإشارات والإيماءات ألغاز مغارة لا أفقه حلها.

يحاصرني الخوف مثل مراهق يضع أول مرة يده بيد حبيبته، ويتصور أنه يسير وحده وسط العالم. لم أكن أشعر بالركاب من حولي، أو بالسيارات التي تتقدمنا وتسير خلفنا، الشيء الوحيد الذي يخامر ذهني، أن أطلب ود حبيبتي كلية الآداب فتقبل خطبتي. أعلم جيداً أن الأحلام هي وحدها من تهدّ المعابد

على رؤوس أصحابها، لذلك كانت العدو الأول لهم، يطوقون السماء ويطلقون خفافيش الشر تبحث عن الرؤوس المطلة إلى القمر، وأمضي رغم الخوف والدبابير الحمر عند كل مدخل محافظة تقف بأذنابها المحملة بالسم والعصي، يسألون المتخلفين عن الموت، والفارين من جبهات المقاصل وعن صدق المعاقين وبراءة أعمار دون السن الإلزامي لخدمة القائد والعلم.

يتنفس الصعداء من نفد من عصابات المخابرات والاستخبارات والأمن والانضباط، ومن سوء الحظ، وتدعو امرأة ساذجة أن ينقذهم من براثن الحقد، ونكات حمقاء بألا تدفع أجرة وأنت هارب من الجيش. نصل إلى جامع كبير بمساحته ومنارة وقبة مسكينة لا يدخل محرابها إلا من كانت به لوعة، والباقون يتقاطرون إلى مرافقه الصحية ليزيحوا خوفهم في مجاريها، يفكون خوفهم وحصرهم، يطلقون الريح كأنها غازات سموم تجثم في مؤخراتهم.

أركب الباص متوسط الحجم، يلح سائقه على الصراخ حتى يمتلئ عن آخره وهو ينادي باب المعظم، يسير بتؤدة، أجلس قرب رجل مهموم تنزاح ساقه اليمنى على رجلي اليسرى، دون أن يردها، أشعر بثقلها وصلابتها، وقربي فتاة موظفة يضوع عطرها أرجاء السيارة، حاسرة الشعر، قميصها بلون الورد، وتنورتها البيج تغطي ركبتيها وهي تحتضن حقيبتها المدللة. أرد بساقي ساقه دون أن ينتبه لذلك، فيعيدها مرة أخرى، انتبهت إليه وإليها، وجدت حزًّا حول ركبته عرفت أنها قدم صناعية، وأنه من بقايا الحرب المستمرة. عندما دققت النظر إلى الأشياء التي ينظر إليها، وجدته يحدق في أقدام النساء والصبيان والفتية وبعض الحمام القار على شرفات الدوائر الحكومية والعمارات القديمة والبيوت المرتبكة.

أسال بعض المارة المسرعين وربما الخائفين من غفلة رجل أمن يطلب إثبات ولائهم للقائد، وبأنهم ليسوا هاربين من الحرب والنار، وأنهم قرابين فداء للعلم، فيجيبني البعض بأن أسير قليلاً، فأشهد النصب والتماثيل والرسوم الشاهدة على الحرب. أقتفي أثر الكلام، وأتّبع رائحته حتى أصل إلى نصب جميل من الألوان، أرى بعض الخائفين والملتفتين يميناً ويساراً يبحثون عن المكان مثلي.

عندما وصلت الباب الصغيرة التي تكبرها باب كبيرة من القضبان الحديدية، وجدت حشوداً ضخمة، تيقنت أنه مجمّع الكليات، كما سألت بعضهم عن الطريق إليه، وكذلك ما أكده سمعي وأنا أنصت للمتحادثين بصوت عال، يتجاذبون الكلام بعنف، يسألني الواقف على اليمين عن مستمسكاتي الرسمية التي جئت بها، فأخرج له حلمي من فمي، يبتسم، ويقول الأحلام لا تكفي في زمن العهر والحرب، لا بد أن تأتي بكل ما يثبت أنك على قيد العراق قرباناً في أية لحظة تُنحر إذا طلب رب القصر الجمهوري ذلك.

كانت قوائم الأسماء معلقة على لوحة الإعلانات، وكل طالب حسب معدله يذهب إلى القسم الذي يوازي معدله العام، وكنت ضمن قسم اللغة العربية. خامرني شعور أن أحول إلى قسم الآثار، وعندما شاورت أبي في ذلك رد بعصبية:

- (اتروح تدرس الأصنام والخرايب، وبعدين منو يوظفك؟ ابقى بقسمك الي قسمه الله لك).

وأيّده في ذلك أخي الأكبر بالقول:

- (هو وين اكو آثار بالعراق).

انتظمنا كطلبة جامعيين من مختلف المحافظات، وكنا بعد أن ننتهي من المحاضرات نبدأ بالبحث عن سكن نستقر فيه، فنحن مواليد الستينات خصنا الله بالنحس وسوء الظرف، فأقراننا ممن لم تظهر أسماؤهم في أية جامعة من جامعات العراق، زجوا في جبهات القتال حتى بدون تدريب أو تعليم على السلاح ووضعوا في الخطوط الأمامية، ليعودوا نعوشاً على ظهور السيارات، أما نحن ففي السنة التي قُبلنا فيها داخل الحرم الجامعي الجميل، صدرت عدة قرارات بالضد من طلبة المحافظات أولها حرمانهم من المخصصات التي كانت تساعدهم على الاستمرار وإلغاء بعض النفقات عنهم، وثانيها إلغاء بطاقات الطعام داخل نادي الكلية إضافة إلى بطاقات ركوب الباصات الحكومية مجاناً. وكذلك ألغيت الأقسام الداخلية لتبقى فارغة مثل أطلال العراق يلعب فيها الهواء وتأكلها الرمال. وفي المقابل توجب علينا لبس الزي الموحد والذي لم نكن مهيئين له نهائياً بعد أن اشترينا الملابس الملونة التي تليق بمستوى العاصمة...

في تلك العطلة الصيفية كنت قد جمعت مبلغاً خيالياً وقدره مائة وخمسون ديناراً، وظننت أنني سوف أجتاز به هذه السنة وأنا مطمئن البال أصرف وآكل وأسافر على نهر دجلة في رحلاته النهرية دون خوف أو مبالاة، وأرتاد أغلب السينمات والمسارح لمشاهدة تلك العروض التي كنت أشاهدها من خلف شاشة التلفزيون حتى جزعت الدروب منا والأزقة ونحن نبحث مثل آلاف من طلبة المحافظات عن سكن في الحيدر خانة والصابونية والرشيد والشيخ معروف والشيخ عمر والفضل والكفاح، في الأعظمية والكاظمية، في مدينة الثورة التي يتغير اسمها كلما تغير الظرف السياسي.

رقَ الإسفلت لحالنا وأصبحت الأرصفة مقاعد استراحة لنا، وشممنا في تلك الأزقة الضيقة عبق ذلك الماضي الجميل الذي أنجب وعاش فيه كل من عبد الرحمن مجيد الربيعي وعبد الستار ناصر وعلي الوردي والشيخ جلال الحنفي وغيرهم من فطاحل الأدب والعلم. كنا نخرج من الكلية بحدود الساعة الثانية بعد الظهر ونقضي عدة ساعات بالبحث عن سكن ثم نشد الرحال إلى محافظاتنا لنعيد الكرَّة في اليوم الثاني، ما اضطرنا أن نسكن في أحد فنادق شارع الجمهورية، بعد انتظامنا في الكلية وأصبحنا مطالبين بواجبات كتابة وحفظ، على أمل الحصول على سكن في أحياء بغداد القديمة بعد أن طلبنا من بعض طلبة بغداد تدبير ذلك لنا.

رغم أنني كنت مثل طير مهاجر، بين مدينتي العتيقة وبغداد حاضرة الزمن، أدور مع دورة الشمس عند شروقها وأعود قبل غروبها بقليل، وسط هذا الدوران كنت أبحث عن حبيبتي، فقد أصبحنا دون قيود أو عيون متلصصة، فنحن في عاصمة الحب والحرية والأمان، أبحث عن حبيبتي كل يوم بعد أن أكتب اسمها على حدقتي عيني وأدور أفتش بين النساء اليافعات وهن في كامل زينتهن وبهائهن دون جدوى، وأعود منكسراً مثل بقايا دموع على وسادة، وخربشات بريئة في جريدة الراصد وبعض حلم، هو كل ما تبقى من أمل زرعته واختفت، وبقيتُ مثل شجرة دون أغصان لا أستطيع الاخضرار. أحتاج إلى امرأة تعشقني فقد مللت الترقب، مللت انتظار الحرب لي وهي ضاحكة، ومقصلتي معدة لذلك بكل عليائها القبيح.

أجدك في قلبي، الذي لا يتسع إلا لك، ولكن ما وضع قلبك؟ لمن يتسع؟ أرجوك اجعلي قلبي يسعنا، حتى أستطيع الاستمرار بعشقك، أنا أنت، فأقسم إنني لم أنسك يوماً. فأنا أنت وهل يمكن أن أنساك يوماً؟

جزعاً أمارس الحياة دونك. مثل ثمرة حنظل في فم عطشان. ورغم كل ذلك لم أفقد الأمل فيك، لأنني لا أستطيع العيش وحدي، كنت عندما تغيبين عني أشعر بالضياع. أنت وطني وعلَمي، أنت كتابي وسنتي، وأنا أول المؤمنين بك، أنت صلاتي ومحرابي، أنت أنتِ، وأنا من غيرك، مثل عابد دون إله، وسائر دون فنار، هل تيقنت من أن حبك مصل يغذي حياتي؟

ذات مرة قررت أن أرقب باب بيتها يوم الجمعة، وصدق ظني، فقد خرجت وأخوها يتأبط حقيبتها، باتجاه تجمع سيارات الطلبة التي تنطلق إلى بغداد، ركبت السيارة وحفظت لون ورقم السيارة التي صعدت فيها، بينما ينتظر أخوها انطلاقها إلى بغداد، وعند مرآب باب المعظم، نزلت مسرعاً إلى سيارتها، والتقينا، ولكنها أبت الوقوف وانتظمت مع زميلاتها من بنات منطقتها وهن متجهات إلى القسم الداخلي الخاص بالبنات الذي تم استئجاره من قبلهن. تبعتها حتى تأكدت من مكان سكنها.

صباح اليوم التالي كنت مثل نور الصباح أطرق باب الانتظار على أمل أن تنزل موشحة باللهفة، لكنها لم تكن كما عهدتها، ولم تتكلم معي، ربما خوفاً من صديقتها أن تشي بها. تبعتها بعد أن ركبنا الباص الذي يمر بالجامعة المستنصرية، ونزلتُ حيث نزلتا وتبعتهما، حتى إذا ما دخلتا الجامعة، كان قد فاض صبري، وأصبح الحديث معها شرعياً ومبرراً، وقد شعرت بذلك، فتأخرت عن صديقتها التي آثرت أن تكمل الطريق وحدها.

التقينا، كانت مثل وجه الصباح المشرق على أرض ظمأى، سألتها عن ألمي، لكنها تغيرت تماماً. كان وجهها كوجه ليزا ديل جوكوندو في لوحة الموناليزا يحمل الفرح والحزن في آن واحد. سألتني أن أذهب للقاء في مكان آخر، لكنني

مشتاق، نطقت دموعي التي نزلت رغماً عني، ولهفة الشوق موجعة، حبك غذاء روحي، أن أغادرك يعني أن أغادر الحياة، في الحب لا توجد منطقة وسطى، إما أن تحب أو أن تعيش على الهامش، وحبك بوصلة حيث يميل مؤشرها يميل قلبي، أنا منذ حبي لك ولم أفطم عن إرسال الرسائل لكن الريح والبحر اللذين يأخذانها إليك لا يعودان بشيء سوى أملك.

سألتني أن أجد مكاناً لا يعرفها فيه أحد، خالياً من عيون الفضوليين والعذال وعيون المتلصصين كأبواق الموت ينعقون مثل الغراب الأبقع، وهم يتكررون في كل زمان ومكان، ولون الموت بأصواتهم وظنهم أنهم يدعون للحياة، وكل من يمت بصلة لأعداء الحب. واتفقنا أن آتي إليها وأصحبها بسيارة أجرة إلى حيث حديقة الزوراء، وافترقنا كافتراق دموع عيني رغم توحد نظرهما.

لم أعد إلى كلِّيتي، كان الوجد قد تمكن مني، وعيناي مثل كرتان برتقاليتان. كان الحب في زمن الحرب، كاليتيم دون عيون أو أرجل. فمن يعتقد أن اللوعة تكمن بين عاشقين افترقا أو تخاصما فهو واهم. الوله والهيام هما نتاج عاشق يصرخ بالليل وهو يناجي القمر دون رد.

عندما وطئت أقدامنا باب الزوراء كنت أقبض على وعدك بقلبي وأحتضنه مثل أم تخفي نهديها، كنت في حبك مثل سادن سومري أو فيلسوف بابلي أعتق وعدك خمراً وأسكر على عطره نوماً.

كان حبك مثل عفة امرأة في قلب رجل عصامي، وقلبي مثل سمك حوض زينة محصور بين زوايا الماء لم يتحمل وهن البعد والاحتجاز فأباح لسجانه الحزن. كان عذولاً مثل جرذ يتغذى على قلب نخلة تفرع كل عام

آلاف العذوق لتغذي الفقراء. كانت تحبس الدموع والكلمات، كما تحبس ألمها ووجعها، سألتها البوح بما يجول داخلها، ولكنها قبل أن تنطق، كانت عيناها شلالين من الكبت، أخبرتني أن إعلان خطوبتها الخميس المقبل على ابن عمها. عندها أطفأت شعلة حياتي وأوقدت ظلمة قلبي إلى الأبد، وعادت تستعجل المشي باتجاه الباب الرئيس لنفترق افتراق الليل والنهار. غادرتني حبيبتي ولم تعرني نظرة وداع أو نظرة عابرة أو بسمة ساكنة من وجه ملؤه الكياسة والاتزان، أصبحت أعيش الحب من طرف واحد، تحيطني الوساوس المريضة، في أن قلبها أصبح مشغولاً بغيري.

بقيت وحدي لا ألوي على شيء، تائه في ظلمات الحب التي أغرقتني فيه دون إرادتها، كنت أنظر إلى العاشقين الآخرين ببعض الحسد وكثيراً من الغبطة وهم ينعمون برغد العيش مثل أزهار الربيع وهناء القلب مثل أفراخ العصافير في عش من عيدان وخوص النخيل.

عدت أدراجي أتجرع سم الفراق، كأنه السم الزعاف، ورحت أنغمس في علاقات طارئة سطحية مع زميلاتي، فكليتنا مليئة بهن، وهن في غاية الجمال، وكثير منهن يبحثن عن رجل يكون أقرب إلى محطة استراحة من نظرات أهلهن، وبعضهن يعتبرن الرجل قطاراً ينقلهن إلى محطة جديدة، وأخريات لا يفكرن أبعد من قضاء أربع سنوات من المرح والبهجة. نظَّمنا رحلات إلى مختلف المناطق السياحية في بغداد، وارتبطت بمواعيد خارج الكلية مع بعضهن هي أقرب إلى مواعيد عاطفية. تمشينا في شوارع الكرادة والجادرية والكاظمية، أكلنا في مطاعم وجلسنا في كازينوهات على ضفاف دجلة الرائعة.

كما انغمست في الدراسة ورحت أتفقه في أسرار اللغة العربية وأتوقف عند حروفها وأسأل، كأنه حلم طويل، كليلة الإسراء، كنت واقفاً أمام شاشة التلفزيون، أشاهد احتفالات رأس السنة. رتبت المصادفة أن تكون الأضواء مسلطة لهذا العام على برج (إيفل)، وتساءلت هل أنتجت اللغة العربية بكل تاريخها للأعوام الهجرية ما أنجزته الحضارة المعمارية اليوم. إن حروفاً وعددها ثمانية وعشرون رسماً، ظلت زاخرة بتشكلات من الكلمات، لم تستطع أن تتجاوز فكرة البيضة لتنتج بعد أقل من شهر كائنًا قابلاً للحياة.

إن عدد الكلمات التي ظلت تتجاوز دفوف الكتب، لم تستطع أن تفكك مشكلة الجنس والحب الذي ظل عالقاً في بيداء النفس العربية، لتنتج لوعة عبلة وليلى وأخريات لم يسعفهن الحب لان يكن مثالاً للإحباط الذي تجاوز كل تلك الصحراء ليسكن حواري وأزقة البيوت المتقابلة وطرق البساتين، لينتقل إلى الشقق العمودية، وليظل الحب رمزاً يحرك الجسد لارتكاب المعاصي لرب لا يقبل العفو، إلا في باحة قصره المطعمة بالتيجان والأقواس والقبب.

كانت أجمل الأكلات في بعض البلدان العربية كمصر والجزائر مثل الـ(كسكسي) هي أشف الكلمات وأحرجها، فللكلمات حياء كحياء النساء، مثلما لعنادها ما يشبه عنادهن.

طفقت أصاحب الكلمات وأعاقرها وفي بعض الأحيان أعاشرها، ولكن كـ(رهزٍ بلا حمل)، وأراهن على السراب العقيم، ورغم أني لا أجيد اللعب بالكلمات، والقفز بزانتها، إلا أني آثرت المضي حتى لو تعثرت بخافضها ومرفوعها ومنصوبها.

لكني لم أجد أحدًا يحترم تلك البقعة الحمراء التي تقبع على رؤوس الأعمدة متسيدة القول الحسم في من يقف أولاً، والتي يتوقف عندها كل

من يحترم حياة الآخرين، لتقف تحتها البقعة الخضراء بكل استحياء ممسكة بالعلم لتعلن بدء السباق إلى حيث لا يعرف المتشككون إلى أين هم ذاهبون. لم يعرف أيٌّ منهم حتى اليوم أن الذي سبقهم أين استقر وربما استحال إلى رمة أو بقايا من أشياء غير نافعة. تعود من جديد البقعة الصفراء تضيء وتنطفئ، وهي مترددة منذ أن نصبت نفسها أسفل الألوان، كالهلال لا يخرج إلا ليقول أنا موجود ليختفي من جديد وربما يولد مثل كل الولادات المشوهة على ضوء الشعل الدخانية.

أحببت كثيراً حروف الباء والنون والتاء والثاء، كان ينتابني شعور بالجذب لقاعدتها الرصينة، ربما لأن الباء كثيراً ما كانت تجذبني في الصغر لنلعب سويةً، وربما لأن النون هي الميزة التي تميزهن عني، وعندما يكبر الحرف ليتحول إلى قاعدة تعلوها نقطتان كانت تجذبني أكثر بسبب التغير الجسدي الذي يجذبني، أما عندما تنضج فيتحول حرف الثاء إلى ثغر جميل كثيراً ما كنت أسترق النظر خلسةً إليه ليطعمني حباً. حتى عندما كنت أقف عند علامة الاستفهام من حيث لا أشعر أدرك أنه يستفز كل الأشياء التي أدركها ولا أستطيع البوح بها. وعندما كان أحدهم يمتلك شجاعة أكثر من الآخرين، كان يحتك بحرف الألف في الأماكن الرطبة.

لم أتبين إن كان ذلك حلماً من أحلام اليقظة أم حقيقة أم خليطاً من السوريالية المتصوفة، قبل أن أحتقب حقيبتي متوجهاً إلى زوراء المنصور. جمعتُ الصور الفوتوغرافية المتناثرة في ألبوم الذكريات لأخي الذي يصغرني بعامين بعد أن أودع سجن مديرية الأمن العامة لأكثر من شهرين مع ابن عمي، وكان من اكتشف حافظة الصور له ثأر بدويٌّ مع الزمن، أرقدتها مثل

طفل في كيس أصفر، ووضعتها في جيب حقيبتي وتأبطتها كأنني أحمل كل تاريخي في كتاب سهر على تمزيقه كل الطغاة.

ذات ليل مخمور والأحلام صامتة كالجليد، رأيت أمي في ركن غرفتها الحزينة، تشم ملابس أخي وتسألها:

- سبع عشرة طلقة. وتصمت؟

- سبعة عشر ربيعاً. وتصمت؟

وكأن ذاكرتها لا تختزن أكثر من هذه الكلمات حتى إذا ما أسعفها تيهها قالت:

- ستار (جگر) قلبي، صلبوك برصاصات عمي؟ حشُّوا حشاشة قلبي عندما أوقفوك أمام جدار عاهر! بَرَكَ أقذرهم ليغتال روحك من دنو وأنت كالمسيح محلق بجناحيك.

لم أستطع الانتظار حتى نهاية الأسبوع الدراسي والحزن يتلبسني، عدت إلى مدينتي فوجدت أن المنطقة قد لفها الوجوم وعيون الجيران ترقبني، وبيتنا الذي يطل على الشارع الفرعي كأنه عش عصفور، وجدت بابه الرئيس بدرفتيه مفتوحاً وقد هتك ستره، وعلامات الحزن تخيم عليه كأنها شباك عنكبوت، تبين أنه حقيقة تواردت بين قلبي وأمي بقتل أخي بتثقيب جسده كأنه لوحة رمي، وكانت الرصاصات لا على التعيين تصيب قلبه مرة وأخرى رئته ورأسه وعينه، لم يكن أحد يعرف عدد الرصاصات، لكنهم عندما طلبوا ثمنها تبين عددها عند أبي الذي أصبح يشبه مالك الحزن.

رأيت والدتي ترتدي الثوب الأسود ومثلها أخواتي فسألت متعجباً: هل من سوء أصابكم؟ هل حصل شيء لوالدي؟ نهضت والدتي وأخذتني

بحضنها والدموع كانت نذير شؤم مثل الطابع الموجود على ظهر الرسالة لينبئك بالبلد الذي أرسلت منه، فقالت:

- إنه أخوك (ستار) قد أعدم وجاؤوا بجثته ووضعوها في وسط الدار هنا والثقوب تملأ جسده... كان ذلك منذ ثلاثة أيام وقد تمت المراسيم دون إعلان مشاعر الحزن والبكاء أو إقامة مجلس عزاء، ووضعنا تحت المراقبة الجبرية من قبل رجال الأمن وهم الآن يحيطون بالمنطقة ويراقبون كل تصرف منا... أرجوك ابني لا توقد فينا المواجع وتدمي الجروح، فربما يعتقلونك أنت أو أحد أخوتك، وربما يعتقلون والدك الذي وقّع على تعهدٍ بعدم إشهار حزن العائلة أو القيام بأي من تلك المراسم. أرجوك لا تجعلنا نصاب بفاجعة جديدة، إنهم وحوش كاسرة لا يوجد في قلبهم رحمة ولا شفقة... لقد أخذوا منا ثمن الإطلاقات النارية التي ثقبت جسد أخيك الطاهر... هل توجد قسوة أكثر من ذلك؟

كنت فاغر الفم، ولم أستوعب ما تقوله أمي بعد أن أحاطت بي أخواتي الثلاث، وهن يبكين ويلطمن الخدود... إنه ستار العزيز الغالي الذي وقف بوجه ذلك الظالم المتجبر والدي وأنصف أمي وأنصفني... كيف لا وهو حبيبي... ترقرقت الدموع في عيني وانهمرت كأنها فيضان مجنون، وانبعث صوت من أعماق أعماقي ليهز أركان البيت ويرجع صدى ليتزامن مع صيحات أخواتي البنات، فقد كنت لهن من خلال ردة فعلي هذه كباب فرج، وكذلك لأمي التي تحاول أن تهدئ من روعي ففقدت توازنها ورجعت إلى حالتها الطبيعية كأم تشق الجيوب وتلطم الخدود على ابنها، ومن منا يحس بمشاعر الأم؟ مستحيل إنها الأم فقط...

خرجت إلى الشارع كالمجنون أصرخ بصوتي رافضاً السكوت والخنوع لا لا لا وحوش قتلة مجرمون، لم أشعر بعدها إلا بأمي وهي تلثم فمي وترتمي عليَّ مترجيةً ومتوسلة بي الدخول إلى البيت، ولكني رفضت وأصررت على رؤية قبر أخي.

- حاضر يا ابني سأذهب معك، ولكن الذي أرجو ألا تقذفهم بما يستفزهم من الكلام خوفاً عليك يا عزيزي.

جلستُ قرب الباب ودخلت أمي إلى البيت لترتدي عباءتها، فقد خرجت ورائي من دونها، ثم أخذتني واتجهنا نحو مكان يجتمع فيه الموتى، نحو مكان ليس للحياة فيه من شيء. كانت المسافة بين بطن الأم التي أنجبته وبطن الأرض مسافة قصيرة. ركبنا إحدى السيارات واتجهنا نحوه إلى حيث يرقد بسلام بين يدي الله... وأنا أسأل نفسي: هل يا ترى ستحمله يدا الله التي فوق أيديهم كقربان تستطيع أن تحجب الدم الذي سوف يتدفق ويسيل من تلك الثقوب؟ هل يا ترى سوف ينتقم ذلك الرب ثأراً لأوليائه الصالحين من تلك الأيدي العفنة التي تثقب قلوب الأمهات والمحبين؟

دخلنا إلى حيث المكان المزدحم، فأصحاب القبور مثلنا يتزاحمون على قطعة الأرض، وصلتُ إلى مقبرة والدي التي اشتراها مدعياً أنه لا يريد المنة من أحد، فقد جهز كل شيء قبل رحيله حتى المكان الذي سوف يودع فيه، وها هو مصر على البقاء بعد أن سبقهُ كل من عمي وخالي وخالتي وابن أخي وبنت عمي وكلهم أصغر منه عمراً، أما هو فلا يزال متمسكاً بالحياة، فحثثتُ الخطى وفتحت الباب.

قرأت الشاهد المكتوب في صدر القبر... لم تكن الدموع لتتوقف طوال تلك المدة، تلفت يميناً ويساراً فوجدت قرميدة مصنوعة من الإسمنت ومثقوبة إلى ثمانية ثقوب يصل وزنها إلى خمسة عشر كيلو غرام، حملتها وأخذتها إلى قبر أخي لأهدمه وأخرجه من تلك الحفرة اللعينة التي وضع فيها قسراً، إلا أن أمي لم تكن لتدعني أخدش حرمة ذلك المكان ومثلها أخوتي الذين سمعوا بخبر مجيئي فلحقوا بي إلى المقبرة...

انهمرت الدموع من جديد وكأن أخوتي كانوا ينتظرونني، فقد أطبق على عيونهم وقلوبهم ذلك الأب القاسي ليمنعهم من البكاء، بكوا وبكوا ضاربين بكل تلك التحذيرات عرض الحائط وليحصل ما يحصل... وبعدها عادوا بي إلى البيت...

كان قلبي مثل بسطية فقير تلوحه شمس تموز الحارقة، ينز بذكرى أخي، وأتغافل عنه مثل أحمق لا يفقه سر القلوب. وعندما يجن الليل مثل أصبح نسر يجثو على فريسته، ينكؤني قلبي فأخرج الصور الموشحة بالضحك والفرح، أسرح بأحلامي وخيالاتي مع رحلة الطفولة والصبا، وملابسنا البازة وأحذيتنا المطاطية البيضاء بنتوءات سفلى وأزقتنا وثمار النارنج الحامض وهي تتدلى كالثريات من على جدران البيوت. أنظر صديقنا المشترك نجم الرحيلاتي مثل شجرة صغيرة وهو يمتطي عربته إلى بستانهم القريب في زقاق بليبل، نصعد قربه لتفصح الصورة عن وجه أخي وهو يمسك حبل القيادة ويزم على شفتيه ليخرج صوت يستنهض الحمار كي يسرع.

اشتعلت روحي مثل فوهة بركان أوشك على الانفجار، فانسطحت عليها رغوة الحياة، انطفأت قليلاً وعادت من جديد تشعل وجاقها. لم أستطع أن أواجه الحياة دون أخ كان لي أكثر من سند مادي ومعنوي، كان لي

روحًا أخرى تتنفس معي، فقد كنا مثل توأم بجسدين، أو كائن برأسين، لا يستغني أحدنا عن الآخر. قررت الانعزال عن الآخرين وهجر الكلام. كان في بيت أخي سرداب طويل يحتوي على سرير خشبي وإضاءة خافتة، وهذا كل ما أحتاجه. غرقت في عتمة الصمت، ألوذ بالهدوء الذي يكتنف المكان، صمتُ عن الأكل رغم محاولات أهلي في الحيلولة دون ذلك. استمر الوضع لأكثر من أسبوع، لا أقتات إلا على ما يساعدني على الاستمرار بالبقاء على قيد العراق، صرت بقايا إنسان محطم.

وأبي عند كل شمس يتخذ من بيتنا محراباً، تتزين أركانه بالقاشاني والحناء والنذور، في زوايا الحيطان تهبط الملائكة خلفه ودموعه تراتيل صلاة ومزامير داود، يجن السكون عندما يرفع يديه، نسمع نشيج الحزن وهو يكر سبحته، يغشي وجهه حياءً من الله بيشماغه المعبأ بغبار التعب. وصينية الطعام وكثافة الدهن تطفو على مرقة الباميا وتثلج من الانتظار.

ومثل أخي كان ابن عمي ناسكاً متهجداً، تميمة مقدسة، وكانت عمتي تنوي أن تخطب له وردة الكاردينيا بعد انتهاء شهري الحزن، بعد أن يجف نحر الحسين عن النزف وتسكن السبايا الشام، وتفك السماء حزنها، لكن الملعون مضغه علكة ورماه مجندلاً بالثقوب، كانت سبع عشرة إطلاقة، وربما عشرين، ولكن المتيقن منه أن بيت عمي دفعوا ديناراً ومائة وخمسين فلساً، ثمن الرصاصات التي حولت جسده إلى غربال.

أيعقل أن يجندل أخي وابن عمي برصاصات متشابهة؟ كان يوماً مشؤوماً. أرسل رجال الأمن بغربانهم إلى بيتنا وبيت عمي أن أقبلوا إلينا، وادفعوا ثمن الرصاصات التي قتلت الخونة، واستلموا جثمانيهما دون

صوت أو عزاء، واعقروا عاطفة الحب والنحيب في قلوب نسائكم، واجثموا في بيوتكم مثل الموتى، فالبكاء أو النحيب رجس من عمل العملاء، وإياكم أن تلبسوا ملابس الحزن، فالعراق في حضرة القائد المفدى أفراح على جماجم الخونة، أناشيد من البطولات، شعب دعائمه الجماجم والدمُ تتحطم الدنيا ولا يتحطم.

قال المسؤول الحزبي عن منطقتنا، من اليوم أنتم وعوائلكم أذلاء مهانون، لا تقربوا الدوائر الحكومية، لا تعيين لأبنائكم، لا مكارم، لا عفو، وإلا نتخطفكم كما يتخطف الطير فريسته. أنتم ظل العملاء في الأرض، في كل مكان تكونون منبوذين مثل كلاب جرباء، امشوا قرب الجدران، لا ترفعوا رؤوسكم، أو تتكلموا بصوت مسموع فأنتم مراقبون محاسبون. أيعقل أن تكون أحلامي طفولة ملطخة بالجروح، ومراهقة موشحة بالدماء، وشباباً مجندلاً بالآهات والوجع؟ كانت المدينة عرجاء من الحزن مغبرة بالهواء الذي يفوح بسمائها مثل فحيح الأفعى.

كان عام الحزن بامتياز بين الفقيد أخي والحبيبة التي انسلّت من بين يدي. بدأ شبح الموت على محيا وجهي مثل ليلة شتاء جليدية، وصعد منسوب اليأس كأنه قمة جبل لم تستطع الصمود أكثر أمام استيقاظ بركان ظل خالداً زمناً وحان وقت انفلاقه، وقد عزفت عن الأكل حتى هزل جسدي، لكن أمي ومثلها أخي الأكبر، جاءا حاملين صورة أخي ليستحلفاني به أن أترك اعتصامي عن الحياة. أخبرتهما أننا عائلة فتية في عز زهوها، لم نعتد بعد قطف وردة يانعة ولم تكتمل أوراقها بعد، فانهارت أمي من جديد، كانت تمثل دور الأم الصبور، ولكنّها دائماً ما تفشل، فالفرق كبير بين الحقيقة والتمثيل.

كلما فاضت عيناي بالحنين والألم، شعرت بتحسن كبير، ثم تبعهما أبي الذي بدا بقايا ركام ظاهر الهزال ناتئ الوجه يتكئ على بقايا كبرياء مهزوم، لم يكن يتصور أن يخذله الحنين إلى ابنه بهذه السرعة، وكان من قبل يعامله الند للند بالرغم من عدم التكافؤ. لم أستطع العزوف عن رجاءاتهم التي كسرتني، لأخرج إلى عالم جديد خال من ابتسامة وأمل وأمان عند لحظة ضعف أو خذلان.

استمر عزوفي عن الحياة أسبوعاً، حتى دخلت بيتنا، فوجدت أمي قد حزمت حقيبتي، بعد أن ملأتها ببعض الحنين والبكاء وبقايا أخي وشيء من الخبز والطعام، وطلبت مني الخروج من جو الحزن إلى بهجة بغداد، عسى أن تهون عليَّ الفراق، وتنسيني زحمة الحياة وثقوب أخي التي قتلتني قبل أن تخترق جسده الطاهر. ولم أشأ أن أترك خاطرها مكسوراً. لم أبت ليلتي بل فررت من دموعها وحزنها وهي تئن طول الليل كأنها في لحظة ولادته من جديد.

ارتميت في حضن بغداد، تائهاً في زحامها وأجوائها المفتوحة، أبكي في الليل وأتصنع الابتسامة في النهار، أخاف الانفراد مع نفسي حتى لا يغلبني الحزن وينكشف أمري في الكلية، وقد ادعيت وفاة أحد أقربائي الأعزاء على قلبي، وشيئاً فشيئاً كانت آلة النسيان جبارة في خلق اهتمامات مجاورة للهم والحزن الحقيقي الذي بدأ ينسل شيئاً فشيئاً، وبعد مرور أكثر من ستة أشهر تحول إلى غصة في حلقي تتبعها عبارة رحمه الله.

انغمست بالدراسة ألوذ بمتاهاتها، درست الأدب الجاهلي والنحو والبلاغة والصرف وعلم اللغة، قرأت الشعر والسرد على حد سواء، وداعبني شعور كاتب مغمور أن أكتب قصة قصيرة، وربما رواية كبيرة، وبدأت أركز على آليات كتابة الروايات التي أقرأها.

شعرت أن للكتابة رهبةً وكأنني أقف في محراب إله بابلي عظيم، أو كأني ملكٌ مرسلٌ من السماء أسجل أحداث ويوميات سيرة إنسان. انتابني هذا الشعور وأنا أفكر بما أكتب، إلى أن خطر ببالي أن أدوِّن تجربة أبي أول شبابه في ستينات القرن الماضي عندما كان بسيطاً يشتري الملابس القديمة ويأتي بها إلى البيت، فتقوم أمي بغسلها، ونشرها على حبل الغسيل، كأنه حبل غسيل حمام عمومي أو محل كوي بخاري حديث، بينما كان أخي الكبير الذي لم يبلغ من العمر سوى عشر سنوات، يمسك بالمكوى الثقيلة لكي الملابس ليعيد بهاءها ونورقها، ويقوم أبي ببيعها في اليوم التالي. كان أغلب الناس فقراء، لا يمتلكون المال لشراء الملابس الجديدة، لكني وجدت أن القصة لم تملأ أوراقي وانتهت بسرعة.

فكرتُ بالكتابة عن قطتي سوسو التي قتلها عباس المضمد، عندما جاء يترنح بعد شربه الخمر في الرزازة وكان يحمل في جيبه مدية، بينما كانت قطتي تتمشى قرب باب بيتنا وقد ألفت الناس وانخفضت لديها حساسية الخوف منهم. كنت أجلس عند ناصية بيتنا متكئاً على عمود الهاتف رصاصي اللون الذي يتخذ من ركن بيتنا موعداً له، باللاوعي أخرج عباس المدية من جيبه وأخذ يركز نظره على قطتي الأليفة بألوانها المتناسقة كأنها طير ببغاء بريء، ومن ثم رمى مديته التي بدأت تتقلب في الهواء حتى رشقت في رقبتها لتخرج من الجانب الثاني وتتجندل بعد أن دارت على نفسها أكثر من مرة. عندما سمعت قططها الصغار مواءها، خرجن من البيت الذي كنت قد أعددته لهن وصرن يجلسن قربها وهي ممددة جثة هامدة، لم تغلق عينيها، ما زالتا فيهما نظرة غضب لأنها أمنت للبشر، ولديها بقايا حلم أن تربي قططها الصغار.

هذه المرة الأولى التي تتزاوج وتنجب فيه خمس قطط بعضها كان يشبه أمها، وبعضها كان خليطاً من أبيها الذي كان لونه بنياً مخططاً بالأسود، وكنت أسمع أن الزوج إذا أحب زوجته تكون البطن الأولى تشبهها، ولما كانت القطط تولد مجاميع وليس فرادى فخرجت ثلاث قطط تشبه الأم، فتأكدت أن ما ينطبق على الإنسان ينطبق على الحيوان.

مضى عباس في دربه يترنح لا يعلم أنه أردى قطتي قتيلة وقد وأد أُلفتي التي أشعر بها، ولا يعرف أن للقطط سبعةَ أرواح؛ واحدة منها ملعونة ستحط في روحه لتقودها إلى حتفها. بكيت بحرقة على قطتي وزاد الموقف حزناً قططها الصغار المتجمعات حولها لا يعرفن ما يعملن. قررت دفنها وعدم تركها مثل فطيسة في الشارع تنتفخ وتتحلل دون أن يرفعها رجال النظافة. ذهبت إلى البستان القريب وحفرت قرب طوفته حفرة صغيرة ولكن عميقة، وحملتها بسكينها الذي ذبحها لتكون شاهدة على يوم مذبحها دون سبب سوى أنها أمنت للبشر وفضلت العيش معهم على حياتها البرية. واريتُها التراب وسكبت من دموعي على قبرها ذكرى ماضٍ جميل يربطنا لن أنساه أبداً، وها أنا بعد أكثر من ثلاثين عاماً أكتبه بألم وكأن حادثة القتل تحدث أمامي للتو.

لم يمضِ على مقتل قطتي أكثر من أسبوعين، حتى شاع مقتل عباس في مجلس خمر عند بحيرة الرزازة، فقد أخزاه الله، أن قتل مخموراً بعد مشاجرة على غلام أراده لكن صديقه رفض طلبه، فاختصما ولم يكن من صديقه إلا أن غدره بعد أن جاءه من الخلف ليغرز مديته في رقبته، فنفر دمه من رقبته مثل بول مأسور. فرحت كثيراً بمقتله، وذهبت إلى قبر قطتي منتشياً بالثأر

أبشرها بمقتله. شعرت أن روحها السابعة التي ظلت لائجة في سمائنا رجعت إلى القبر لتنام مطمئنة ساكنة.

قلبت صفحة دفتر الذكريات الذي اشتريته من أجل تدوينها، ولكني أهملته بعد أن غدر بأخي وهو في عز شبابه، وكنت بين الحين والآخر أكتب فيه بعض إرهاصاتي وأضغاث أحلامي، ولكني الآن حولته إلى كشكول أكتب فيه ذكرياتي التي أنوي تحويلها إلى قصص، ولذلك فكرت أن أكتب قصة الطيور التي كنت أجنيها خلسة عن أبي في سطحنا عند الطابق الثاني أو قرب عريش العنب:

ثمة وقتٌ فائضٌ في العطلة الصيفية، قررت شراء بعض الطيور الملونة خلسة عن أهلي، فقد كانت سماؤنا تعج بها، وكثيراً ما كان ذلك يشعرني بألفة مع السماء. تسللت ظهراً عندما كانت الشمس عمودية والعصافير تفر إلى أعشاشها من الحر، والقطط والكلاب السائبة بألسنتها المتدلية تبحث عن ظل عمود كهرباء أو طارمة كي تهرب من الحر اللافح، أو بركة ماء تسربت من مبردة هواء لعدم ضبط منظم الماء فيها لتجلس وسطها كي تبرد حرارة جسمها المرتفعة. صعدت إلى سطح دارنا، وعند الطابق الثاني وضعت بيت الدجاج المتروك قرب تنور بيتنا المهجور تحت بيتونة الطابق الثاني الصغيرة.

اشتريت أربعة طيور ملونة لم أكن أعرف أسماءها، ولكن علمت فيما بعد أنها تسمى عرافيل وشامية، سحبت ريش أجنحتها الثمانية، ولأنتظر بعدها فترة واحد وعشرين يوماً كي تنمو أجنحتها لتطير بعدها حول دائرة وهمية ترسمها الطيور كأنها المنطقة الحميمية التي لا تتوه عنها أبداً. كنت

كل يوم أتسلل ظهراً عندما يعم السكون دارنا حيث يهجع أبي أمي في غرفتهما ومثلهما أخي الكبير وزوجته، ليتمدد أخوتي في غرفة المعيشة ليلعب بعضهم لعبة الشطرنج أو ينتظرون طابور الخاسر في لعبة مكعب روبيك، أملأ الماء وأرش حبات الحنطة للطيور وأجلس قبالتها لأكثر من ساعة وأعود نازلاً.

كنت فرحاً، وأنا عند كل ظهيرة أتسلل إلى السطح، وأجلس قرب برج الحمام، والعرق يتفصد من جسدي، أمسك حماماتي الأليفات أفرد جناح كل منها وأنفخ على ريشها لأرى نصل الريش الدموي يدفع كل يوم ما يقارب نصف سنتمتر، حتى إذا ما بدأن بالصعود والنزول من على ستارة البيت، غمرتني الفرحة كثيراً، وشعرت أنني بدأت أطير معها. عند الليل دخلت متبختراً، وإذا بأبي ينادي عليَّ، فارتجفت من صوته، كونه لا يطلبني إلا لأمر جلل.

كان غاضباً وقد انتفخت أوداجه وقد شزرني بنظرة غضب بعد أن وجدت حماماتي الأربع مقطعة الرؤوس جانباً، وجَّه لي الإنذار الأخير من أن شرف العالم أهم من الطيور، والسطوح سر من أسرار البيوت لا تصعدها إلا النساء لتنشر أسرار غسيلها، أو تتخذه الطالبات مكاناً للمذاكرة، ومربُّو الطيور لا تقبل شهاداتهم في المحاكم، وليس لهم غير العمل أو الدراسة ولا سبيل ثالث لهما سوى جبهات القتال والحرب مستعرة، وهذا آخر إنذار لك.

شعرت أنه يقول ويحك إن كررتها، ولم أكن أفهم سبب انزعاجه وتهديده الصارخ، لكنني لم أكن أجرؤ على مواجهته، أو تفهم سر ذوده عن سطوح الناس، وكثير من أصدقائي يربون الحمام على سطوح بيوتهم. لم يكن

أبي يصعد إلى سطح الطابق الثاني، إذاً هناك من وشى بي من أهلي، لم أشك بأمي أبداً، وإنما كانت الشكوك تدور حول أخوتي الصغار الذين يلعبون الطيارات الورقية عند العصر، أو أختي ذات الأربعة عشر عاماً التي قليلاً ما تصعد لتنشر الغسيل بعد أن يمتلئ حبل غسيل الحديقة. لم أستطع أن أوجه التهمة لأحد، لكن الحزن قد تملكني وأنا أرى حماماتي قد ذبحن دون سبب سوى أن أبي يرعى حرمة الآخرين، دون أن يراعي مشاعري أو يطلب مني بيعها.

ذات عطلة صيفية، رتبت بعض الأخشاب المتروكة في بيتونة البيت إضافة إلى صندوق بلاستيك قرب شرفة متروكة تطل على حديقتنا الكثيفة بأوراقها من الأعلى بحيث تحجب الشمس عنها، اشتريت أول الأمر زوج حمام؛ الذكر كان لونه جوزيًّا له عرف عند رأسه يشبه عرف الديك يسمى عند مربي الطيور بالعرفلي كبير الحجم قياساً إلى أنثاه التي كان لونها أبيض مصفراً، سحبت ريش جنحيهما من أجل أن يدجنا عند ستارة بيتنا. وبعد انتظار فترة نمو ريشهما وأنا أضع يدي على قلبي عند كل يوم يمر، وأبي لم يكتشف سري العظيم، وما سيكون ردة فعله حينئذ؟

كنت قد رتبت في ذهني طريقة الهرب بمجرد أن أشعر باكتشافه سر الطيور التي ربيتها رغم إرادته، وانقضت الواحد والعشرون يوماً، دون أن يكتشف أحد من أهلي مكان برج الطيران، ولكن للأسف تبين أنهما لا يطيران، وأنهما من نوع طيور الزينة الداجنة التي تسمى بالـ(رواعب)، والأنكى من هذا الأمر، أنهما طيلة فترة الزواج لم تضع الأنثى أي بيوض. كنت أرقبهما باستمرار، فأجد أن الذكر يدور حول الأنثى التي تسحب

رقبتها إلى الداخل ويلامس صدرها الأرض لتسمح للذكر بالقفز عليها، وما أن يتم نكاحها، سرعان ما تعود أنثاه لتقوم بنفس عمله وتقفز عليه هي أيضاً. ذهبت إلى أحد أبراج الطيور قرب منطقتنا ورويت له ما رأيت فضحك وقال إنها عاقر.

شعرت أن تعبي ذهب سدى، لكني لم أستسلم، وقررت شراء طيرين جديدين، ووضعتهما في البرج مع الطيرين القديمين، لكني وجدت أن الذكر الأول يركض وراء الذكر الجديد وينقره على رقبته ووجهه. حجزته في عشه المعمول من القصب، وبعد نصف نهار عدت إليه وأطلقت سراحه، فعاد إلى وضعه القديم، هو يرفض أن يشارك أي طير برجه. عندها قررت أن أعاقبه، فجئت بإستيك لربط النقود الورقية، وربطت رجليه، وتركت قربه الماء والطعام، ونزلت على أمل أن يأخذ الطير الجديد دوره، وصادف أن تماهلت بالصعود لبرج الحمام، وبعد مرور يومين صعدت لأفك أسر الطير فوجدت أن رجليه أصبح لونهما أسود، وتبين أن الإستيك قد منع سريان الدم، وما أن رفعته عنهما، كان الطير يتكئ على ما تبقى منهما بمساعدة جناحيه وصدره، وقد أحدث ذلك داخلي شعوراً بالذنب الكبير تجاهه، وقررت بيعها جميعاً.

فكرت أن أكتب عن طب الأعشاب الذي كانت أمي بارعة فيه عندما يصاب أيٌّ منا بمكروه، وتذكرت مرة عندما جاءت أختي راكضة باكية، تشكو لأمي عن بعض الزوائد اللحمية التي نبتت في يدها دون أن تعرف السبب من ورائها، عندما رأتها أمي ضحكت وقالت إنها ثؤلول، وطلبت مني الذهاب إلى بيت الحاج هاشم، وأطلب منه بعض شعر ذيل حصان من التي يربطها على عرباته، وعدت بها.

كان ذلك في شهر حزيران على ما أتذكر وربما في شهر تموز، ثم جلست أمي على الأرض قرب الحديقة ووضعت يد أختي على فخذها، وطلبت مني قطف بعض ثمار التين غير الناضجة. حوطت الثؤلولة بشعرة ذيل الحصان بقوة، ومن ثم وضعت الحليب الأبيض الذي ندى من التينة فوقها، بينما أختي تتلوى من الألم. وفي اليوم التالي سقطت الثؤلولة مثل ندبة سوداء بعد أن حصر عنها الدم، وشيئاً فشيئاً تلاشى أي أثرٍ لها.

فكرت أن أكتب عن الدراجة الهوائية الخضراء لأبي عندما كان يعمل عطاراً، وهو يضع خلفها الخرج الذي يملؤه بالبضائع للبيت عندما يعود، وكان يقفله عندما يخلد للنوم، فأتفق مع أخي الصغير ليتلصص عليه أثناء نومه بينما أنا أفتح القفل عنوة وأركبه بعد أن أضع قدمي اليسرى من تحت الحديدة العليا لبدن الدراجة وقدمي اليمنى على كف البايدان، وأظل أدور في دائرة صغيرة، لكن ذلك لم يدم طويلاً وسرعان ما اكتشف أبي حيلتنا، فقبض علينا وأخذ يضربنا بعنف، حتى تورم جسدانا.

ظللت أدون قصصي وحكاياتي اليومية، لكني لم أقرأها لأحد أو أفكر أن أنشرها في جريدة الكلية التي تصدر من قسم الإعلام المنفصل عن كليتنا كبناية، ولكني فضلت أن أعرض ما كتبته على أحد الأساتذة الذي وجدت فيه ميولاً للأدب وحبه للقصة والرواية.

اغتنمت فرصة وجود الدكتور حامد الحامدي في القاعة الدراسية، يرتب أوراقه، ويكتب بعض أشيائه، سلمت عليه فطلب مني الجلوس قربه، استحوذ الحياء على جزء من شجاعتي، سألني عن عموم وضعي وأجبته بشيء من الحمد لله رغم بقايا الحزن المستوطنة في وجهي. تجرأت

وأخبرته بما أفكر وبعض كتاباتي البسيطة. فرح كثيراً بي وبشجاعتي المراهقة، وطلب مني دفتر مذكراتي الأخضر، تصفحه، قرأ بعض أحزاني وأفراحي، ثم نظر بوجهي قائلاً:

- هل أستطيع أخذه معي وأعيده يوم الأربعاء؟

- نعم دكتور لك ذلك.

وانتهت الجلسة على أمل اللقاء والاستئناس برأيه، وكان جدول يوم الاثنين غير مكتظ بالدروس كونه يوم الحزب واجتماعاته، ما يسمح لي الترفيه عن نفسي، وملاحظة بعض تفاصيل كليتنا الجميلة. رأيت شرار حيدر اللاعب الدولي المشهور تحيطه الفتيات من كل جانب، ومثله اللاعب الدولي محمد خلف، فقد كان مجتمعنا يعج بالمشاهير، كونه محط أنظار الكثير من المسؤولين إضافة إلى ازدحامه بالفتيات بموضاتهن الصارخة ولبسهن الباريسي، وحقائبهن على آخر موديل.

جاذبتني بعض الأفكار عما يكون رأي الدكتور بما كتبت، وسرعان ما انقضى يوم الثلاثاء، لأجد أحد الطلبة يطلب حضوري إلى الدكتور حامد. جلسنا بعد أن طلب من موظف الخدمة أن يأتي لنا بكوبين من الشاي، وانتظرت بفارغ اللهفة الإدلاء برأيه فيما كتبت فقال:

- الكتابة هي عملية تناص نصوص، أما الكاتب فيشكله الواقع مع الخيال والمثابرة على القراءة للتجارب المحلية والعربية والعالمية.

شعرت بفرح كبير لم أظهره، لاهتمام الدكتور بنصوصي البسيطة وسعيه لتوجيهي بما تلمّسه في نصوصي أو هكذا اعتقدت، ولذلك وافقته الرأي وكنت آذان صاغية.

- نعم.

- في البدء لا بد أن تعرف تاريخ القصة القصيرة في العالم، وتباشر في البحث عن تلك النصوص وتبدأ بقراءتها، فقد بدأت القصة القصيرة عالمياً على يد غوغول من روسيا وموباسان من فرنسا وإدجار ألن بو من أمريكا، وتأخرت في ظهورها عند الإنكليز، وفي الوطن العربي فإن هناك روادًا للقصة القصيرة ومنهم أحمد تيمور ومحمد حسين هيكل من مصر، غسان كنفاني في فلسطين، زكريا تامر من سوريا، محمود بوزفور في المغرب، رضا حوحو في الجزائر، بن معاوية في السودان، يوسف إدريس في مصر، عبد الملك نوري ومحمود السيد وأخيراً محمد خضير من العراق.

لم تكن الصورة واضحة عندي عن القصة القصيرة كما وضحها لي الدكتور، شعرت أن ما كتبته هو عبارة عن إرهاصات مراهق، لا يمتلك من أدوات الكتابة سوى بعض الذكريات القهرية لطفولة ومراهقة متعبة، ولم أكن أمتلك من جواب سوى:

- نعم.

تدفق حديث الدكتور مثل ماء النبع الصافي:

- من شروط القصة ومواصفاتها هو ألا تكون الجملة محكومة ما بين الترهل والهزال، يجب على الكاتب أن يكون عنده معيار، بحيث لا يقتضب فتصبح عبارته هزيلة، ولا يطنب فتصاب عبارته بالترهل، فالقصة تعبير عن الواقع. لأن كل ترهل قبيح، وكل اختزال قبيح. وإنما اعتمادها على كثافة الحدث.

- وما هي خصائص القصة القصيرة؟

- خصائص القصة تكمن في الوحدة، الاستهلال والدخول إلى الموضوع، والهدف، ولحظات التثوير والتنوير والشخصية الرئيسة وصولاً إلى الخاتمة. والضغط على الفراغات وتكثيفها لكي تحقق الخاصية الأولى.. وكذلك الصراع سواء كان في الحدث أو في غيره. وهي لا تحتاج إلى أحداث ثانوية لتتكئ عليها ولا خلق فضاءات كما في الرواية، كما لا تعتمد على الأبطال المهزومين وغيرهم لكي يتسنى لنا خلق البطل المنتصر. وعناصر القصة تختلف عن عناصر الرواية وإن اقتربت منها قليلاً، وهذا الاقتراب وارد في الأجناس الأدبية الأخرى مثل الملحمة والمقامة والأسطورة والحكاية وغيرها.

- عفواً دكتور، وهل بقية شروط القصة منذ ولادتها وحتى الآن هي نفسها؟ لأنني أراك تميل إلى المقارنة ما بين القصة والرواية؟

- ظهور القصة القصيرة الحديثة في منتصف القرن التاسع عشر ألغى المفهوم الذي كان متداولاً بأن الرواية قمة والقصة هي السفح، وأصبح المفهوم السائد الذي يؤكد بأن الرواية قمة والقصة قمة ولكل جنس خصائصه وعناصره. القصة جنس أدبي مستقل عن جنس الرواية من منبعه وحتى مصبه. كان الاعتقاد السائد آنذاك أن القصة رواية مختصرة والفارق بينهما هو الحجم والزمن، وهو اعتقاد بدأ الباحثون بالابتعاد عنه.

كان الحديث مكثفاً وغزيراً بالمعلومات التي لم أكن لأتصورها. شعرت أنني ولجت عالماً بكل هذا التاريخ، رغم أنني طالب في كلية

الآداب وأدرس اللغة والكثير من أناقتها ورشاقتها ولياقتها وميزانها، حتى تعريت أمام نفسي قبل أن أتعرى أمام الدكتور المختص. حاولت أن أهرب من هذا الفضاء الفسيح، ولملمت ما فاض من الحديث وسألته عن رأيه بما كتبت:

- ما كتبتَه لا يمت بصلة للقصة أبداً، إنها مجموعة تفاصيل صغيرة مرت بحياة إنسان ألف العيش مع الحيوانات لافتقاده الألفة مع قرينه الإنسان، وعاملها على أنها صديق وند، لكنه شعر بالدفء معها، لأنها لا تؤذي نفسها والآخرين. ومع ذلك فأنا أنصحك بالكتابة، لأن أحد أهمِّ شروطها هي الدربة والمران.

- وبماذا تنصحني أيضاً؟

- في كل مراحل كتابة القصة أو الرواية لا تحكي، وإنما اسرد من أجل إدخال بهجة اللغة وتناغمها، في كل مراحل وصف الأحداث لا تحكي وإنما اسرد مع إدخال بهجة اللغة وتناغمها.

سلمني دفتر مذكراتي، وانسحبت شاكراً، بينما كان شاينا قد برد دون أن ينتبه إليه أحدنا، فرحت وحزنت كثيراً برأيه، كنت أتمنى أن ينال ما كتبته شيئاً من استحسانه، ولكنه أبى أن يكون مجاملاً لشاب أراد اقتحام عالم مقدسات الكلمة، وفي الوقت نفسه أضاء مصابيح في طريقي قررت اتباعها. انكببت على قراءة القصص والروايات العالمية وشعرت أن الرواية تجذبني من حيث لا أدري، وتفاجأت أنه في المحاضرة المقبلة كان قد أعد بحثاً كاملاً عن الرواية وتفاصيلها، فأخرجت ورقة وقلماً ورحت أدون ما استطعت اللحاق به من آراء حينما قال:

- صناعة الرواية مثل محاولة الإلمام بضفة بحر مترامية الأطراف، فالرواية وإن صغر بؤبؤ عينها واحتوته، لكنه في الحقيقة يسعها لملايين المرات، دون أن تسعه، هي لا تشبه من يلامس شغاف البحر وسطحه، بل هي تغور في الأعماق الإنسانية، ذلك الغور الذي لا قرار له، وإن كان للبحر قرار. فصناعة الرواية ليس كما يعتقد أفلاطون في مدينته الفاضلة.

سألته إن كانت الرواية عملاً فرديًّا وهو سر تميزها، لأنها تعزز ذاتية المبدع، بينما الكثير من الفنون جماعية مثل السينما والمسرح، فقال:

- كذب من قال إن كتابة الرواية عمل فردي تحمل اسم كاتبها، بل هي عمل جماعي تخفي خلفها كثير من الأسماء ليس أولها دار الطبع إن كانت عريقة واسعة التوزيع، والشخص الذي يراجع المخطوطة من الناحية اللغوية والنحوية والطباعية، وكثير من المفكرين والشعراء والروائيين الذين يساهمون في تكوين فكر كاتب الرواية، والأسرة التي توفر الجو المثالي والاعتيادي له والأصدقاء الذين يشاركون الكاتب همومه وأحلامه ومن ضمنه نواة الرواية وتطورها حتى نهايتها. والأهم الخيال وقراءة روايات من سبقوه، إضافة إلى الكتب الفلسفية والفكرية التي تنضج فكر الكاتب المبدع.

شعرت أنه يريد أن يقيم حواراً معنا نحن الطلبة، لكن أغلبهم كان لا يعيره اهتماماً، والقليل منهم من كان يهتم بحديثه، وقد قررت في داخلي أن أكون روائياً، لما شعرت فيها من فضاء يسع همومي وأفكاري الأولية، فبادرته بالسؤال من جديد قائلاً:

- هل من المفروض أن تحاكي الرواية الأفكار والقيم العليا مثل الأخلاق والحب والعدل والوطن، أم أنها تحاكي الإنسان كقيمة عليا على اعتبار أنه هو من أنتج كل هذه القيم؟
- أولاً يشترط بالرواية المتعة والجمال، ومن ثم لا بد أن تناقش القيم العليا التي ينتجها الإنسان لأنها تعطي لحياته المعنى.

شعرت أن الدكتور حامد يتصنع الجواب الأخير، ولم أكن أعرف السبب من وراء ذلك، شممت رائحة الخوف في جوابه، إذ ربما أراد القول عكس ذلك وصمت. ومن ثم ذهب بسرد تاريخي عن الرواية العالمية حينما قال: إن أول رواية عالمية أنتجت في عام ١٦١٥، للروائي الاسباني (ميغيل دي ثيربانتس سابيدرا) وعرج بعدها على أبطال الكتابة الأولى في الجانب الشرقي من العالم المتطور اسمه (تولستوي) وكيف أنه توفي في محطة الانتظار لإحدى الباصات المتأخرة، وقبله (دستويفسكي) وهو يسطر ذلك الاعتلاج الروحي داخل أبطاله.

كان السرد فيها مثل الزواج التقليدي الذي تلعب فيه الأم دوراً أكبر في تلك المجتمعات البدائية، رغم معرفتنا أن الأم تمتلك عاطفة وغريزة غبية، عندما بدأ الرجل في البداية كعربة ثم تحول إلى حمار بتلك الذكورة المبهرة. ومن ثم رحل بنا إلى العالم الغربي، وحط رحاله عند (أرنست همنغواي) وهناك لن تقرع الأجراس مرة أخرى، إلا في أجساد الآخرين، والنساء قد فارقن الرجال كقيمة تأنس به واستبدلته بالكلب المنزلي، والتكنولوجيا الجسدية المتقدمة، وربما وجدت أنه يقرف من احتكاره له وراح يعلن المشايعة، مثلما هو الرجل يمتلك حق المشايعة.

قررت شراء كل مؤلفات الروائي (دستويفسكي)، وبالخصوص في رواية (الأخوة كارامازوف)، ووجدت نفسي أبحث عن الأخ الأنموذجي الذي حلمت به من خلال عطف الكبير على الصغير واحترام الصغير له. ولكن لم تكن تلك الروايات سوى مرايا تعكس سواد الواقع الأليم، وقبح أشكال البشر مهما تعددت لغاتهم واختلفت أشكالهم، لم تكن سوى حزمة من الورد الذابل وطلقات الرحمة على إنسان تمكن منه الحقد حتى فاض عنه يأس من إنتاج حياة بديلة عن حياة الحلم.

ثم اشتريت مجموعة روايات لروائيات عراقيات وعربيات، ولم أعلم السر في نعومة الكلمات، وهي تنساب من أقدام أنثى روائية، مثل غادة السمان ولطفية الدليمي ومارغريت ميتشل، وأجاثا كريستي وأخريات، ربما المرونة التي تسكن (الألف المقصورة)، التي تتلوى مثل شوارع جبلية، أو ألفها المنتصب، كثيراً ما أحببت النقاط فوق اسمها، كأنها مظلة في أسِرَّة المضاجعة، تحيط بيديها ذلك الجسد الذي يدير قفاه إلى السماء، وهي مطمئنة إلى أنه لا يخونها رغم قناعتها أن أنثى واحدة لا تكفيه، مع غياب الحروب الجسدية. أعجب كثيراً من الكلمات المؤنثة، عندما أتعاطاها، أشعر بأنها ترياق يهدِّئ ألمي المستفز، وصراعي المحموم على أنثى تجمع ذكورتي في حوض يعلن ولادة الكلمات الجديدة بصمتٍ طويل وبحروف طفل بريء.

سألت نفسي كثيراً، لماذا ملابس النساء أجمل من ملابس الرجال، وأكثر وأحلى، لماذا جوارب النساء أطول، لماذا ثغور النساء أشهى، وعيونهن أكثر تعبيراً من كل العيون؟ لم أجد أي جواب لذلك السحر الذي يخضب أدمغة الرجال بمعارك طاحنة، وهن جالسات في البيوت ينتظرن من يدق أبوابهن،

ليقدمن فروض الطاعة والكلمات في حضرة الصمت الناطق، حتى إذا ما انتهكته ياؤها المقصورة صارت الكلمات باردة مثل الجليد، وكلما ازدادت كلماتها حرارة، راح يطفئها ببليد رجفته المرتبكة في لحظة غيبوبة، بعكس كلمات أولئك الروائيين الذكور، وكأن نحتها يوحي بقسوتها وبرودتها، كأنها مومياء الفراعنة القدماء التي تعلوها الأهرامات، مثل رسومهم المبهمة على جدران اللحود، ففرشاة الرسم أنثى، والقيثارة أنثى، كل الحروف المسالمة أنثى، كل الكلمات المنبسطة وكأنها حضن أم ريفية هي أنثى، حتى تفاصيل جسدها يوحي لك بنعومة السهول المؤدية إلى تلك المغارات المغلقة والتي تحمل كلمة السر التي أعلنها (علي بابا) على الملأ حتى أصبحت من لُعب المغامرين.

أيقظتني أمي من نومي فلملمت حلمي المبعثر، ونهضت أتكئ على حلم جديد اسمه نهار سعيد، وحديقة لم تزهر بعد في بيتنا، وحدها شجرة الرمان تتقدم الأشجار، وعريش العنب يسقف سماءها.

انتهت السنة الدراسية الأولى وقد فتحت لي أبواب الفكر والوعي، فتحت لي عوالم خارج حدود الدروس التي اعتدتها في الدراسة الإعدادية الموضوعة على قضبان سكة قطار ليس من حق الطالب الخروج عليها وإلا أصبح خارج السرب وينقلب على أعقابه. كنت معبَّأً بالكثير من الأفكار والأحلام، في أن أنتقل إلى عالم جديد من البحث عن الذات المفقودة بعد أن طمس الدين الأنا وأحيا الـ(نحن)، لأن الأنا تعزز الفردية بينما الـ(نحن) تطمسها، وما نتج عنها من كبت أفرز الكثير من العقد.

كانت الحرب العراقية الإيرانية قد أطفأت وجاقها، وكان الرجال وقودها، وبقايا دخانها أرامل ومعوقون وأيتام، والانتصارات المزيفة تملأ

الشوارع وصفحات الكتب الأولى، والرفاق عند كل زقاق ملتحفون بالشر، والمقار الحزبية عند كل حي ومنطقة ترفع شعار (الله، الوطن، القائد) ولم تنجِ كل الأدعية والتضرعات الشباب من هذا الشعار، الناس يتخطفهم الفرح من القادم المجنون وزمام عربة العراق بيد حوذي أرعن، يمسك سوطاً أملس يضرب بكل الجوانب حماقاته، يرسم على شخابيط الأطفال صورته، يمحق كل خضرة تعلو بأغصانها أحلام الأمهات بغدٍ آمن.

حلَّ أيلول الجديد، وكنت أتمطى في دفء فراشي، أنظر إلى أخوتي الممدين قربي مثل ألواح طرية، غارقين في أمان كبير، أسمع قرقعة الأباريق وصحون تحت صنبور الماء، توقظ أمي نيران الطباخ، وتخرج أطباق الجبن والقيمر، وتضرب بعض البيض على حافة المقلاة، تستنهض أخوتي وتناديني باسمي، أن انهض من نومك، ثم تجمع دفاتر أحلامي، وتغلق الكتاب الذي ظل طول الليل يؤرقني بحلم لم ينم.

انثالت الكلمات من فمي كأنها فوهة شلال من علٍ على بياض أوراقي، وأنا أجتر حديث الدكتور طازجاً في ذهني، عندما خصني بلقاء شخصي وقال:

- ابدأ بكتابة تجاربك الشخصية، ومن ثم ما يحيطك، وبعدها منطقتك ومدينتك، لتتحول إلى كتابة هموم المجتمع ككل، فالإنسان محور الحياة، وليس القصة أو الرواية، أو أيٍّ من أنواع الفنون الأخرى، وما المكان أو الاشتراطات الأخرى إلا جوانب ترقى إلى مستوى الأهمية التي يتميز فيها الإنسان، فمهما كان نوع العمل وكاتبه، لا يمكن أن يوسم بالعظيم إلا إذا كان يعالج الإنسان ومنظومته القيمية التي

تعتلج داخله بموازاة كم كبير من التساؤلات عمن يكون. حتى في أرض الواقع لا يمكن أن يكون للقيم من أهمية، دون أن تكون قرينة الإنسان والطرف الآخر لها، حتى ينتصر به وإليه.

وقررت في داخلي ألا أستعجل هذه المرَّة في كتابة أي شيء، مثلما استعجلت في المرَّة السابقة عندما تحولت أحلامي وخيالاتي بسرعة إلى ولادات خاسرة في رهان العجلة، وعدم التعوذ من الملك القدوس في حضرة إله عتيد. كنت لا أملك إلا حقيبة مثقوبة مليئة بالخيبات والتعثرات ونوبات فشل مكررة، وذاكرة تترنح بين طروحات أصدقائي والزمن الداعر المعبأ بدخان الحرب والأسرى والمعاقين والمفقودين ومن عاد مكللاً بالنصر الزائف كان يحمل كمًّا كبيرًا من الأمراض النفسية.

درت حولي نفسي أبحث عن أشيائي التي أريد كتابتها، كانت حزينة منكسرة، فالمكان الذي كنت أتكئ عليه وأنا أنتظر حبيباتي قد علقت عليه مئات القطع السوداء وهي تنعي شهداء المنطقة الواحد بعد الآخر. نظرت إلى داخل بيتنا، لم يكن أبي راهباً أهتدي بنور صومعته، وأعذره في ذلك لأنه قائد عائلة ضخمة أفرادها أكثر من ثلاث عشرة نسمة، ولا بد أن يكون غليظاً فظًّاً حتى يسيطر عليهم. عدت إلى الذاكرة أبحث عن أيام الفرح الوردية، ووجدته مثل مطر ربيعي جاء متأخراً، ومضى بسرعة دون أن نحسن استقباله. ومثله الصيف الحارق، بينما يتخاذل خريف الحزن في المدن دون أن يزدهر الربيع فوق قمم الأشجار لتلبس بذلات العرس.

عدت إلى الكلية من جديد، لأسال الدكتور حامد عن صناعة الرواية التي استهوتني كثيراً، وقررت خوض غمارها، وقد فرح كثيراً بلقائي، كما وجد

اللوعة والحيرة بادية على أصابع يدي وتيه وجهي، وسألني عن السبب وراء كل ذلك، فأخبرته عن بحثي الفاشل لكل ما يحيطني لأكتبه، عندها قال:

- الفرق بين الصقر والدجاجة، أن الأول يرى من علٍ ليقتنص، بينما الدجاجة لا تبحث أبعد مما يدور حولها.

- عفواً دكتور، أنت تضرب أمثالاً عن الطيور التي أحبها.

فضحك حتى انفرجت أسارير وجهه وقال:

- لما وجدت فيك حباً ورغبة نحو الطيور، فأحببت أن أقرب إليك الصورة الروائية، وسأضرب لك مثلاً عن اللقلق، فصناعة الرواية مثل بناء عش اللقلق من شروطها؛ أولاً: أن تقف في مكان عالٍ يطل على كل ما تحته، توفُّر الأنثى، ومن ثم الاتفاق على بناء العش، يبدأ الأبوان ببناء العش، بالتقاط عيدان الأشجار وخوص النخيل، وكل ما من شانه زيادة عضد العش. هكذا تُبْنى العلاقات بين الشخصيات الرئيسة للرواية.

يعمل الأب على حماية المكان وإعادة نسج العش عند أي تخلخل أو عندما تظهر أية نقطة ضعف فيه والذي يمتد على مساحة ليست بصغيرة. تبيض الأم ومن ثم ترقد على بيوضها، بينما يعمل الأب على الحماية من أي غازٍ أو معتدٍ، ثم يرقد على البيوض، بينما تطير الأم للأكل والشرب، بعد أن تفقد الكثير من وزنها، يفقس البيض وتخرج لقالق صغيرة، لتكون حياة جديدة تنعش فيها نهار الأبوين، اللذين يعملان بجد من أجل ديمومة الصغار والاستمرار بالحياة من خلال جلب الغذاء لهم. يبدأ الصغار بالتصفيق ممتحنين أجنحتهم، بعد أن

يتساقط الزغب لينبت الريش مكانه. يقف أحد الصغار المبكرين بالخروج من البيضة على حافة العش، لم يرعبه المنظر الرهيب من الأعلى وهو يطل على كل ما تحته، يرفرف بأجنحته، بينما الأم تطلب منه التريث، يحثه الأب على المحاولة، وبين إقدام وإحجام، يتراجع فرخ اللقلق على الطيران، يؤنبه الأب، وتطيِّب خاطره الأم، لم يعد العش يسع الجميع، فالصغار وبامتداد أجنحتهم الطويلة، يتصادمون عند كل محاولة طيران، بمعنى أن الصراع يجب أن ينبع من الداخل.

أعيش هيام اللحظة والتحليق مع الدكتور حامد، وأنتعش بخياله الخلاق، ثم أسأله:

- هل تقصد من وراء حديثك، أن أنظر إلى الأحداث من مكان عال، وأن أكتب حياة كاملة عن أسرة بأحداث يتخللها الخوف والمجازفة؟

يومأ برأسه موافقاً، واستمر في حديثه قائلاً:

- الأم لم تستطع جلب الطعام للجميع، وعلى مسافة ليست ببعيدة، كانت البحيرة تعج بصغار الأسماك، وصغار الحيوانات الأخرى، يضيق الأب ذرعاً بالعش الذي امتلأ بفتيته الذين يرفضون المغادرة، لكن الأم تطلب من الجميع الانتظار حتى يحين موعد الهجرة والرحيل إلى حيث الأماكن الدافئة. يصر الأب على أن يجرب أولهم الطيران، يتقدم نحو حافة العش، يرفرف بأجنحته، يطلق بعض الأصوات الناعمة، وكأنه يشجع نفسه على الطيران، يهتف الصغار من خلفه يشجعونه على الطيران، يحثه الأب على المحاولة، بينما الأم تنظر إلى السماء وهي فاتحة منقارها ومنكسة أجنحتها تدعو له بطيران موفق.

يهب الفرخ الذي اكتمل جناحاه من مكان بعد أن يضرب بقوة جناحيه مخلفاً كمية من الهواء التي جعلت ريش صدر من خلفه يتمايل كأنه موجة بحر هادئة، ينط من العش إلى الأسفل، يجهد كي يرفرف بأجنحته التي تحاول أن تحمل جسمه، بعد إسراع بالرفرفة يعتدل جسمه لتحمله أجنحته استعداداً للطيران. يتقدم الصغار إلى حافة العش مهللين لأخيهم على الطيران الناجح، بينما لم تطق الأم صبراً، وراحت تطير خلفه مشجعة إياه على الاستمرار في الطيران، حتى تتصلب أجنحته الطرية، لأنها تمتلك عاطفة غبية، بينما الأب هو من يمتلك العاطفة العاقلة، وهذا سبب آخر للصراع الدائر بين الأبوين.

كنت في سري أعلم أن الدكتور من الجيل القديم، الذي جبل على الرواية التي تتناول المشاكل الاجتماعية والعاطفية في الرواية العراقية، وبودي أن أكسر هذا الطوق الحديدي الذي طوق خيال كل من يروم كتابة قصة أو رواية، ولم أرغب في مقاطعته وتركته يعيش مع لقالقه هائماً. فأردف بالقول:

- تدل الأم الفرخ الذي يتبعها إلى حيث البحيرة، ليصطاد غذاءه بمنقاره الغض الذي اعتاد الأكل والشرب الجاهز. ثم ترفرف بأجنحتها له، ويبادلها الفراق الأخير. تعود إلى عشها، بعد أن اطمأنت على فرخها الذي استقل بحياته، وشق لنفسه طريقاً جديداً بحياة واعدة. يطلب الأب من الفرخ الثاني أن يحاول الطيران، ودون أي تشجيع، يقف على حافة العش ويرفرف بأجنحته بقوة، يشعر أن أجنحته تحمله إلى حيث المجهول، وهو على استعداد لخوض غمار التجربة والغوص في هذا

العالم، يلم جناحيه، ومن ثم يعيد فتحهما، ينظر أباه ومن ثم أمه التي عادت للعش، ودون أن يلتفت إلى الخلف، ينط من العش إلى الأسفل، ويرفرف بجناحيه، فيتحول جسمه إلى طائرة حقيقية ليطوف إلى هدف معلوم، ويقف بجناحيه بعد أن يمد رجليه الطويلتين في مكان بعيد عن أخيه الذي سبقه إلى البحيرة نفسها. بمعنى يجب أن تنطلق من حبكة الرواية من الداخل إلى الخارج، لأن الإنسان تحركه طموحاته ومشاكله الداخلية كما تحركه أحلامه.

كنت على وعي تام بأن الدكتور ذهب في مثاله إلى الحيوانات مبتعداً عن أي نموذج إنساني يعج فيه المجتمع العراقي، يسكنه الخوف في كل تفاصيل وجهه وحديثه. وكنت أقدر ذلك، وتركته يتم قصته:

- يحلق الأبوان خلفهما، وقد هاجرا العش، من دون أن يلتفتا إلى الخلف، ليطوفا حول صغارهما في البحيرة، ومن ثم تتحول أجنحة اللقالق الأخرى إلى ما يشبه أصواتًا موسيقية متناغمة، لتهب مرة واحدة من ماء البحيرة الضحل، وتحلق خلف كبيرهم، بعد عدة ضربات من الأجنحة، لتحلق في السماء بأشكال هندسية رائعة باتجاه غروب الشمس، هكذا هي أغلب الأمور كلها تتجه نحو الغرب.

- هل تقصد أن الرواية قصة حياة كاملة؟

- نعم. لا بد من وجود حكاية يطرزها السرد لتحكي قصة حياة مكتملة بغض النظر عن الفرح أو الحزن الذي يتخللها.

هكذا بدأت تتوضح الصورة أمامي، إضافة إلى قراءاتي المتعددة لمختلف أنواع الروايات العالمية والعربية، وانغمست في السنة الثانية، أجدُّ بدراستي

ولكني أصبحتُ أمتلك عيونًا حافظة لكل ما يحيط بي من تفاصيل، من خلال نظرة كلية تشبه نظرة اللقلق أو الصقر للأشياء والمكان، فيما ظلت العاطفة الغبية والعاقلة ترن في ذهني وطفقت أبحث عنها في الواقع البشري.

وجدت أن معظم الأمهات لا يهمهن في أولادهن سوى الاستمرار على قيد الحياة، ولكن معظم الآباء يهمهم، إضافةً إلى ذلك، أن يكونوا أفضل منهم أولاً ومن الآخرين ثانياً، ولذلك أصبحت أرى الأبناء يميلون إلى الأم أكثر من الأب، ويتزاحمون في الحياة معه قبل الآخرين، فإن كان الأب فقيراً نقموا على فقره، وإن كان غنياً تمنَّوا له الموت كي يرثوه، وإن كان بينهما ظلوا معلقين بين الأمرين.

بعض الأبناء يحب أمه أكثر من أبيه لأنها لا تنهره عند الخطأ، ولا تقوّم سلوكه، وإنما تسهر على خدمته فتطبخ له وتغسل ملابسه وتكنس البيت وغرفته وتسهر قربه عند مرضه وتحزن عليه عند رسوبه في المدرسة وتفرح معه عند نجاحه فيها، لكن الجندي المجهول في كل هذه العملية هو الأب الذي لولاه لما وجد البيت الذي هو أصل كل هذه التفاصيل، ولولا الأب لما وجدت الحماية والمال الذي بسببه كان الطبخ والنفخ والملابس والعلاج والذهاب إلى المدرسة والنجاح والفشل. لذلك يتمنى الأبناء من الله أن يطيل عمر الأم كي تستمر بخدمتهم وبدعائها المجاني لهم، كما يتمنى بعضهم موت الأب كي يرثوه ويتخلصوا من قيد الضبط والربط والممنوع والمسموح.

هكذا انقضت السنة الثانية، وأنا في كل سنة أزداد هموماً ثقافية ومجتمعية، كما أزداد بحثاً عن ذاتي فيما أريد أن أكون في المستقبل القريب؛ هل أكتفي بأن أكون متعلماً لأعين بوظيفة مدرس في إحدى مدارس

الأرياف المنفية، أو أن أحقق ذاتي بأن يكون لي اسم لامع يشار له بالبنان وسط ثلة واعية من الروائيين؟

كنت عند كل مساء، أتسلل إلى قن الدجاج، وأمسك الديك الأبيض الموشح بالأصفر، وألفّ منقاره بخيط رفيع، حتى لا يفسد حلمي بصياحه عند الفجر، أعود متسللاً إلى فراشي، وأحضن حلمي وأنام. استمريت على هذا المنوال طيلة الفترة المتبقية من العطلة الصيفية. كنت أمنّي نفسي بأمل أن أصبح مشهوراً، أتجاوز حدود بلدية محافظتي كوني كاتباً مغموراً، على أمل أن أصبح نابه الذكر ولا يحقق لي ذلك سوى إحدى دور الطباعة البيروتية العريقة والمشهورة، وكنت من قبل أرسلت لهم مخطوطة سهرت عليها كثيراً، وشذبتها من الأخطاء الإملائية والنحوية والطباعية على الآلة الكاتبة، كما أعدت قراءتها أكثر من مرة، لأعرف منسوب تشويقها، إلا أن المفاجأة التي لم أتوقعها، وهذا ظن كثير من الكتاب المغمورين، أن ما يكتبونه ربما يرقى إلى مستوى يستحق الطباعة ومن ثم القراءة من قبل من يختص في مجال الرواية. أعدت قراءتها، فتبين لي أن فيها تيهاً سردياً لم انتبه إليه من قبل.

VI
بداية الانهيار

لا أدّعي أنني نبات صحراوي لا أنتمي إلى الأمكنة أو إلى أسرة لا أريد لها الاستمرار، ففي اللحظة التي أمسكت فيها باب الباص، أصبت بارتباك وكادت قدماي تخونانني، لكني انتفضت على ضعفي، وتذكرت الذين نجوا بأنفسهم في العقود الماضية، بينما تحول من بقي إلى وقود أو حطب لحروب غير مسؤولة أو مبررة، وانهزمت كل الشعارات والحكم التي كانت تطرز صدور الشوارع والكتب والرجال.

الهزيمة والفشل كانتا السمة الغالبة على طول الحياة التي عشتها وأعتقد أن تواصلها لن يختلف عن سابقها، وهذا لا يعني انه لا توجد بعض الانتصارات أو الصفحات المشرقة في ذلك التاريخ المظلم، فضمن المعارك المستمرة، استطعت كسب بعض الجولات، ولكنني إلى هذا اليوم لم أكسب الحياة، ولكن الذي لا يختلف عليه اثنان أن مواليد الستينات هم بذور سيئة الحظ، فقد حفلت ولاداتهم بتقلبات سياسية في أوجها، وعند صباهم كانت التصفيات الحزبية من أجل بقاء الصوت الواحد والقائد الأوحد قد بلغت الزبى، وعندما شبوا كانت الحروب بانتظارهم، وما بين حرب الخليج الأولى والثانية بأقل من سنتين، لم يكن الشعب العراقي قد أخذ بعض أنفاسه، ولم تكن النساء بعد قد نزعن ملابسها السوداء حزناً على أبنائهن، أو انقطعن عن زيارة قبورهم.

منتصف العطلة الصيفية، وفي الصباح الثاني من شهر آب المغرق بالتشاؤم والوجوم، أقدم الرئيس العراقي على غزو البلد الجار والآمن دولة الكويت، وأخفى وجودها من الخريطة الدولية لتتحول إلى المحافظة التاسعة عشرة تحت عنوان محافظة النداء، فقد دخل الجيش العراقي الكويت، بعدة أعذار حقيقية أو وهمية، مثل الطير الجريح الذي يرقص مذبوحاً من الألم، فقد خرجت الحكومة العراقية من حرب الخليج الأولى ووجدت نفسها مدانة لكل دول العالم بمليارات الدولارات لتعود إلى المربع الأول الذي هو اتفاقية الجزائر، رغم أنها أعلنت موافقتها على قرار الأمم المتحدة ذي الرقم (٥٩٨) مبكراً، وموافقة إيران عليه فيما بعد.

صدر على إثر احتلال دولة الكويت أكثر من ستين قراراً تحت الفصل السابع اتخذ بحق العراق في فترة زمنية قياسية. والفصل السابع هو مجموعة من البنود العقابية أو الإجرائية الصارمة أو حتى المسلحة التي تلجأ إليها المنظمة الدولية بعد أن تستنفد كافة الإجراءات السلمية لحل أي نزاع دولي يثور بين دولتين، والتي أدانت اجتياح العراق للكويت.

أصبح العراق مؤهلاً للخضوع للائحة طويلة من قرارات هذا الفصل، والذي فرض بموجبه حصاراً اقتصادياً وبرياً وجوياً وبحرياً ودبلوماسياً شاملاً ومرهقاً على الشعب العراقي، وسمح بالتدخل العسكري من قبل قوات التحالف البالغ عددها ثلاثين دولة لإخراج العراق من الكويت، ووضعه تحت وصاية الأمم المتحدة، وحرم الشعب من إدارة مواردهم. ويأخذ الكثيرون على الأمم المتحدة هذا الفصل الذي سمح للدول الخمس الأعضاء الذين لديهم حق الفيتو باستخدامه ضد الدول التي تعاني شعوبها في الوقت ذاته من ضغط حكوماتها عليها.

بدا الوضع السياسي متأزماً بشكل كبير، ووساطات الدول الخارجية على الحكومة العراقية مكوكية، طائرات تهبط يحدوها الأمل بموافقة الحكومة على الحلول التي يحملونها، وأخرى تطير محملة بالفشل، والرعونة قد تمكنت من القيادة العراقية البعثية مثل غمامة على عيونه أعضائها لا يرون أبعد من أقدامهم. وأيلول الذي استيقظت فيه براكين الدم، وفاضت على الشعب العراقي، لم يكن بالشهر المحمود عندي، وهو نفس الشهر الذي اقتيد فيه أخي إلى مقصلة المسيح، وتتبعتُ أثر حبيبتي حتى عثرت عليها والتقينا في حديقة الزوراء لتصارحني بخطبتها لابن عمها، هو نفس الشهر الذي كنت فيه قد انتظمت مع الطلبة في صفوف المرحلة الثالثة. لم يمضِ على ذلك أكثر من ثلاثة أشهر، حتى أرسل عميد كليتنا والرفيق الحزبي المسؤول عن الكلية بطلبي، فسألني العميد:

- هل وقعت على تعهد رقم (٢٠٠)، الذي يقول بأنه ليس لديك أي شخص معدوم أو منتمٍ لأحزاب معادية للحزب والثورة؟

ارتبكت من الإجابة بعد أن وجدت الوجوم على وجهيهما يكاد يحولهما إلى فحمة سوداء تنتظر الشرارة لتتقد.

- نعم وقعت عليه.

- وهل تعلم أن التعهد الكاذب، يجعلك في مأزق قانوني آخر؟

- ليست لي دراية بالأمور القانونية.

نهض المسؤول الحزبي من مكانه، واتجه نحوي، والشرر يتطاير منه ليسألني:

- ولماذا أنكرت إعدام أخيك وابن عمك الخائنين للحزب والثورة والقائد؟

تسمرت الكلمات في فمي ومن ثم تجلدت، ولم أعرف بما أجيب وخفت أن أطرق برأسي إلى الأرض، فيتطاول المسؤول الحزبي ويمد يده عليَّ. حاولت البحث عن إجابة تمنع شرور هذا المستذئب دون سبب، وكأنني غبت عن الوعي أو عن عالمه المادي باحثاً عن إجابة ترضيهما. شعرت أنني أمام كابوس يقضُّ مضجعي، حتى جاء الجواب من أعماق أعماقي مثل النجدة لينقذني من المأزق الذي أضحيت وسطه رغماً عني.

- لكنهما أعدما بعد توقيعي على قرار (٢٠٠) وليس قبله.

نزل كلامي مثل الصاعقة عليه، فسرعان ما هبطت معنوياته، وعاد أدراجه مكسوراً مخذولاً كأنه أصيب بخيبة أمل بعد حلم تمنى من ورائه مكافأة أو ترقية. جلس على كرسيه ينظر بوجه العميد لا يعرف بما يرد عليه. ومن ثم استجمع قواه المكسورة وعاد ليخبرني:

- لم يعد لديك مكان في الدولة العراقية، في جامعاتها أو دوائرها الحكومية كافة.

ثمة شعور خالجني بأن العميد بدأ يتعاطف معي، حينما تدخل بالحديث قاطعاً كلام المسؤول الحزبي بالقول:

- أفضّل أن تترك الكلية، كي تفصل بسبب الغياب، عسى أن تأتي مكرمة من السيد القائد تشملكم بعطفه.

طلب مني الانتظار خارج الغرفة، التي بقي بابها مواربا وأنا أسمع حديثه مع الرفيق الحزبي بالقول:

- بما أنه وقع على قرار (٢٠٠) وحادثة الإعدام تمت بعد ذلك، فإن موقفه سليم، وهو صادق في تعهده، ومن أجل تجنب أية مساءلة

قانونية، فإن فصله بالغياب يجعل موقفنا سلبياً، وفي الوقت نفسه، نترك له أملاً بسيطاً بالعودة إلى الكلية، إذ ربما تتعطف القيادة الحكيمة عليه وعلى أمثاله.

كان الرفيق الحزبي بعثياً أكثر من البعث نفسه، وبدا ممتعضاً من حديث العميد، لأنه حرمه من صيد كبير أراد من ورائه أن يرفع تقريراً إلى الحزب، يثبت لهم مدى حرصه واهتمامه على مسيرة الحزب والثورة، وبأن رجاله عيون ساهرة على منجزاتهما. والذي أغاظه أكثر هو حديث العميد عن مكرمة وعطف القيادة التي تغفر للمسيء إساءته، جعلته يرضخ للأمر الواقع، ثم طلب مني الدخول إلى الغرفة قائلاً:

- لم تردَّ على طلبي، بألا تحضر الدوام بعد اليوم لتفصل بالغياب، أو نرفع بك تقريراً للحزب والأمن؟

- أنا موافق على طلبك، وبعد اليوم لن تراني في الكلية أبداً.

- مع السلامة.

عم الخراب نفسي، وبدأت أنظر إلى الأشياء من خلال عيون موشورية، لا ألوي على شيء. أخذتني قدماي إلى حيث ضجيج النادي. كنت أحتاج الهرب من نفسي إلى الآخرين، فالصمت هو الحقيقة التي نسمع من خلاله أنفسنا، ولذلك كرهته في هذا الوقت بالتحديد. جلست وسط ضجيج الطلبة وصخب صوت التسجيل ليمنحني شيئاً من التيه وعدم التركيز.

عزمت أمري على عدم الرجوع إلى مدينتي وإخبار أهلي بالذي حصل، ولكني لا أحب الخديعة البيضاء التي تزرع الأمل في أرض رملية، درت

حول نفسي أكثر من مرة، وبعدها ذهبت مخذولاً إلى الدكتور حامد لأخذ رأيه وتوجيهي إلى الرأي الصائب.

تألم الدكتور حامد كثيراً على ما آل إليه وضعي الدراسي والنفسي، ولكنه لم يقدم أي حل لمشكلتي، سوى أنه اقترح عليَّ الاشتغال مع أحد أقاربه في نادي كلية التربية إن رغبت، بعد أن سألني عن مسؤولي الحزبي في مدينتي، والسبب من وراء رفعه التقرير الحزبي للكلية بهذه السرعة، ولم أكن أعرف السبب من وراء هذا التصرف أو الفائدة التي عادت عليه.

فقدت القدرة على التركيز في أي شيء، وبقيت أسبوعاً في الفندق لا أخرج من غرفتي وإن خرجت فإلى الشرفة فحسب، لأرى الحياة تدور مثل ثور في ساقية، بينما كان صاحبي يعود ببعض الفاكهة والخضروات والمواد الغذائية، ليجد طعامه جاهزاً. كنت مهزوماً شر هزيمة. قررت الرجوع إلى محافظتي وإبلاغ أهلي قرار هجرتي إلى خارج العراق، كان مخاضاً عسيراً، أن أجرؤ على مثل هذا القرار، ولكن الذي خدمني، أن فصلي من الكلية لا يعني التحاقي بالخدمة الإلزامية، وإنما انتظامي العام التالي بالدراسة من جديد على أمل إصدار عفو من القيادة الحكيمة بخصوصنا.

VII
ثورة الجياع

بينما تغطي أم العائلة الكبيرة وجهها وهي تنشج، كان أطفالها يتنططون قرب النافذة اليسرى للسيارة وكأنهم في رحلة عائلية، بينما يسرح الأب في ملكوت ماضيه، أما أنا فبدوت كأني أنزع آخر أشيائي وذكرياتي لأترك بعضها في الغيتو، والكثير منها في بلدي الذي ولدت فيه دون اختياري.

أتوغل في دهاليز ذهني وأفتش عن أضغاث أحلامي، أجدها مركونة على شكل مجاميع في درجي القديم الرصاصي اللون، وقد بان بعض الصدأ عليه، بعضها منتظمة، وأخرى مبعثرة. لم أمتلك الشجاعة في أن أصارح أهلي بقرار فصلي من الكلية بسبب أخي الذي جندلته رصاصات البعث. ما أن ركنت حقيبتي الحزينة جانباً حتى أخذتني أقدامي إلى مقهى شعبي عند ناصية شارع لم أرتدها من قبل، تخوتها واطئة الارتفاع، ويتكئ الجالسون على جدار جانبي أو على ركبهم، تتقدمهم صفائح سمن فارغة مقلوبة على وجهها. كنت أحتاج إلى أن أسمع حكايات الحزن والفزع كي أنسى خوفي والأيام المظلمة.

كنت انعكاساً للوطن الذي بدأت على ثغوره تجتمع آلة الحرب العالمية من السفن والبارجات والطائرات والدبابات، في نفس الوقت الذي تتقاطر فيه الوفود على حكومة العراق من أجل انسحاب جيشها سالماً من الكويت، ولكن من دون طائل. لم تكن بعد قد جفت دموع الأمهات وحزن الآباء على فلذات أكبادهم المقتولين والأسرى والمفقودين والمعاقين في حرب

الخليج الأولى، حتى اشتعلت حرب جديدة، لا أعتقد أن أوراها سينطفئ قريباً وربما سيفرز جيلاً أدمنَ الحرب وكره غصن السلام، وسيفتعل بطولات جديدة وعندما لا يجد صدى لها، فإنه سينكفئ على نفسه ليحارب بعضه بعضاً.

حوّل نظام البعث المدارس والجوامع إلى ثكنات عسكرية، وملأها برجال الحزب والأمن، ووفر لها الذخيرة والسلاح الكافي لأي طارئ يتوقعه واستعداداً لحرب ضروس طويلة الأمد، كان يصفق لها بأجهزته الإعلامية على أنه المنتصر الأكيد، بينما جيشه يلهث من الحرب السابقة ولم يلتقط أنفاسه بعد، وآلته العسكرية أنهكها التقادم، وسيارات (الإيفا) لا تدور محركاتها بسهولة، ما يضطر الجنود إلى إيقافها ليلاً على تلة وعند الصباح تنزل مسرعة ليسري الوقود في أوردتها المهترئة.

تحولت واقعة الكويت إلى مهلكة سحقت الجيش العراقي، بعد أن عصبت عينيه ودمرت مطاراته ورادارته ومنظومته الكهربائية والسلكية واللاسلكية وكل ما يجعل الاتصال طيعاً بين أفراد الجيش المهزوم نفسياً قبل أن يهزم عسكرياً، بينما تتخطفه طائرات الجيوش المتحالفة من كل جحر يختفي فيه المراتب والضباط من على السواتر والشوارع والمزارع وفي الصحراء. عاد الجيش مخذولاً مهاناً مكسوراً إلى أهله، فقد تشرذمت قيادته الأولية وصولاً إلى قمة الهرم، ورافق انهيار الجيش سقوط هيبة الدولة وانهيار الحكومة البعثية التي كانت تقبض على الشعب بيد من حديد.

كان أفراد الجيش وبعض ضباطه يضمرون حقداً دفيناً على حكومة البعث التي ذهبت به إلى التهلكة والتي رفضت كل الوساطات الدولية التي

سعت إلى انسحابه من دولة الكويت، مقابل التعويضات التي يرتضيها، ليس آخرها شطب الديون ودفع فاتورة حرب الخليج الأولى، وتنازل الكويت عن بعض أراضيها وجزرها ليكون للعراق منفذاً بحرياً يليق بتاريخه، لكنه كان مثل الحجرة الصماء لا يسمع أو يستجيب لأي نداء. ولذلك فإن أول محافظة ثارت على سوء تصرف ورعونة الحكومة هي البصرة، إذ هب الناس على مقار الحزب والشرطة والأمن والمخابرات انتقاماً من أفرادها الذين كانوا السوط الذي تضربهم به حكومة البعث.

كانت بعض أحلامي ثورية ولا أستطيع البوح بها، فتتحول إلى غمامات بيضاء تحمل أريج القيم السامية لتتجاوز حدود المكان إلى حيث الإنسانية جمعاء، ولكنها بالتقادم تنسل من درج أفكاري وأنساها، لأعود مثل بدوي قدم من عمق الصحراء بكل تفاصيلها يحمل عطشه وثأره وكثيراً من الصبر.

هذه المرة تحول الحلم إلى ثورة، فقد امتدت نار الغضب إلى المحافظات الجنوبية وبدأت تأكلها الواحدة بعد الأخرى، مثل بركان غاضب ينفث سمومه أو ثور هائج ينفخ من منخريه غضباً، بعد أن عانى الذل والخذلان من مجازفات الحكومة المراهقة التي تنتقل به من حرب خاسرة إلى أخرى. شعر الشعب بفقرائه وبسطائه وموظفيه الذين يشكلون أديم الحروب المتقدة بلا هوادة، أنه وقود يحترق من أجل لاشيء، إضافة إلى المكلومين من عوائل الشهداء والمعدومين على مقاصل الأمن ودوائر المخابرات والاستخبارات، وإن ادعت الحكومة أن حروبها مقدسة أو قومية.

ثارت دون تنسيق مسبق، لم يكن لها منظمٌ أو هادٍ، بينما كانت الأحزاب الدينية والعلمانية ترفل بنعيم موائد دول الجوار. كانت الأخبار تنتشر بين

الناس مثل النار في الهشيم، فكان الجنود الهاربون من جبهة الكويت الذين جاؤوا مشياً على الأقدام وقد تحولت أقدامهم إلى أقدام فيل من تورمها، ينقلون الأخبار أينما حطوا رحالهم، بعضهم جاء بسلاحه، بعد هروب لجان الإعدامات التي تقف في الخطوط الخلفية، بينما قصفت المشاجب وفرَّ المسؤولون عنها. كما هرب الرفاق الحزبيون الذين كانوا يحرسون الربايا الداخلية خوفاً من ثورة الشعب، وتركوا خلفهم الأسلحة والعتاد.

كانت الأخبار تتناقل بين الناس بسرعة البرق، ويزيدون عليها بعض آرائهم وحنقهم على النظام. في هذه الأثناء، كان رئيس الحكومة قد ادخر جزءاً من جيشه المسمى الحرس الجمهوري في بغداد، وبدأ يوزعه على المحافظات التي يشعر أنها أقرب للاضطراب والفوضى. وبالفعل جاء رتل طويل وكبير محملٌ بالجنود الذين تحمل ملابسهم العسكرية المثلث الأحمر قرب عضلة اليد اليسرى، واتجه نحو بناية المحافظة ليستلم زمام الأمر والحكم.

لكن الموج العالي لا يقف في وجهه شيء، لأن ضخامة الدعاية وانهيار معنويات أجهزة الأمن الداخلي والجيش، جعلهم في غاية الضعف، والأنباء التي يتناقلها الناس فيما بينهم، جعلتهم باللاوعي يستأسدون على أجهزة الدولة التي مثلت الحكومة وتلونت بلونها، فلم تكن دوائر خدمية وإنما أجهزة قمعية. الارتباك يعم الشارع والناس في خوف وتوجس، بينما ينتظر الشباب ساعة الصفر للوثوب على أقرب مؤسسة حكومية، ولكن من يطلقها، لا أحد يعرف؟

كنت أقف عند الشارع العام في منطقة باب الخان، عندما سمعت آخر دعاية تقول إن قضاء طويريج - الهندية قد سقط بيد المعارضة وانهزمت

أجهزة الحكومة البعثية، ولكن لم يكن أحدٌ يعرف من هي المعارضة. وفي هذه الأثناء، خرج محمد بن معيلو يحمل مسدساً وقد أشهره وهو يصيح بأعلى صوته: يسقط صدام حسين، يسقط حزب البعث الجبان، وأخذ يركض باتجاه مركز المدينة القديمة، فخرج بعض الشباب وراءه وهم يحملون العصي وسكاكين المطبخ.

بالتزامن مع خروج هؤلاء الشباب، خرج آخرون من منطقة العباسية الشرقية ومثلها من باقي مناطق وأحياء المدينة القديمة إلى حيث مركزها المتمثل بالعتبتين المقدستين، بينما اتجه بعضهم إلى مديرية الأمن في باب بغداد ومقار حزب البعث المنتشرة في مركز المدينة القديمة. بعض الرفاق الحزبيين أبدوا مقاومة، وعندما وجدوا أن الهجوم لا يمكن صده، قرروا الهرب من أماكنهم إلى حيث الأبواب الخلفية، بعد أن لبسوا ملابسهم المدنية واختفوا في البساتين والأزقة الضيقة وفي جهات مجهولة.

كانت خيارات الشعب شبه معدومة، ولذلك لم يكن أمامه سوى الانتفاضة بعد أكثر من عقد من الذل والهوان والسجن والاعتقالات وما تبعها من الحرب. كان يستنزف أمله في مستقبل آمن، بل إنه لا يسلم على حياته لأن نظام البعث يهدد وجوده، ومن ثم محيطه.

سميّت ثورة أو انتفاضة كما أطلق عليها فيما بعد، أو غوغاء كما سماها رئيس الحوزة العلمية في النجف، أو صفحة الغدر والخيانة كما أطلق عليها النظام، كانت مثل حيوان وليد يحاول الوقوف على قوائمه المرتجفة، ولم يكن يعلم أن الذئاب تتربص به وستقتله قبل أن تتصلب قدماه ويستطيع المشي ومن ثم الجري بها.

كان ذلك في الخامس من نيسان عام ١٩٩١، عندما دقت أجراس القصاص، وذاع خبر هروب المحافظ غازي الديراوي إلى غرب المدينة حيث يستقر أحد الألوية العراقية قرب بحيرة الرزازة، لتنطلق تكبيرات الله أكبر بالتوازي مع أزيز الرصاص، بينما أغلقت أبواب عتبة الإمام الحسين وأخيه العباس من قبل قوات الأمن والمخابرات، باستثناء باب واحد في كل منهما للدخول والخروج.

لم يكن لأحد تصور أنَّ تلك القبضة الحديدية التي يقبض بها نظام الحكم وبعثه على الشعب وكأنه نسر يجثم على طير، أن تتداعى بهذا الشكل مثل رسم كارتوني أطاحت به عاصفة، أو وقف عليها طير وذرق عليها فكسر هيبته. ربما هي هذيانات محموم. لم أستوعب الواقع الجديد، وأنا أرى انهيار كل هذا التاريخ من الرعب والخوف بكل هذه البساطة.

خرج الناس من أفجاج الخوف ليعلنوا تمردهم، باحثين عن أنفسهم بين ثنايا مراياهم التي ظلت تعكس جبنهم، داسوا على تخاذلهم واجتمعوا عند تقاطعات الشوارع وأركان البيوت، يحملون أرواحهم على أكفهم، شجاعتهم الضامرة، سكاكين المطابخ، أعواد التوت والنارنج، بنادق استحوذوا عليها من سواتر البعثيين المنهزمين، أو التي حملوها معهم من جبهة الكويت.

هب الناس إلى مقاصدهم، إلى العتبة الحسينية والعباسية، السجون والتسفيرات، دوائر الأمن والمخابرات وأنين المغيبين ومقار الفرق الحزبية، مثل قطيع أغنام دون راع، بعضهم ربط على رأسه قطعة قماش خضراء، وآخرون سوداء، خرجوا يطلبون الثأر لإخوانهم المعدومين، المسجونين،

المفقودين، الأسرى. بعض الجياع من البسطاء والفقراء توجهوا إلى مخازن الزيوت النباتية ينهبون صفائح الدهن ومسحوق الغسيل والصابون، إلى مخازن المواد الغذائية يسرقون أكياس الرز والسكر والبقوليات والشاي، آخرون قصدوا الدوائر الحكومية، مراكز الشرطة والمستشفيات والمدارس والعقاري والبلدية والبريد والمحافظة، لظنهم أنها ملك صدام ونظامه البعثي ويجب الاستيلاء عليها.

امرأة كبيرة تسحب خلفها جهازاً آملة أن تتنسم هواءً بارداً، وعندما استوقفتها أسالها عن السبب من وراء عملها المضني، أجابت أنها تريد أن تهنأ بصيف نسماته باردة، فأخبرتها أن ما تسحبه خلفها هو جهاز تخطيط قلب وليس مكيف هواء، سألتني لتؤكد كلامي، فأكدت لها ذلك، عندها نزعت الحبل الذي يربط الجهاز ويدور حور رأسها، لاعنة سوء حظها واختيارها، ومن ثم بصقت عليه وتركته عند الرصيف عائدة إلى المستشفى عسى أن تحصل على جهاز تكييف وليس شيئاً آخر.

تيقنت حينها أن ثمة أحلاماً مبعثرة تشبه شظايا قنبلة رميت من علِ لتحيل النظرات الخضراء بالأمل إلى فتات مبعثر. وثمة أحلام مغدورة مثل بنات موءودات ما أن تحركت رموشهن حتى أهيل التراب عليهن. بعض الأحلام لها رائحة وأخرى مشرّدة لا يجمع فتاتها حتى جلسات الاعتراف عند طبيب نفساني، وهناك أحلام فوضوية لا رابط لها أو عنوان، مثل طفل يحاول أن يرتب لعبة صممت للكبار. الوجوه مغبرة خائفة مرتبكة صفراء، وبعض الجثث متناثرة منفوخة ممددة مكورة مرمية عند رصيف الشارع وعند البنايات الحكومية.

الشوارع مقفرة، لا سيارات تعيد إليها الحياة، ولا المارة يقصدونها لقضاء مشاويرهم. بعض السيارات الحكومية العسكرية والأمنية محروقة وبقايا دخان أسود يعلن استسلامها، وأخرى نهبت من قبل الثائرين المجاهدين الكاظمين غيظهم ومن كانوا في غياهب السجون والمعتقلات، وإلى جانبهم ظهرت طبقة طفيلية من المستفيدين في كل زمان ومكان.

ثارت المناطق المحيطة بمرقد الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب وأخيه العباس، وانهزمت القوات الأمنية وقتل بعضها، كما قتل بعض السدنة من الذين يعملون كموظفين تابعين لمديرية الأوقاف، وأعفي عن الآخرين، ورفع على قببها الصفراء التي تشبه أرغفة الفقراء العلم الأخضر بدل العلم الأحمر.

غطى المدينة صمت رهيب بعد أن سقطت في فوضى عارمة، لا تلاميذ يذهبون إلى المدارس أو موظفين إلى دوائرهم المنهوبة، أو رجال إلى محلاتهم التجارية المغلقة، الأسواق تخفي خوفها خلف أبوابها المغلقة، وسوق الخضروات والفاكهة والمواد الغذائية تتجه إلى نفادها، وأنظار وأفكار وطموحات المجاهدين بثيابهم العربية وبذلاتهم المهترئة وبجامات البيوت تتجه إلى حيث مقر الزعيم الذي يختفي خلف أسوار مدينة الزوراء.

تناقلت الأيام أطوار الليل والنهار، واختفى رجال الأمن والبعث وكل من يمت بصلة للنظام، ما بين قتيل انتفخت جثته وسط الشارع أو قرب بيته أو عند مغتسل غسل الموتى، وشبعت الكلاب والقطط بها، وانتشر الذباب الأزرق عليها، وبين هارب يلوذ بقشة في بيته وقد هجم عليه شباب المنطقة وأردوه قتيلاً وسط عائلته، أما من استطاع أن يفرّ بجلده فقد هرب إلى أقربائه في الأرياف أو إلى العاصمة. هكذا تهاوت الدوائر الحكومية

المدنية والأمنية والعسكرية والحزبية كتهاوي قطع الميكانو أو أوراق شجر الخريف من دون عناء كبير.

ثمة أحلام تولد هرمة مثل نعجة دولي تحمل أعباء غيرها، وكأنها بنات سفاح، بعضها تموت قبل ولادتها لتتنفس الفضاء وترسم خطوطاً وألواناً في دفتر رسم لطفل روضة. وأخرى ضائعة تائهة في مهملات ضجيج وصخب ليل المفاجآت عندما يطرق الباب معتوه يلبس القانون ذريعة ليسترق السمع للأحاديث الدافئة، وفتاة تخفي ملابسها الداخلية تحت ملاءة على حبل الغسيل أو تغطيها بثوب أمها الفرح بالأوراد والأغصان. لم تكن حكومة البعث في بغداد لتصمت على هذا الوضع بعد أن خرجت أكثر من أربع عشرة محافظة من سيطرتها، إضافة إلى أنها حيّدت عن حكم المحافظات الشمالية الثلاث بخطوط طول وعرض حمراء، ولذلك فكرت ملياً أن تعيدها لسيطرتها المتغطرسة، وبدأت ترسل قواتها إليها على هذا الأساس، مقابل تسرب شعور بالفوضى لدى من ثار على الأوضاع السياسية والعسكرية الفاسدة.

في مقابل ذلك، بدأت التوجيهات تصدر من الحضرتين الحسينية والعباسية، لبعض الشباب الذين تصدروا حركة المجاهدين والثائرين، بإطلاق نداءات حسب الحاجة، حتى إذا ما جاءتهم برقية خطر نادوا من خلال مكبرات الصوت: نداء... نداء... نداء، على الأخوة المجاهدين التوجه إلى حي العباس لوجود بعض من فلول النظام السابق، عندها تهرع السيارات بمختلف أشكالها وأحجامها، وهي محملة بالشباب المدججين بمختلف الأسلحة.

سحبني الفضول مع أخي إلى حيث يتجه الجميع، إذ أن هذا الحي لا يبعد أكثر من ألفي متر عن مركز المدينة. بالفعل وجدنا الشباب منتشرين بين الحفر وأعمدة الكهرباء وكل ما يستطيع أن يصد عنهم الطلقات المعادية. وقفنا قرب عمود هاتف وإذا بطلق قناص تخترق الصوت لتخرق جزءاً بسيطاً من العمود بالقرب من رأسي، يا إلهي كدت أموت! انبطحنا على الأرض بعد أن مزق دوي طلقة السكينة التي كان ينعم بها رأسي.

في هذه الأثناء سَرَتْ دعاية مفادها أن طائرة هليكوبتر معادية متجهة إلى المدينة، فاستعد بعض الشباب ممن يجيد استخدام سلاح الـ (آر بي جي سفن) لإسقاطها. تسلل بعض الشباب من جهتي البساتين الموازية للشارع العام من حي العباس، لقتل القناصة المنتشرين والذين يقنصون المجاهدين المكشوفين.

بدأ صوت الهليكوبتر يخترق صمت البساتين، ويخرج من الفضاء الضيق لعيون من يحمل السلاح، وما أن أصبحت مكشوفة حتى بدأت قذائف الـ (آر بي جي سفن) تنطلق عليها من أكثر من جهة. لم يكن الطيار يتوقع أن بعض الغوغاء يمتلكون مثل هذه الأسلحة، لذلك كان طيرانه بمستوى منخفض، لم يتوقع هذه المباغتة، وعبثاً حاول الدوران والهروب أو الارتفاع أعلى مما كان عليه، فأصابته إحدى القذائف، وبدأ الدخان يخرج من مؤخرة الطائرة، وهي تهوي ببطء نحو البساتين، فهرع نحوها بعض المجاهدين، وجلبوا الطيار الذي كان حياً ومن معه إلى مقرهم.

عدنا إلى مركز المدينة، لم يكن لدينا عمل أو شيء نقوم به، مثل كل المحافظات التي سقطت بيد أهلها؛ باختصار كانت الحياة متوقفة، ويعتمد الناس في معيشتهم على ثورتهم الغاضبة ضد نظام فشل في كل الحروب التي

خاضها، وعلى بعض مما نهبوه من المخازن التي عبَّأها النظام بمختلف الحبوب والمواد الغذائية الأخرى تحسباً لحرب طويلة، بالإضافة إلى بعض الزراعة البسيطة التي كانت تغذي المحافظة من المحافظات الجنوبية.

نداء... نداء... نداء، على الأخوة المجاهدين التوجه إلى حي الحر بسبب تقدم قوات الطاغية من الناحية الغربية. كان توجيه الناس يتم عن طريق النداء الذي يوجَّه من المنائر الصفراء والمغلفة بالقاشاني، ويعاد هذا النداء لأكثر من مرة، فتتوجه إلى هناك عدة سيارات يقودها مجموعة من الشباب وهم يحملون شتى أنواع الأسلحة الخفيفة والمتوسطة بسيارات حكومية كانوا قد استولوا عليها بعد أن أسقطوا تلك الدوائر وبعضها قد فرَّ موظفوها لغياب هيبة الحكومة، بالإضافة إلى بعض ممن قتل أبناؤهم على يد حكومة البعث وزبانيتها.

يربط أغلب الشباب قطعة قماش خضراء حول رؤوسهم دلالة على نصرتهم لآل بيت محمد (ص)، فقد كانت اللطميات الحسينية للقارئ حمزة الزغير وبعض المجالس الحسينية للقارئ شيخ هادي الكربلائي تعلو من على منائر المساجد، وكان لذلك الأثر الكبير في إعلاء روح الجهاد لدى الشباب المتحمس، والذي منع من إقامة طقوسه الدينية وشعائره الحسينية بالقوة.

في يوم من الأيام ذهبت إلى مسجد يضم بين ثناياه مرقداً لولي صالح، سمعت أن الملائكة تحف قبره. جلست عند زاوية قصية وأسندت ظهري على حائط بارد. أغمضت عينيَّ وإذا بي أركب على ظهر أحد الملائكة ليطوف بي حول المرقد مرة وأخرى، ومن ثم انطلق كسهم النار يخترق الحجب إلى حيث الفضاء المفتوح. لم أتبين كم استغرقت الرحلة، ولكني

وجدت نفسي في مكان لا حدود له أو معالم واضحة، يحيطنا البخار والضباب من كل مكان. شعرت بهيبة المكان والروح التي تحوم فيه. حاورته دون خوف وشعرت بحميمية دافئة، كان يسمعني وكأنني أقول كلاماً مكرراً يعرفه قبل أن أنطق به، وسمعتُ همساً دون أن أعرف مصدره يطمئنني وكل بني جنسي أننا بخير. لكني لا أستطيع وصفه أو رسمه وكأنه حلم مرّ بي ومسح من شريط ذاكرتي دون أن يبقى منه أي أثر.

خرجت لا ألوي على شيء مذهولاً تتخطفني الأبصار أو هكذا تصورت أن الجميع ينظرني بعين الغبطة وبعضهم بعين الغيرة والحسد. بينما تقف السيارات الواحدة قرب الأخرى أمام باب قبلة الصحن الحسيني وكذلك عند صحن أخيه العباس، ثم يتقافز منها الشباب وهم يحملون إصراراً لا يلين من حوض السيارة الخارجي وينزلون منه بعض البعثيين من الذين تسلطوا على رقاب الناس وأشبعوهم إذلالاً. أخذ الناس الذين يمشون قربنا، يهتفون نعم هؤلاء بعثيون قذرون أنا أعرفهم، بينما يقول البعض الآخر: من غير الجائز أن تحاكم المجرمين، فتكون أنت الخصم وأنت الحكم، فلا بد من جمع هؤلاء القذرين في مكان داخل سجن ومن ثم تتم محاكمتهم.

لم يكن أغلب الناس يريد محكمة الغاب المشاعة الآن بين الناس وهذه الحماسة التي تغمر الشباب وهم يمتلكون زمام أمور الناس، إذ بعد قليل سينفد الغذاء والدواء، وعندها سيتنصل من المسؤولية الواحد بعد الآخر.

ضاع أملي وسط زحمة الأحلام وأضغاثها. كنت في كل مرة أحث الخطى نحوه ويتبين لي أنني في غفوة من أمري، وما أن أستفيق حتى أكتشف نفسي أجلس على دكة البيت أو ممدداً في فراشي أو مستغرقاً وممعن النظر في فيلم

عربي يحكي قصة حب معلوم أن نهايتها الفشل الذريع. أستشرف المستقبل المضبب ولا أجد ضوءًا في نهاية النفق. بدأ التساؤل يغزو عقول من انتفض على الوضع الراهن، وكأنهم بين خيارين أحلاهما مر، إما النظام الظالم أو فوضى الحرية.

نداء... نداء... نداء، على كل من اشتغل في بطارية إطلاق الصواريخ التوجه إلى صحن الحضرة العباسية. فرح أخي كثيراً بهذا النداء، لأنه كان خبيراً بهذا الصنف من السلاح، وقد عمل عليه في قادسية صدام أكثر من ثماني سنوات. حاولت منعه من ذلك لكنه أصر على الذهاب ودخول الصحن. عندما دخلنا وجدنا صاروخاً أبيض يبلغ طوله تقريباً أكثر من أربعة أمتار، والشباب يقفون على مقربة منه، فتقدم أخي وأخبر أحدهم - يبدو أنه المسؤول عن الصاروخ - أنه على خبرة كبيرة في هذا المجال، فقال نريد أن نطلق هذا الصاروخ على القصر الجمهوري الذي يقبع فيه المجرم صدام، فرد أخي وأين منصة الإطلاق؟ تسمر كبيرهم، والتفت إلى حزمة الشباب التي أتت به من الرزازة، وأعاد عليهم نفس السؤال، لكن أحداً لم يردَّ وظل ينظر بوجه الآخر، ثم قال كبيرهم تفضلوا واجلسوا في غرفة الضيوف حتى نجد منصة الإطلاق. عندما دخلنا إلى غرفة استقبال الوفود كانت الوجوه مغبرة ومرتبكة وخائفة إلا بعض العيون التي ركزت في أشكالنا حتى تحفظها. جلسنا لأكثر من عشر دقائق، عندها قلت لأخي بصوت خافت إن أغلب القائمين على هذا الأمر هم من أجهزة الحكومة، ولا بد من الفرار بأسرع وقت ممكن.

خرجنا من المسجد مسرعين إلى الشارع، والشباب بين خارج يحمل ورقة في يده والسلاح بيده الأخرى وبين داخل وهو يقود مع آخرين بعض

الحزبيين من الذين عاثوا بمقدرات الناس وكرامتهم فساداً. كانت المدينة تعيش في فوضى عارمة، على اليمين وبالقرب من صيدلية القباني دخل مجموعة من الشباب إلى زقاق مغلق من نهايته، بعد أن توارد إلى أسماعهم أن أحد البعثيين الكبار ما زال موجوداً في بيته، فركض من موجود بالشارع خلفهم، وبدأ بعضهم يطرق الباب بأخمص بندقيته، وتبعه الآخر لكن دون جدوى، فما كان من أحدهم ممن يحمل سلاح الـ (آر بي جي سفن) إلا أن وضع بداية القذيفة داخل شباك الباب وخلفيته إلى الخارج بعد أن أبعد من كان معه وضغط على الزناد فأحال داخل البيت إلى ركام ليصعد الغبار والدخان إلى عنان السماء، فكبر الجميع، بينما صرخ البعض الآخر بالصلاة على محمد وآل محمد.

عدنا إلى البيت، بعد أن تبضع أخي بالفاكهة والخضراوات، والتي تضاعفت أسعارها إلى أكثر من ضعف. كان أبي عند الباب ينتظر أولاده المتبعثرين على خريطة الفوضى، وكلما بان أحدهم من بعيد انفرجت سرائر وجهه بعد وجوم مطبق.

دخلنا إلى الدار، فوجدت أمي وأخوتي في قلق مميت، إذ جاءنا بعض المجاهدين من محافظة النجف لنصرة المحافظة ممن لنا بهم قربى، بعد أن أخرج الجيش نهائياً من الكويت، دخل أبي ووجهه مطعون، كان في دمه سم زعاف، لم يطق صبراً على وجود هؤلاء المدججين بالسلاح داخل بيته، وهو يعرف مسبقاً أن الدول العربية بعواصمها، إن لم تسقط بغداد، فلن يتغير شيء رغم خروج محافظات الشمال عن سيطرة حكومة بغداد، وصدور قرارات أممية تؤمن حصتهم من موارد النفط، وسقوط الوسط والجنوب

كله، باستثناء الجزء الشمالي من بغداد والأنبار وصلاح الدين وديالى، وأجزاء متناثرة هنا وهناك.

لم يطق أبي صبراً على هذه الجهالة التي يعيش أولاده فيها والمجاهدون أصدقاؤهم وأقرباؤهم، فدخل إلى غرفة الضيوف وأمهل المجاهدين حتى الصباح، ليخرجوا من البيت، وبقي طول الليل يلوج مرة على الفراش ومرة بالذهاب والمجيء في ممر طويل وسط الدار، حتى إذا ما شعشع ضوء الشمس دخل عليهم وأيقظهم وطلب منهم الخروج فوراً.

خرجت كالعادة مع أخي أستطلع بفضول مراسلٍ حربيٍّ أوضاع المدينة التي بدأ الخوف يأكلها من كل جانب. دخلت إلى أسواق المدينة، تهاوت قطعة مستطيلة من التنك نحو الأرض، نتيجة القصف المستمر على مركز المدينة، أما سوق التجار المسقف من التنك فقد تهاوى أغلبه بعد أن سقطت في وسطه قذيفة هاون من حي رمضان بالقرب من نادي الطف الرياضي، بقصف مستمر لم يكن لينقطع أبداً، فقد أصبح مركزاً للعمليات بقيادة صدام كامل.

بدأت الدوائر الوهمية التي رسمتها القوات المتجحفلة نحو كربلاء تضيّق الخناق على أهاليها باستمرار، وهي في كل يوم تقضم شيئاً منها، توجه المدافع على أسواقها، بينما طائراتها الهليكوبتر تدور في سمائها لترمي المنشورات التي تطلب من أهالي المدينة الخروج منها بعد أن قطعوا المياه والكهرباء والوقود عنها، إضافة إلى نفاد المواد الغذائية، فتهاوت المدينة.

ذات حلم مفجوع من صيف نيسان مقترن بالحر كجلد تمساح قديم، بعد أن ضاقت بي السبل، قررت الذهاب إلى بيت عمتي. عمتي الحبيبة من

فرط حبها كانت الشمس تتفيأ بحنانها، لم يغلق رتاج بابهم الخارجي يوماً بوجه القريب والغريب، وباب استقبالهم كان قلبها الدافئ، في ركنه النضد الخشبي يعلو بالوسائد والفرش والحديث المحلى بالشاي.

دكان عطارتهم كجنة الله على الأرض فيه الأمان والورد والحب، فيه الابتسامة والأحاديث الناقمة على نظام البعث وحروبه، أولادها مثل نسائم الربيع مدججون بالنكات والضحك. وعمي جواد العيساوي مثل ساقية ماء عذب، يغضب عندما تخلو غرفة الاستقبال من الضيوف أو لا يجد عند عتبة دكانه بعض شباب الجيران أو أقرانه من المسنين. لقد أردته رصاصة الحرس الجمهوري قتيلاً، ولما لم يستطع أهله دفنه في مقابر المسلمين، دفنوه كأمانة عند عتبة الدار، حتى تستقر الأمور ليخرجوه ويدفنوه في مقابر المسلمين.

فررنا راجعين إلى مركز المدينة نلوذ بالحيطان إلى منطقة الفراشية قرب منطقة الفريحة آملين بالأمان. خلت المدينة من أهلها، وقتل بعض المقاتلين أو المجاهدين كما يطلق عليهم، وفرّ كثير منهم إلى خارجها، وعادت الإشاعة الصفراء العكسية تنتشر كالنار في الهشيم بين الناس، من أن علي كيمياوي أو علي حسن المجيد تسنم منصب وزير الداخلية، كما تسنم حسين وصدام كامل زمام الجيش الذي وقف على أعتاب المحافظة بعد أن أحاطها من الجهات الثلاث باستثناء طريق بابل لإخراج الناس مع أولادهم الذين يحملون السلاح.

لم أتيقن بعد أن الذي أعيشه هو حقيقة بكل الدماء المتناثرة على طرفيها، فكثيراً ما كانت تختلط الأحلام بالحقائق. ومثل ليل الشتاء الطويل ظل نومي يواصل رحلته المحفوفة بالمفاجآت نحو الصباح، في جبهات القتال

المخصبة بالموت كانت كل رصاصة احتمال، كما في الحياة المدنية فإن كل نظرة هي أمل. فثمة أحلام أشبه بالثرثرة تحيل العالم إلى ساحة حرب حيث تدور بكرات الليل وأنا أجتر (الساعة الخامسة والعشرون) تلك الساعة التي يتعذر فيها على الإنسان النجاة بحياته من هلاك مؤكد، هي اللحظة التي ستكون فيها كل محاولة لإنقاذه عديمة الجدوى، إنها ليست الساعة الأخيرة، بل هي بعد الساعة الأخيرة، إنها الساعة الخامسة والعشرون كما أشارت ساعة جيورجيو.

رواية الأحلام المهدورة لملايين النفوس البريئة ممن زهقت دماؤهم في معارك لا معنى لها، عن الفلَّاح جوهان موريتز الذي عاش ظروف الحرب العالمية الثانية، وتعرض إلى اضطهاد جميع الأطراف المعنية بها، دون أن يكون هو طرفاً فيها. عن الأمل الذي لا يمكن أن يضاهي الحياة نفسها. لأن الأمل عشبة تنبت حتى بين القبور. وعن اليأس حينما يسأم البطل الحياة وهو يناجي: اجعلني قطعة من الحجر يا مولاي، ولكن لا تتركني للحياة.

انهزمت الثورة والأحلام شر هزيمة بعد أن تحالفت عليها كل قوى الشر، وانسحق الثوار، ومن تم القبض عليهم حفرت لهم أخاديد في الأرض مع عوائلهم وأهيل عليهم التراب، بينما فر الآخرون إلى المحافظات الجنوبية بعد أن مروا بطريق الخوف والجوع والعطش الذي يحف مسيرهم لمئات الكيلومترات.

كان ملاذنا هو بستان زوج خالتي في منطقة الفراشية – الفريحة، أسمع هسيس أصوات لم أتيقن منها، فثمة أحلام تباغتُها وأخرى تباغتُك، حتى لمع بريق يخطف الأبصار، وتناهى إلى سمعي شاعر يهمس بصوت عال على

ضفاف المدينة: أظنُّ دائماً أن المدن التي أغادرها بعد أن أطبع نظراتي على نوافذها، وخطواتي على شوارعها ولمساتي على مرمر حنينها، وفمي على كؤوسها، وعينيَّ على أبراجها العالية، وحدائقها المائسة بالخضرة، وعلى نسائها المتغنجاتِ بالفطرة، وعلى زوايا منسية فيها، قد لا يلقي عليها العابرون مجرد نظرة، وعلى امرأة مرَّت سريعاً ولم ترني كعادة النساء في عدم الانتباه، وعلى شجرة رفعت ظلها كاشفةً حياتي للنهار، وعلى طير لم أرَ مثل لونه في أية زاوية طيران. هذه المدن كنت أعتقدها دائماً بعد مغادرتي فارغة. يا لظنوني وأنا أرى العالم من زاويتين صغيرتين لعيني وحسب!

الفرق كبير بين أن تكون فلّاحاً في أرض، تمر السنون ويؤكل عمرك مثل سلعة بعمر افتراضي لتزول دون عنوان، وأن تكون أرضاً في فلّاح تعمر نفسك ليبقى غرسك شاهداً على العصور. وهو الفرق نفسه بين أن تعيش كدين في وطن تسخِّر كل شيء من أجل خدمته – كدين – وبزوالك يزول الدين والوطن، وأن تعيش كوطن في دين تسخر كل شيء من أجلك – كوطن – وبزوالك يبقى ما بنيته من وطن ودين نبراساً يخلد الحياة. هكذا يجب أن تنتهي اللعبة عندما يتحول الوطن إلى نظير لوجود الإنسان يعمر فيه ويكون صنوه، وليس بالضرورة أن يكون الوطن هو تلك الرقعة الجغرافية من العالم، بل ليكن هو العالم كله لا أن يكون الإنسان نظير الدين القائم على وجوده وبزواله يزول كل شيء بعده دون ترك أي أثر.

اجتمعنا كأقرباء رغماً عنا، نشرب ماء النهر الجاري والذي بدأ يتناقص حتى بدا مثل خيط رفيع إلى أن انقطع، ما اضطر أبي بين الحين والآخر لركوب سيارته بعد أن عبَّأها بالبنزين من قبل والذهاب إلى بيتنا، من أجل ملء بعض

قدور الطبخ بالماء الصالح للشرب. ذات مرة تأخر أبي عن موعد رجوعه المعتاد، شغل بال الجميع، فالماء الذي يجلبه تطبخ النساء به حساء العدس بوجبات النهار الثلاث، والأطفال يشربون منه والرجال يتوضأون به، بينما يقتل الشباب وقتهم الطويل والممل بقطع بعض أقلام العنب كسجائر، يلف كبار السن التبغ بأوراق البافرة الشفافة ويعفروها دوائر بيضاء.

جاء غراب الشؤم لينبئنا بأن والدي تعرض لحادث عند تقاطع الشوارع المؤدية إلى بغداد بابل النجف مركز المدينة القديمة. سقط أخي الذي يكبرني مغمياً عليه، وتخاذل الذي يصغرني من المجيء معي، فهرعت مع أخي الآخر وأمي التي أصرت أن تأتي معنا إلى مكان الحادث، وكان مروعاً، فقد وجدت أبي وأخي مجندلين قرب سيارته المثقبة برصاص الجنود بعد تهشم زجاج السيارة الأمامي والجانبي.

كان أبي يلفظ أنفاسه الأخيرة، وطلب منا توجيهه نحو قبلة المسلمين وبدأ يتشهد الشهادتين، بينما يعاني أخي بعض الجروح البسيطة جرَّاء الحادث وانقلاب السيارة، لكنه يعمل جاهداً على شد أزر أبي في الاستمرار بالحياة حتى تتم نجدته، يحيطهما الجنود وهم شاهرون أسلحتهم عليهما. كانت أمي تخفي انهيارها وهزيمتها وهي ترى زوجها وابنها مضرجين بالدماء، وانفرط صبرها وسالت دموعها الخارجة عن سيطرتها كزوجة وأم. طلب أبي منها الاقتراب منه بصعوبة، وأعاد طلبه مرة أخرى لتقترب منه أكثر حتى التصقت أذنها بفمه، أسرَّها بشيء لم نتبينه، شعر أبي بأن الموت مغادره، وبأنه يستطيع الكلام رغم الدم النازف من أنفه وفمه. طلب من أمي أن تحفظ وصيته وبدأ يتكلم بصوت مسموع قائلاً:

- إن قبل متوكل الزواج من ابنة خالته فله مبلغ الزواج من ثلثي بعد الموت، وإن رفض فلا حصة له من إرثي.

كنت أجلس قرب قدميه وأنا أراه عتياً يتمسك بالدنيا رغم الدماء التي تغطيه من كل صوب، نظرت إلى كفه الأيسر ووجدته يتصل بجلد ساعد يده، هناك ثقب ليس بالكبير على خده الأيمن قرب أنفه، بعض شظايا زجاج السيارة تنضح دماً، ثوبه مخرم بثقوب الرصاص تشي بجروح تنضح دماً لم أتبين مكانها، ولكن عضلة قدمه كانت تفضح الرصاص الذي ثقب بعض أجزائها.

ما أن جاءت سيارة الإسعاف المدنية التي استولى عليها الجيش، حتى نزل جنديان بنقالة وحملا أبي كمعتقل إلى مدرسة الثورة قرب مرآب المدينة بعد أن حوله الجيش إلى مستشفى عسكري. واعتقل أخي كونه عسكرياً رغم تقديمه ما يثبت ذلك، واعتقلت أنا أيضاً، وسمحوا لأمي أن تأتي معنا تعاطفاً معها بسبب دموعها التي لم تنقطع، بينما بقيت السيارة التي كانت أشبه بعلبة متكورة على نفسها من كل جانب والرصاص يزرع بؤسه على صفيحها، زجاجها مهشم وبعضه شكّل ما يشبه شبكة العنكبوت بجانب الشارع. قادنا الجنود إلى الضابط الذي يتخذ من أحد البيوت مقراً له.

VIII
نهاية البداية الأولى

تصر بعثة الأمم المتحدة في كل مرّة أن توقفنا في طابور، وكأنها تعلمنا النظام الذي لم نعهده من قبل. أصيخ السمع إلى الأطفال وهم يصرخون: إنها طائرة كبيرة، وكأنهم كانوا يعتقدون أنها صغيرة كما اكتشفوها أول مرة في الكتب المدرسية وأفلام الكارتون. بينما أنزع آخر أشيائي المادية والمعنوية التي أرهقت كاهلي.

ثمة أحلام ثملة وأخرى مهزومة من واقعي اليائس والمتأزم بالنكبات جراء الحروب وهذيان عاشق موتور كلما دخل تجربة حُب خرج منها بمعادلة اجتماعية صعبة التحقيق. أجتر أيامي بأطوارها المختلفة مع اختلاف الليل والنهار والحر والبرد، بأوراق أشجارها اليانعة والمجردة من كل أمل. أتفكر كثيراً باللحظة الحاسمة التي ربما ستغير حياتي إلى الأفضل وربما يجتاحني الحنين فأعيش لحظة اغتراب لم أكن بعد قد غادرتها لتولد من جديد.

تستيقظ براكين الغضب داخلي وأكبتها حفاظاً على أيامي الباقيات التي أود عيشها بسلام، بينما يقتادنا الجنود إلى حيث مقر الضابط الذي اتخذ من أحد البيوت مقراً له، وخلفنا أمي بعباءتها السوداء كأنها تسحب الحزن كله وراءها. كنت أرى ماكينة شفل عسكرية تغتال كل شجرة أو نخلة وقف خلفها مجاهد أو ثائر ليصطاد الجنود المحملين بالخوف والغل، تنكس

أشجار النخيل رؤوسها، فيهرع الحمام والفاخت بكل الاتجاهات مفزوعاً من هول الاهتزاز الذي ضربها من وسطها، سقطت أفراخ العصافير والطيور الأخرى، مثلما سقطت بعض البيوض التي لم تفقس بعد.

ضربت النخلة القريبة والتي كانت خارجة عن السرب الذي تصطف فيه النخلات بقوة مرة ثالثة، فقصمت ظهرها إلى نصفين بعد أن قطع حبلها الشوكي، وتهاوى رأسها إلى الأرض، بأشرطته الجميلة كأنه فتاة في أول صباحها وهي تحمل أقلام الرسم نحو مدرستها، وقد وزعت القدرة الربانية سعفها بشكل جمالي يعجز الوصف عنه.

كان حزن النخيل أربعين يوماً مثل عمر الزهور، حتى يحمل من جديد، لتنشق شرنقة الطلع وتنتشر في فضاء كل البساتين، تحمل الخير لأهل الأرض وعُمَّارها. في الطريق وأنا أسحب خيباتي وأشيح بنظري إلى كل ما يحيطني من أماكن وذكريات، سألت أخي عن الذي حدث لهما فقال:

- كان الشارع فارغاً، بينما يقود أبي سيارته بكل استرخاء، لم ينتبه لما ينتظرنا، حتى وصلنا إلى الفلكة - الساحة الدائرية لتقاطع الشوارع الأربعة عند باب طويريج، خفف من سرعته، كي يستدير إلى الشارع الفرعي الذي يؤدي إلى بيتنا، وإذ بالرصاص ينهمر علينا من ثلاث جهات، مدرسة الفرزدق للبنين، ومدرسة الحوراء زينب للبنات، وعند البستان الركن، فأوقف أبي السيارة، لأنه لم يكن يعرف ما يفعل، وعندها تقدم الجنود نحونا، صعد أحدهم على واجهة السيارة وأخذ يطلق الرصاص على زجاج السيارة الأمامي، فلم يكن من أبي إلا أن رمى بنفسه عليَّ ليحميني من غدرهم، بينما بقي الجندي يطلق الرصاص حتى

نفدت ذخيرته. فتح الجندي الآخر باب السيارة الجانبي ليجد أبي رجلاً كبير السن تجاوز الستين من عمره يلبس الشماغ والعقال، فاعتذر منه وظنه من الغوغاء أو المتمردين على النظام.

- وهل كان لأبي القدرة على الرد بعد وابل الرصاص الكثيف الذي سلط عليه؟ وماذا فعلت أنت؟

- غاب أبي عن الوعي من الخوف ورهبة الموقف، وقد تضرج بالدماء، وأصبح جسده مثل منخل طحين ينز دماً من أغلب الأنحاء، ولكن صوت الجندي عاد به إلى الحياة.

- يا ابني أنا صاحب عائلة كبيرة، جئت من أجل الماء، ولك أن تنظر حوض السيارة الخلفي لترى قدور الطبخ التي لا أملك غيرها، ابني الكبير ضابط في الجيش العراقي، ولم يعد بعد من جبهات القتال مع الذين عادوا، وهذا الذي قربي هو عسكري مثلك.

يتكلم أبي بمشقة كبيرة، وهو بين الحين والآخر يبصق على الأرض دماً مخلوطاً باللعاب، حتى رق الجندي لوضعه وأخذ بسحبه من السيارة، ومدده على الرصيف، ثم قفز الجندي الذي كان يصعد على واجهة السيارة إلى الأرض وحاول فتح الباب الجانبية قربي بعد أن اطمأن لنا، لكنها ظلت عصية على الفتح، فطلب مني البقاء في مكاني وإخفاء وجهي بيدي، ثم ضرب زجاجها بأخمص بندقيته فأحالها إلى فتات بعثر داخل وخارج السيارة. وضع بندقيته على الأرض، وأمسك الباب بعد أن رفع مفتاح غلقها، وسحبها بكل قوته فانفتحت. وبعدها أخرجني من السيارة ومددني قرب أبي حتى جاء الضابط المسؤول وبصق على كلينا، وهو يقول شامتاً:

- فرس، مجوس، غوغاء، والله لنقتلكم ونطهر المدينة من رجسكم.

أبي مضرج بدمه، وثوبه قد تحول إلى لوحة رسم دامية، يئن من الوجع والجروح، لكنه لا يستطيع أن يحرك أي من أعضاء جسده، حتى أن بعض الذباب بدأ يقف على وجهه وقد يبست بعض بقع الدم عليه دون أن يستطيع هشها. فقلت بعد أن وجدت الشر ينط من عينيه، والغضب مسيطر عليه مثل ثور هائج:

- سيدي أنا عسكري، ونزلت بإجازة رسمية، فوجدت الوضع كما تراه، فأخذت عائلتي بعد أن تقطعت السبل بي إلى الريف حيث بستان بيت خالتي، وجئنا لجلب الماء من بيتنا بعد أن قطعت المياه عن الأنهار، ونفد الغذاء منا.

- بل أنت خائن جبان، جئت مهزوماً من الكويت بسلاحك لتقاتل مع الخونة.

- سيدي أنا اختصاصي لاسلكي مخابرة، ولا أمتلك أي سلاح، كما أن وحدتي العسكرية في البصرة ولم تنقل إلى الكويت، ولك أن تتأكد من ذلك وتتصل بوحدتي التي ما زالت في البصرة.

وكأنه لم يسمع ما قلته، أو سمعه ولا يريد تصديقه. نظر إلى الجندي الذي بجانبه، وطلب منه أن يأخذنا إلى مقر الضابط المسؤول عن الوحدة القتالية في هذا القاطع. وطلب من الجندي الآخر أن ينادي على سيارة الإسعاف لأخذ أبي إلى المستشفى العسكري على أنه عميل يمكن الحصول منه على معلومات مهمة.

بينما كان أخي الأكبر يحدثني، كانت أمي تصيخ السمع لما يرويه، يأخذها الفضول مثلي لمعرفة ما جرى. عندما وصلنا إلى مقر الضابط، رفض الجنود دخول أمي معنا، ففضلت الانتظار قرب الحرس بينما دلفنا إلى الداخل وكان أحد الضباط يحلق لحيته كما ينزع الفيل لحاء شجرة بكل قوته.

البيت من الخارج محفّر بأثر طلقات رصاص عند ستارة الطابق الأول والثاني، ومن الداخل كأنه تعرض إلى تفتيش دقيق وهمجي، كل شيء مبعثر وفي غير مكانه. أشحت بنظري أثناء مروري في الممر إلى المطبخ، كانت أغراضه مبعثرة وبعضها مكسور، باب الثلاجة مفتوح ويظهر سواد الحزن داخلها بعد أن أفرغت أمعاؤها، وبعض صحون الألمنيوم مرمية على الأرض.

جدار غرفة الاستقبال يخلو من أشيائه، المروحة السقفية متوقفة عن الدوران بعد أن عوجت رِيَشَها الثلاثة، باستثناء الصورة الفوتوغرافية لزوجين ببذلة العرس بالأبيض والأسود مائلة تمسك نفسها عنوة بعد أن هشم زجاجها، الساعة الجدارية بإطارها الساج الماروني الجميل ساقطة على الأرض يتكئ رقاصها على جانبه، بينما توقف نواسها عن التكتكة.

المروحة الأرضية الخضراء تخرج صوتاً نتيجة مساس رِيَشَها الثلاث أثناء دورانها بالشبكة الحديدية التي تتقدمها، بينما يتمايل الخيط الأخضر المشدود بها كأنه ذيل طيارة ورقية، النضد الخشبي يفتقد الفرش والوسائد التي يسعد بحملها بعد أن تبعثرت على الأرض بحثاً عما تخفي بين طياتها من قبل الجنود.

أوقفنا الجندي جانباً بعد أن أوثق معصمينا إلى الخلف من قبل، وأخذ تحية بكل ما أوتي من قوة، عندها تنبه الضابط لوجودنا، بينما أخذ الجندي يشرح له قصة تعرض أبي وأخي لإطلاق النار من كمين عسكري، وأن والدنا أخذ إلى المستشفى العسكري، كما شرح سبب تواجدي معه.

نهض الضابط من مكانه، كان كتفه يحمل كثيراً من الرتب المضاعفة بينها نجوم وتيجان، وقد كنت مرتبكاً لم أتبين عددها، وربما حتى لو تبينتها لم أكن أعرف معناها، فأنا لم أخدم في الجيش ولا أعرف أكثر من رتبة رئيس الجمهورية كمهيب، ولا أعرف رتبة آمر قاعدتنا الخالي من الرتبة في قاطع الجيش الشعبي، ولكني كنت أعرفه بالشكل دون أن يضع على كتفه أية رتبة، وقف أمام أخي الذي لم يرفع رأسه أمامه خوفاً، حتى شعرت بارتجافه قائلاً:

- خائن وعميل وجبان.

ثم بصق بوجهه، دون أن يستطيع أخي أن يمسح بصاقه عن وجهه، ليس لأن يديه مشدودتان إلى الخلف، وإنما لتيقنه أن أمر حياته أو مماته بيد هذا الجبروت الذي وقف أمامه متجبراً وهو ينفث سمه كأفعى الكوبرا، ليتم اتهامه وسبّه بالقول:

- كنت تقاتل مع الخونة، و(تصيح ما كو ولي إلا علي ونريد قائد جعفري)، حرقتم الدوائر الحكومية ونهبتم مخازنها، وقتلتم من كانوا درعاً لكم يحمونكم من اللصوص وقطاع الطرق.

على ما يبدو أن أخي كان يعرف أصول الجيش والعسكر، ولذلك لم يشأ أن يتكلم، أو يصدر أي تأوه، رغم الجراح والرضوض التي تملأ جسده،

وبقع الدم التي تكلست على ثوبه، ولذلك آثر الصمت، حتى أذن له الضابط بالكلام:

- سيدي، نحن عائلة معروفة بولائها للدولة والبعث، أخي الأكبر ضابط بالجيش العراقي، وقد أسر في جبهة الكويت، أما أنا فجندي اختصاصي مخابرة، ولا أعرف الرمي بالبندقية بعد خدمة ثماني سنوات في جبهة البصرة، ولكم سيدي أن تبعثوا مأموركم بكتاب استفسار عني وعن موقفي العسكري إلى وحدتي للتأكد من ذلك. جئت بإجازة بعد أكثر من أربعين يوماً في الجبهة، ولم أستطع الرجوع إلى وحدتي، وأنموذج إجازتي في جيبي، وإذا كنت أتفوه بأية كلمة غير صحيحة، فاعدمني الآن.

شعر الضابط بصدق كلام أخي الأكبر، ولكن لم يشأ التراخي أمامه، وإنما ظل على زمجرته، كأنه دبابة خربة، تنفث دخانها دون أن تتحرك من مكانها. لكن أخي لم يرفع رأسه بوجه الضابط أبداً، وإنما كان يتكلم وهو منخفض الرأس ونادراً ما كان يرفعه برجاء بوجهه.

- أكيد سأرسلك إلى وحدتك مخفوراً، وسيأتي مأمورنا بتفاصيل موقفك لأتأكد من صحة كلامك.

ثم انتبه إلى وجودي، وكأني كنت غير مرئيٍّ، والآن ظهرت، وكأنه لم يتقيأ كل ما في جوفه من عفونة، فراح يكيل السباب والشتم من جديد بالقول:

- وأنت أيها الجرذ الحقير، أكيد انخرطت مع الخونة من الأحزاب الدينية التي جاءت مع القوات الإيرانية لتقاتل جيشنا الباسل الذي رد

عدوانهم على مدى أكثر من ثماني سنوات، أم كنت سلاباً نهاباً للمخازن، أم اختصاصك حرق وقتل أولادنا من رجال الأمن والحزب.

اتبعت طريقة أخي بالصمت حتى ينهي الضابط كلامه، وما أن أتمه حتى رفعت رأسي بوجهه، ووضعت عيني بعينه، يتملكني الخوف، ولا أدعي الشجاعة وأنا أكتب هذه السطور، ثم قلت:

- سيدي، المرة الوحيدة التي أمسكت فيها البندقية، هو عندما التحقت بقاطع الجيش الشعبي في منطقة طق طق. ولم أرمِ بها إطلاقة واحدة، بسبب سيطرة الجيش والأمان الذي كان يحيطنا بسببهم. سيدي أنا طالب في كلية الآداب - جامعة بغداد، وكنت آخر من ترك الدراسة، بعد أن ترك أهالي بغداد بيوتهم، ولجنابك أن تتأكد من ذلك بنفسك.

كانت بطاقة انتمائي إلى الكلية بحوزتي، وقد خالجني الخوف وأنا أتذكر فصلي من الكلية، ولكني امتلكت الشجاعة الكافية كما أخي لأدافع عن وجودي، فالكلمات في كثير من الأحيان تحمل دفء وصدق قائلها أو كذبه.

- تقصد أن الذي قام بالتخريب جاء من القمر، أم من كوكب آخر؟

- عفواً سيدي، أي شخص قام بالتخريب، إما قُتلْ أو فر مع الهاربين إلى خارج المحافظة، ولا يمتلك الشجاعة أن يتواجد بالمحافظة بعد دخول الجيش وتحريرها من عصبتهم.

تيقن الضابط من صدق حديثنا، ولكنه لم يشأ تصديقنا، أو ترك أية فجوة من التراخي في التحقيق معنا، فقد كان يجلس في غرفة الاستقبال رجال بالزي المدني، أعتقد أنهم من أجهزة الأمن والمخابرات، شككت في بعض

الوجوه أنها كانت متواجدة في الحضرة الحسينية أو العباسية. ثم التفتَ إلى الجندي الذي كان يقف كالخشب عند باب غرفة الاستقبال، وطلب منه أن يسفِّر أخي إلى وحدته العسكرية، أما أنا فأركن مع الشباب الذين جلبهم الجنود من قبل، في الساحة الجانبية للبيت.

خرجنا من باب البيت، وكانت أمي تجلس مثل كومة حزن تنتظر مصيرنا، وما أن رأتنا حتى نهضت من مكانها كأنها جبل صابر ومحتسب، لكن الجندي صاح على جندي آخر وطلب منه سحب أخي إلى السيارات التي تقف على الجانب الآخر لتأخذه إلى حيث مرآب السيارات العسكرية لتأخذه بدورها مخفوراً إلى الوحدة العسكرية، ومن ثم أخذني إلى حيث تجمع الشباب.

وقفت أمي بين مفترق طرق، تفكر هل تتبع أخي المتزوج وله طفلان، أم تتبعني أنا الذي لم أشبع بعد من هواء الربيع وتفتح أزهاره. ركضت خلف أخي، وعادت من جديد وركضت خلفي، عادت لتركض خلف أخي، لكنه طلب منها أن تذهب ورائي، إذ من المحتمل أن أعدم، بسبب سماعنا صوت إطلاق رصاص يسبقها توسلات ودموع ونحن في غرفة الآمر، فعادت خلفي وقد فقدت رشدها عندما سمعت بكلمة الإعدام. وقبل أن نصل إلى المكان المقصود، انحنت أمي على يد الجندي تقبلها وترجوه أن يتركني.

كانت تحلف بكل المعتقدات، أنني بريء ولم أشارك بأي أعمال شغب ضد الحكومة، لكن الجندي كان يصر على إتمام طريقه بعد أن سحب يده عن وجه أمي، لكنني شعرت أنه تراخى وضعف أمام توسلاتها ودموعها

وإيمانها وبراءتها التي تنقذ أجيالاً. سحبت أساورها الذهبية من يدها، وقدمتها له وهي تتوسله أن يعدّها هدية لزوجته أو ابنته إن كانت لديه فتاة. وقف الجندي حائراً ماذا يفعل، وهو ينظر إلى جلد يد أمي وقد تمزق عندما سحبت ذهبها وقدمته إليه كقربان مقابل روحي.

انهار الجندي أمام توسلات أمي ودموعها التي لا تنقطع، وعيناها المحمرتان تكادان تخرجان من محجريها، وعباءتها المتربة وهي تسحل وراءها تاركة خطوطاً على التراب وكأنها تمسك الأرض تصر على أن تحررني من الموت المقبل والذي لا يفصلني عنه إلا بضعة أمتار، هكذا اقتنعت بحقيقة الموت المنتظر.

وقف الجندي، وربما خذلته قدماه عن المسير أكثر، التفتَ إلى أمي وهو يزم على شفتيه غضباً، ومن ثم نظر لي نظرة لم أستطع وصفها، لكنني شعرت بحيرة موقفه، بين تصديق رجاءات أمي المستمرة، وقناعته بعدم مشاركتي بأي فعل ضد الحكومة، وكان يسمع حديثي الذي أخبرت به الضابط، ولكن على ما يبدو أنه يقوم بالتحقيق الشكلي، فيسمع أقوال أي شخص يجلبه الجنود بغض النظر عن صحتها من عدمها، فيرسل المدنيين إلى الإعدام عند جدار المدرسة الخلفية التي لاح لي عن قرب، أما من كان عسكرياً فيأخذه إلى مكان آخر لم أعرفه حتى هذه اللحظة.

فك الحبل عن معصمي يدي، وأشار إلى زقاق مفتوح النهاية، ومن ثم طلب منا الركض بسرعة قرب الحيطان حتى نهايته، وقال متوعداً إن مسكتَ وعاد بك الجنود من جديد، فسأدعي أنك هربت مني بعد أن ضربتي. لم يكن من أمي إلا أن وقعت مرة ثانية على يده تشكره وتدعو له

بالصحة والعافية. ومن ثم أخذنا نهرول باتجاه الزقاق، وعندما وصلنا إلى الشارع الفرعي، وجدت حوذياً منفوخاً قرب حصانه وعربته المقلوبة جراء قنبلة أحالتهما إلى جثتين، على مقربة منه، رأيت رجلاً كبير السن مقتولاً وقد ترك عربته ذات العجلات الثلاث. طلبت من أمي الجلوس فيها، وأخذت أدفعها على عجل بين الأزقة والشوارع الفرعية حتى خرجت من الجهة البعيدة عن منطقة الحرام أو هكذا تهيَّأ لي، بينما أزيز الرصاص الذي يتطاير في السماء يكاد يصمّ آذاننا.

كانت أمي تدوس على جراحها، وهي تركض لاهثة، وقد ودعت جزءاً من فؤادها مع أخي الذي سيق إلى مكان لا نعرفه، وفي الوقت نفسه، كانت العربة ذريعة مجدية لأي طارئ من الجيش، كون الجنود طلبوا منا الخروج من المدينة، وكذلك للمجاهدين الذين لا يطلقون على الأشخاص المدنيين.

صارت المسافة التي تفصلنا بستان بيت خالتي، والتي لا تربو على ثلاثة كيلومترات، أطول من نصف قطر الكرة الأرضية، يحفنا الخوف والرصاص المتطاير. عندما وصلنا شعرت أمي بالأمان، وعندها فقدت الوعي بعد أن انتبهت ووجدت نفسها مجهدة وقد سلبت زوجها وابنها. ركض الجميع إليها، وأخذ بعضهم يروح عنها بالمروحة اليدوية، بينما ركض الآخر ليجلب لها الماء ويرشه على وجهها، لتستفيق أمي وقد هدها التعب لتعود من جديد وتبكي.

لم أستطع إخبارها بأنني سأغادر، فلم يعد هناك من احتمال نجاتي أن وقعت في قبضة الجيش من جديد، وقد شعرت أنهم سيقضون على كل من

يقع تحت أيديهم. عند الليل وبينما تنتهك الطوافات والهيلوكوبترات سماء المدينة وهي ترمي المنشورات، وبعد أن اطمأنيت على صحة أمي، قررت الانسحاب ليلاً بعد أن طلبت من أخي الأصغر أن يخبر أمي عند الصباح أنني ذاهب مع الذاهبين إلى حيث اللاعودة.